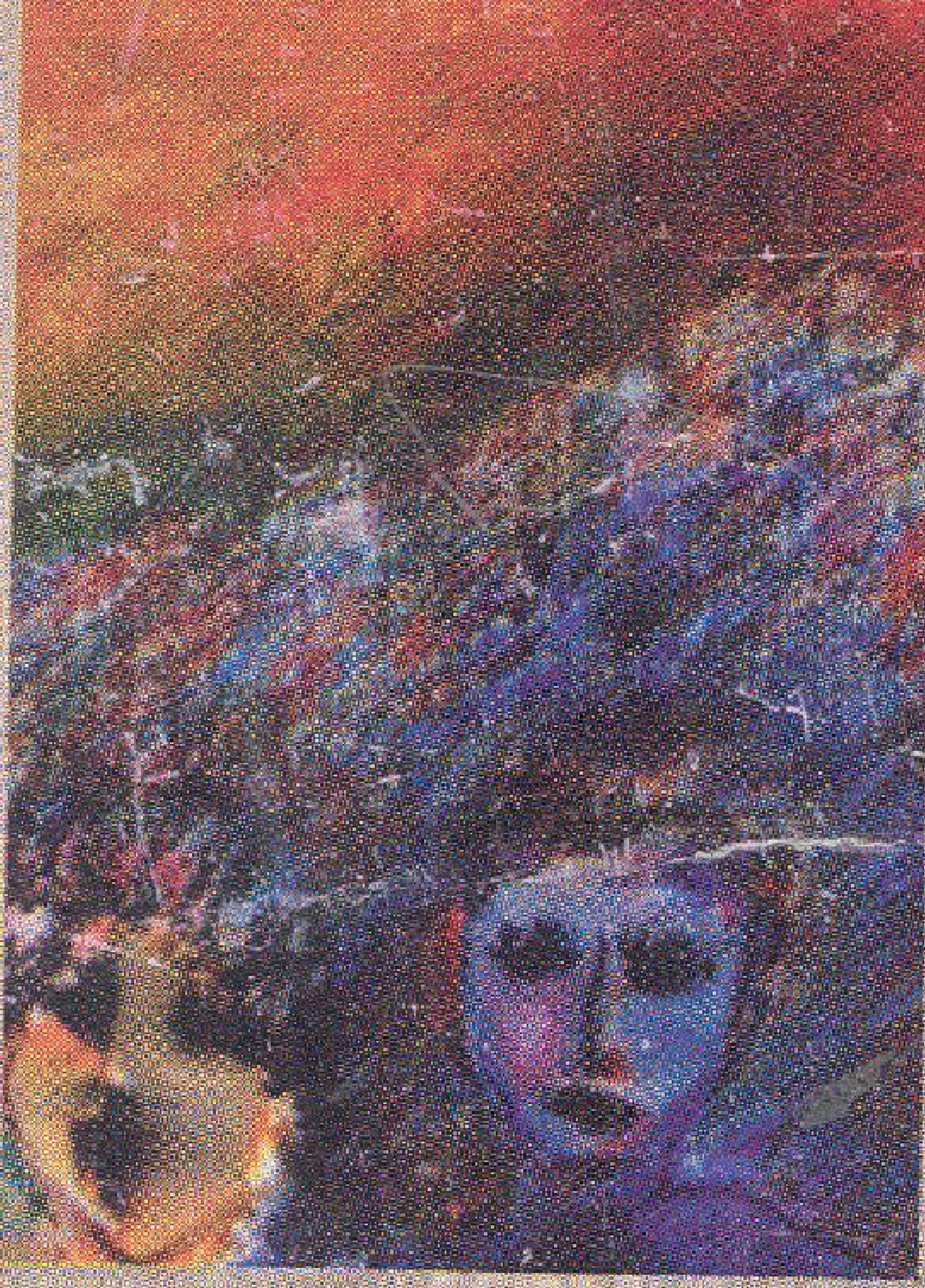




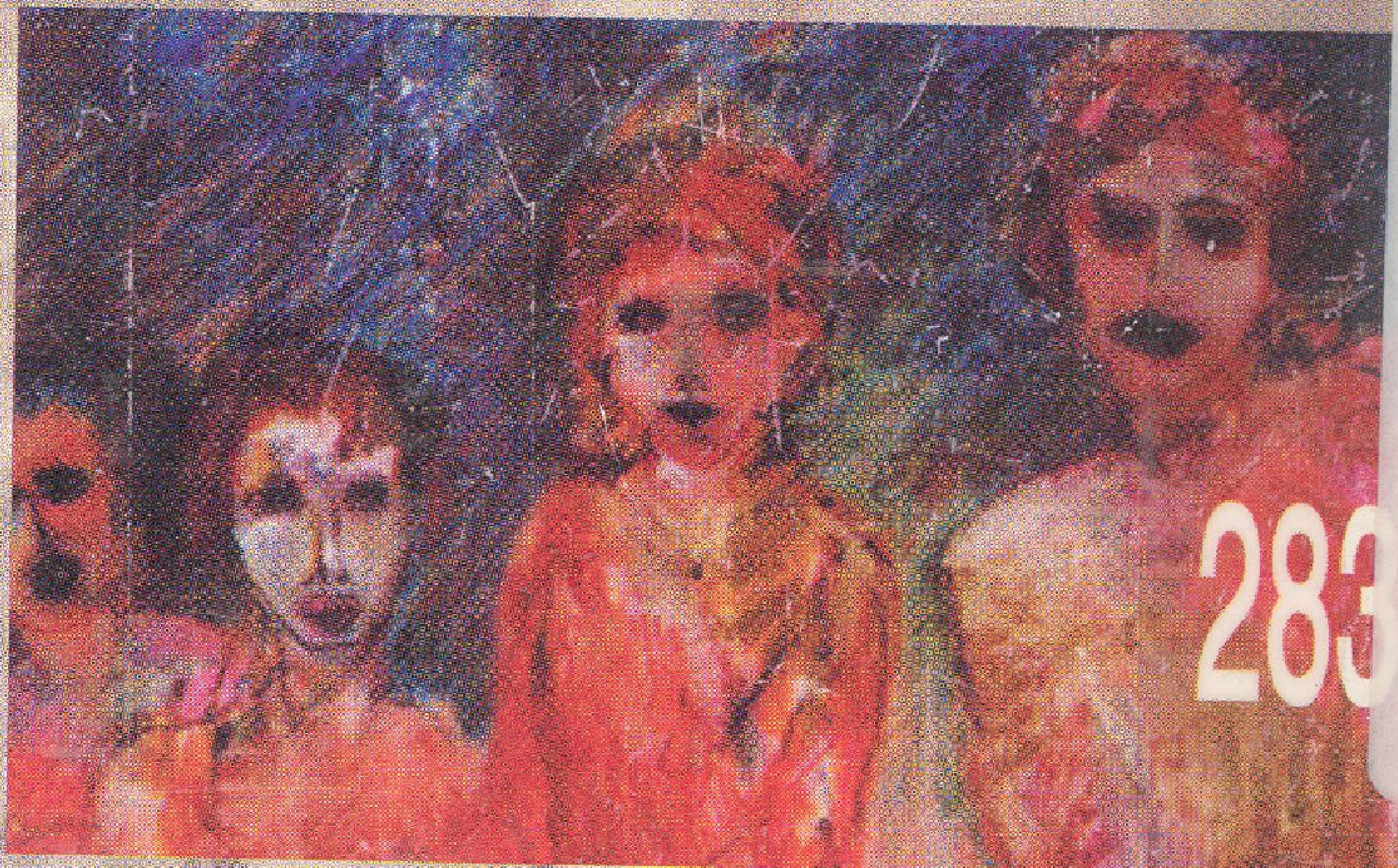
المشروع القومي للترجمة

السهل يحترق

مجموعة قصصية للكاتب المكسيكى خوان رولفو

ترجمة وتقديم:

على عبد الرءوف البمبى

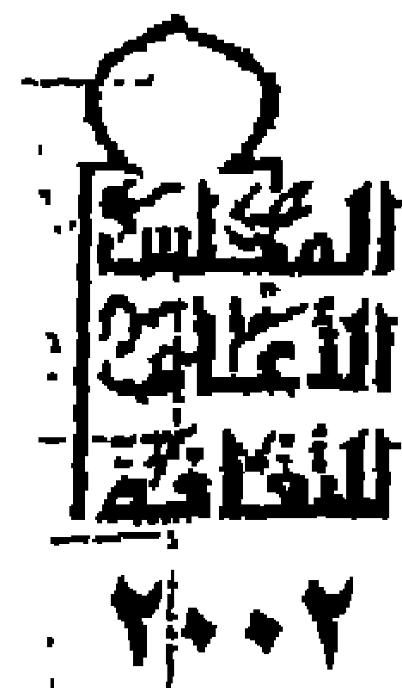


المشروع القومى للترجمة

السهل يحترق

مجموعة قصصية للكاتب المكسيكى « خوان رولفو »

ترجمة وتقديم
على عبد الرءوف البمبى



المشروع القومى للترجمة
إشراف :جابر عصفور

Juan Rulfo : El llano en llamas.
Cátedra, Madrid, 1988(4ª edición) .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezeira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 6358084 E.Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

« خوان رولفو » والسهل الصامت الحزين

أمريكا اللاتينية مارد جبار ظل حبيس القمقم آلاف السنين إلى أن اكتشفه التاريخ مصادفة ونزع عنه الغطاء .. لم يكن يدور بخلد «كولمبس» أو « كولون » – وهو يبحر بسفنه من مرفأ إشبيلية عام ١٤٩٢م باتجاه الغرب قاصداً جزر الهند الشرقية – أن القدر يزفه إلى عالم بكر يتألق جمالا وسحراً .. انعقدت ألسُن البحارة والعلماء المرافقين للمكتشف العظيم عندما وجدوا مالم تره عين ولم يخطر على قلب بشر ماثلاً أمامهم : طبيعة تضطرب جوانبها بشتى ألوان العجائب والغرائب من ينابيع وأنهار وأشجار ونباتات وزهور وطيور وحيوانات وأسماك ... الخ ، لم يعثروا لمعظم هذه الغرائب على مسميات في اللغة الإسبانية ، وهدتهم قريحتهم لاختراع أو استنباط أسماء لها من الأساطير وقصص الفروسية الجامحة .. إنه عالم فائق الوصف ، يكتنفه الغموض ويحتاج تفسيره لشطحات الخيال ، عالم يختلط فيه الواقع بالأسطورة ، ويمتزج فيه الحاضر بالماضى السحيق ، وتسكنه – بعد الاكتشاف – أخلاط بشرية من كل حدب وصوب ، ومع هذا – أو لأجله – فهو عالم يموج بالاضطرابات والعنف ، وتعشش فيه المتناقضات بالرغم من تخلصه من التبعية للفاتحين وامتلاكه لزمام نفسه ...

والمكسيك التى ينتسب إليها كاتبنا « خوان رولفو » (Juan Rulfo) هى جزء من هذا العالم المدهش وتاريخ ،ها الحديث حافل بالثورات والانقلابات وحركات التمرد والعصيان التى يحتاج بيانها إلى

عشرات الصفحات ؛ ولذا فإننا سنقتصر على الإشارة إلى تلك الحقبة التاريخية التى تشكل فيها وجدان « رولفو » وكان لها الأثر فى تحديد هويته ورؤيته للعالم المحيط به كمبدع وقاصّ .

عندما ولد « رولفو » كان قد مرّ على ثورة (١٩١٠) ثمان سنوات ، وعندما صدرت مجموعته القصصية « السهل يحترق » (١٩٥٣) كانت آثار هذه الثورة قد أصبحت واضحة للعيان ؛ فقد ازدادت الكثافة السكانية ، وتضاعف الناتج القومى عشرات المرات ، وحدث نمو كبير فى معدلات التصنيع ، وأنشئت الجامعات وتعددت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى ، وعُبِّدَت الطرق وشقت الترع والقنوات ، وأقيمت المشروعات الزراعية الكبرى ، وهجر الفلاحون قراهم وانتقلوا إلى المدن للعمل فى مصانع السيارات والبيبسى كولا والعيش فى أحياء عشوائية بداخل أكواخ ... إلخ ، لكن هذا النمو الاقتصادى لم يعد بالنفع على القاعدة الشعبية العريضة ، بل استأثرت به الشركات الاحتكارية متعددة الجنسيات وكبار المستثمرين وعدد من الانتهازيين (القطط السِّمان) الذين لاتخلو منهم مجتمعات العالم الثالث .

وبالطبع فقد جنّدت الدولة – بحزبها الأوحد – من يتغنون بتحقيق الثورة لأهدافها ، وبالرغم من الدعاية الرسمية والبطش بأصحاب الرأى المخالف فقد وُجد من يعلنون زيف هذه الادعاءات أو يتهمون الثورة بخيانة مبادئها .

وعلى صعيد الأدب اهتم أصحاب الفريق الثانى (المُعارِض) بتسليط الضوء على المشاكل الجمّة التى يعانى منها الفرد العادى وعلى الظروف الصعبة التى تمسك بخناقه من زمن بعيد ، ولم تخفف الشعارات الثورية منها بل زادتها بلّة عندما ملَكت الأراضى الشاسعة الخصبة للشركات الكبرى لكى تصدر منتجاتها إلى الخارج ، وأجبرت الفلاحين على الهجرة إلى المدينة للقيام بأهون الأعمال أو محاولة تجاوز الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية فراراً من قسوة الجوع ... الخ ، ويطلق على أصحاب هذا الاتجاه بالكُتَّاب « الإقليميين » أو « المحليين »، وهم يعتبرون إحدى حلقات السلسلة الطويلة التى تضم كثيراً من كتّاب القصة فى أمريكا اللاتينية ابتداء من العقد الثالث للقرن العشرين ؛ فهؤلاء الكُتّاب قد نَصَّبوا أنفسهم وسطاء بين الفرد الأعزل وبين الطبيعة القاسية المكفهرة ، وحملوا على عواتقهم مهمة تخضير القفار المترامية الأطراف ، وسَبْر أغوار بقايا الثقافات القبلية ، وتسجيل النوائب والكوارث ، ورصد الصراعات الاجتماعية فى الإقطاعيات الزراعية والمناجم والمجتماعات العمرانية الجديدة ... إلخ .

ورائد هذا الاتجاه هو البوليفى « ألثيدس أرجيداس » الذى أدان (عام ١٩١٩) استغلال البقية الباقية من الهنود الحمر ، ثم تبعه بعد ذلك كثيرون مثل المكسيكى « أجوستين يانيث» ، والبيروانى « خوسيه ماريا أرجيداس » ، لكن أبرزهم جميعاً هو الكاتب الجواتيمالى « ميجيل آنخل أستورياس » .

وخصائص هذا الاتجاه الأدبى – بالرغم من حنكة أصحابه المتأخرين وبراعتهم – تتمثل فى : التصوير الفوتوغرافى للواقع

دون تجسيد وإبراز ملامحه ، واللجوء إلى التعميم ، والتزام الحرفية والعناية بالصياغة الأسلوبية ، اختيار النماذج المثيرة والغريبة التى يطغى إبهارها على ما يمكن أن تتركه من أثر فى الذاكرة ، والإغراق فى اللهجات المحلية التى تحصرُ الشخصيات فى نطاقها الإقليمى وتحدُّ من انتشارها خارج حدودها الجغرافية .

وعندما وصلت فترة الخمسينيات – أو « الفترة المدهشة » ، كما يطلق عليها النقاد – نشطت القصة فى أمريكا اللاتينية من عقالها المحلى وانطلقت صوب العالمية إلى أن بلغت ذروة النضج والإتقان – أو « الانفجار » – خلال الستينيات .

وفى المكسيك كان صاحب الدعوة إلى التحرر من الإقليمية هو الكاتب « أوكتابيو پاث » ، حينما نادى عام (١٩٥٠) بضرورة أن يتحدث المواطن المكسيكى عن نفسه فى أدبه كما يحدث فى الغرب ، وإتاحة الفرصة للتأمل الثاقب لأغوار الذات بحيث يمكن عرض الأشياء كما هى ، مع تفادى الروابط المحددة المحسوسة التى تصلها « بالتاريخ » – بقدر المستطاع – .

و« خوان رولفو » يعتبر مزيجًا من الاتجاهين السابقين أو – بمعنى أصح – كاتبًا « إقليميًا » متفرداً ، ينوء بتبعة المحلية ، لكنه لايغلّ أنماطه بقيود تعوقها عن الانتشار .

لكن من هو « خوان رولفو » هذا ؟ ولماذا كل هذا الحزن الذى يعشش فى كتاباته ؟ وما سر استخدامه لهذا الأسلوب الشديد الصرامة المترع بالألم والوحدة والعنف ؟

سنحاول فيما يلى الإجابة على هذه التساؤلات من خلال التعرف على رؤيته الخاصة للعالم كما تتجلى فى مجموعته القصصية الرائعة « السهل يحترق » . وبادئ ذى بدء نقول إنه مما لاشك فيه أن لحظات التوهج في مسيرة المبدعين الكبار قليلة ، فمهما كثرت أعمال هؤلاء وتعددت نجد أن روائعهم لاتزيد عن عملين أو ثلاثة أو مالايتعدى أصابع اليد الواحدة بأى حال . و«خوان رولفو » واحد من هؤلاء الذين حفروا أسماءهم بحروف من نور ونار فى سجل الإبداع الروائى بالرغم من أن مجمل حصيلته الإبداعية قد لايتجاوز الثلاثة أعمال : « السهل يحترق » (El llano en llamas) ؛ « بدور بارامو » (Pedro Páramo) ؛ « لاكورديبيرا » (أو « سلسلة الجبال ») (La Cordillera) .

ولد « خوان رولفو » عام (١٩١٨) فى « أپولكو » (سايولا) التابعة لولاية « خاليسكو » المكسيكية . وهى منطقة قاسية ، جافة وشبه خربة ، نزح معظم سكانها فراراً من الثورات والحرائق والتصحّر . ومن بقى منهم هناك يعيش فى ظروف مناخية وإنسانية غاية فى السوء ، يعانى قسوة الطبيعة وظلم الفقر وإهمال السلطات المركزية . ومع ذلك فهم قابعون هناك ، هامدين مثل ما يحيط بهم من أشياء ، مذعنين لقدرهم فى انتظار الموت - حسبما تشير إحدى قصص مجموعة « السهل يحترق » -. لم يستقر « رولفو » فى « أپولكو » كثيراً لأنه انتقل مع أسرته ، بعد بضع سنوات من ولادته ، إلى « سان جبرييل » ، وهناك أدركته ثورة « لوس كريستيروس » (Los Cristeros) التى اندلعت عام (١٩٢٦) واستمرت ثلاث سنوات كاملة ، وفيها فقد أباه وجميع أعمامه .

يتحدث « رولفو » عن الأثر العميق الذى تركته هذه الثورة فى حياته قائلا : « كانت طفولتى بالغة القسوة والصعوبة . تبعثرت أشلاء عائلتى بكاملها في مكان تم تدميره وسحق كل ما فيه (..) . لاأجد إلى الآن تفسيراً منطقياً لما حدث (...) لايمكن إلقاء التبعة بِرُمَّتها على الثورة . إنه شيء يضرب بجذوره فى أغوار الماضى ، شيء قدرىّ ، غير منطقىّ . لا أستطيع العثور حتى اليوم على سند واحد يبرر قتل أسرتى بهذا الشكل أو لارتكاب سلسلة الفظائع والاغتيالات دون سبب » .

وبعد الثورة بست سنوات ماتت أمه وتركته وحيداً فأخذته دار لرعاية الأيتام ليبقى فيها أربع سنوات : من العاشرة حتى الرابعة عشرة . تركت هذه السنوات نُدْبة لاتنمحي داخل كيان الصبى ، عندما يتذكرها « رولفو » يقول بصوت مُجَلَّل بالأسى : « ما تعلمته كان الاكتئاب ، كانت فترة من الفترات التى عانيت فيها من وحدة قاسية وأصابتنى بحالة من الاكتئاب لم أشفَ منها حتى يومنا هذا » .

وتذكرنا هذه العبارة بأخرى وردت على لسان إحدى شخصيات قصة « قل لهم يتركونى أعيش » (وهى تنتمى لمجموعة « السهل يحترق ») ، تقول : « من العسير أن تنمو وأنت تدرك أن الشيء الذى يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات » .

المهم أن « رولفو » استطاع – فى ظل هذه الظروف الصعبة – إنهاء تعليمه الأساسى ودراسة المحاسبة وإمساك الدفاتر ، وبعدها ذهب إلى العاصمة (مكسيكو) ليدرس القانون ، لكنه لم يكمل دراسته بسبب توقف الدراسة بالجامعة لمدة ثلاث سنوات . اضطر « رولفو »

للعمل مبكراً فى الوظائف الحكومية ، وتقلب بين العديد منها ، حيث اشتغل فى مجال الإعلام (التليفزيون) ومصلحة الرّى وهيئة الهجرة وتوفيق أوضاع الجماعات المنعزلة من الهنود الحمر ، كما عمل « سيناريست » فى فترة من حياته ، ومن الوظائف التى أحبها عمله فى المشروع الحكومى لرى إقليم « بيراكروث » ذلك لأنها انتشلته من العاصمة وأعادته إلى أحضان الريف .

وفى خلال كل هذا لم تنقطع صلة « رولفو » بالقراءة التى أحبها منذ صغره ، وقد أتاحت له وحدته فرصة الاطلاع على آداب متعددة ، منها الأدب الروسى والأمريكى والأوروبى ، لكن الأدب الذى استهواه وملك عليه نفسه هو الأدب النورماندى .

من هذه الإطلالة السريعة تتضح الأبعاد المأساوية للحياة التى كان على « رولفو » أن يعيشها ، فقد وُلد فى أقصى الولايات المكسيكية مناخا وأفقرها تربة حيث اعتاد سكانها - طبقًا لتصريح له - على العمل عشرة أضعاف سكان الولايات الأخرى ليحصلوا فى النهاية على الناتج نفسه .

وعلاوة على قسوة الطبيعة فقد عانت ولايته وتلظت بنيران الثورات والاضطرابات المتكررة التى أكلت الأخضر واليابس وأتت على جميع أفراد أسرته واضطرته للإقامة فى دار للأيتام ، ولم يُسَرِّ عنه بعد ذلك مغادرة هذه الدار والانتقال إلى العاصمة التى كانت تنتظره بفاصل من المشاكل (أهمها الوحدة والعوَز) أضاف إلى حمله الثقيل وَزْنا إضافيا من الحزن والكآبة ، ولذلك فهو دائمًا صامت وحزين وصارم ومكتئب وخجول ، ولم تشفه الشهرة بعد ذلك من هذه الأوجاع بل إنها اصطدمت مع ما يعتمل بداخله من يأس وصرامة ، وكانت السبب

المباشر فى إقلاله من الكتابة بالرغم من موهبته المتوقدة ومع هذا فقد عاش « رولفو » مدركًا لقيمة ما أنجز - على قِلّته - وظل محترمًا ومحبوبًا حتى وافته المنيّة عام (١٩٨٦) .

نشر « رولفو » أول قصة قصيرة له عام (١٩٤٢) فى إحدى مجلات « وادى الحجارة » (عاصمة ولاية « خاليسكو ») ، وشهدت السنوات التالية قصصًا أخرى له ، لكن شهرته ومكانته الأدبية الرفيعة يدين بهما لمجموعته القصصية التى صدرت عام (١٩٥٣) تحت عنوان « السهل يحترق » ، ولروايته المنشورة عام (١٩٥٥) بعنوان « پدرو پارامو » ، وقد توالت طبعاتهما بعد ذلك داخل المكسيك وخارجها ، ثم أطبقت فترة من الصمت تزيد عن الأحد عشر عامًا قبل أن يعود لاستكمال خيوط مشروعه الأخير الذى اختار له عنوان « لاكورديبرا » (أو « سلسلة الجبال ») .

ويرغم هذه النُّدرة ، فإن مجموعته القصصية وروايته اللتين ظهرتا فى الخمسينيات تعكسان بوضوح رؤيته الخاصة للعالم وللواقع المكسيكى فى فترة زمنية وتاريخية واضحة المعالم ، تتجلى هذه الرؤية فى الحزن واليأس اللذين ملكا عليه نفسه من جرّاء نشأته على أرض عاقر عبوس ، أراد أن يتشبث بها فخانته فى وقت كان ينهار فيه كل ما بداخله ، أرض تضطرب جنباتها بالألم والعنف المتراكم عبر القرون وجاءت الثورات وحركات التمرد والعصيان لتطلقه من عقاله . يقول « رولفو » واصفًا طبائع سكان قرى منطقته (مثل « سان جبرييل » ، « ثابوتيتلان » ، « سايولا » ، « تونايا » ، « سان پدرو » ، « تالپا » ... الخ) .

« ... إذا تحدثت معهم يخيل إليك أنهم لايجرءون على قتل ذبابة ، إنهم أناس فى غاية الهدوء ، فلاحون من هذا النوع الذى يحتوى على قدر من المكر والاحتيال والتأهّب ، لكنهم فى الوقت ذاته سليمو النوايا ، ومع هذا فخلف ذلك الرجل يمكن أن تتوارى مجموعة من الجرائم . عندئذ يختلط عليك الأمر ولاتدرى مع من تتعامل : مع قاتل محترف أو مع فلاح بسيط .. » .

إن « رولفو » يحمل على كاهله كرْب وألم الرجل المعاصر الذى ابتلته الظروف بالعيش فى الفترة الشائهة التى أعقبت الثورة وتنبأ بها « سوليس » المارق بطل قصة « الناس اللى تحت » لمواطنه « مانويل أثويلا » .

إنه مثل رجل منهار من الداخل يتأمل الأراضى الجافة ، الذرة التى لاتكبر ، الغبار ، الرياح التى لامعنى لها ، قوافل الحجاج إلى « تاليا » ، الجرائم الغريزية العمياء ، العنف الميكانيكى الأحمر ، المأساة والفاقة الخرساوين ، الاستسلام لتصاريف القدر العاتى .. إنه يرى هذه الأشياء مثل كوابيس لايمكن أن تداويها برامج الإصلاح الاجتماعى ولا الوصفات الثورية .. لايوجد أمامه ، بالتالى ، شىء خارجى يمكنه الاتكاء عليه ، ولذلك نجد أن شخصياته - سواء من الرجال أو النساء - مُجْبرة على العيش بدواخلها والإذعان للقدر فى انتظار الموت الذى تعتبره أملها الوحيد .

ففى مقابل البعد الخارجى الذى تعتمد عليه واقعية كُتَّاب الثورة المكسيكية التى تستغرق فى الجانب التهذيبى ، وواقعية كتاب

الثلاثينيات والأربعينيات التى تهتم بالواقع التاريخى وتضع الهدف السياسى – الاجتماعى نصب عينيها ، نجد أن الكَرْب والحزن القدريين يصبغان نثر « رولفو » بصبغة قاتمة ويتغلغلان فى لغته وجميع تيماته .

وتتجلى رؤية « رولفو » الشخصية للعالم فى كيفية معالجته الزمن المتعلق بشخصياته . فبينما كان النثر الروائى الجيد قبله (« مانويل أثويلا » و « مارتين لويس جوثمان » ، على سبيل المثال) يعالج الواقع بالطريقة الديناميكية السيّارة ، نجد أن « رولفو » يعيش زمنًا داخليًا ذاتيًا يفرض إيقاعه على كل واقع منفصل عنه ؛ ولهذا السبب نلاحظ أن السكون والإيجاز الرتيب المشبعين بالتوتر والمأساة يسيطران على قصص مجموعة « السهل يحترق » والتى تبدو وكأن الزمن فيها قد توقف وتجمد سريانه ، وينسحب هذا القول على جميع القصص سواء الوصفية منها (مثل « لوبينا ») أو الحوارية (مثل « قل لهم يتركونى أعيش ») أو التى تتناول حدثًا خارجيًا (مثل « تالپا ») .

وقد استطاع « رولفو » بيده الخبيرة الماهرة إيقاف الزمن ومحو الروابط الخارجية للشخصيات ليصيغ لنا هذا العيش الباطنى ، ويجعلنا نحس بالمأساة الوشيكة التى لا مناص منها .

ولشرح وبيان هذا التكنيك (توقف الزمن وتجمد سريانه) سنضرب بعض الأمثلة الموجزة ، ونبدأها بقصة « لوبينا » :

يقودنا « رولفو » من بداية القصة إلى زمن غير حقيقى (وهمى) ، إلى زمن متوقف داخل شخص ما ؛ فالعبارة الأولى من القصة تخلو تمامًا من أية إشارة يمكن أن تساهم فى تأطير المكان وتحديده .

« من بين تلال الجنوب العالية فإن أكَمة « لوبينا » هى الأشد ارتفاعًا والأكثر تحجراً » . ثم يتابع الوصف المثقل باللون الرمادى بهدف إبراز الجوانب السلبية للعالم الخارجى : « إنها موبوءة بتلك الحجارة الرمادية التى يُصنع منها الكِلْس وإن كان فى « لوبينا » لايصنع منها كلس ولايستفاد منها بشىء » .

وتطالعنا الفقرة التالية بعلامات تشير إلى محذوف : « ... والأرض شديدة الارتفاع » ، وما حسبناه وصفًا للمؤلف يخيل إلينا الآن وكأنه تأمل لشخص ما ، وبالفعل عندما نصل إلى نهاية الفقرة نعرف أننا دخلنا – دون أن ندرى كيف – فى وصف منطوق ومستمر على لسان أحد الأشخاص : «أحيانا يزدهر نبات « الشيكالوته » بشقائقه البيضاء ، مختبئا بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظلّ . لكن الشيكالوته سرعان ما يذبل ، وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية ... » . لانحس هنا بأن أحداً يكتب بل يتكلم ، والإبهام الذى يشع من « أحد » يساعد على حجب هوية المتكلم ، وهكذا نكتشف أن ما بدا وكأنه وصف خارجى ، من عمل الرّاوى ، ما هو إلا طرف لمحادثة نابعة من داخل الحكاية نفسها .

ويزداد حجم الدهشة عندما نصل إلى الفقرة الثالثة والتى نستدل من العلامة التى تبدأ بها (الشَّرْطة) على أن الكلام الذى سنسمعه ما هو إلا جزء من حوار : « – سترى عما قريب هـذه الريح التى تهب على « لوبينا » . إنها قاتمة » .

وفى نهاية الفقرة الثالثة يطالعنا شخص آخر - نظن أنه المؤلف - ليقول : « ظل ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتًا برهة محملقًا فى الفضاء » .

من يتحدث ؟ ومع من ؟ وأين ؟ وبهذا الشكل ينقلب الحوار إلى نوع من « الديالوج » الداخلى « لذلك الرجل » الذى لانعرفه ؛ إلى ديالوج عارٍ تمامًا عن ملابسات الزمان والمكان .

وهذه إحدى خواص « رولفو » الأسلوبية وسمة من سمات رؤيته للعالم : إنه لايكلف نفسه مطلقًا عناء تسمية شخصياته أو إزالة مايكتنفها من غموض وإبهام .

ومن جهة أخرى ، فقد ساهم هذا الإبهام الذى يغلف المكان - بالإضافة إلى اللون الرمادى والإلحاح على الجوانب السلبية فى الوصف وتحول الكاتب بخفة من دور الرّاوى إلى تقمص دور إحدى الشخصيات - فى إضعاف الروابط بين الواقع وبين من يلاحظه (وهذا ما يسمى بالواقعية السحرية) .

وكلما تقدمت القصة زاد الإحساس بالجمود والتوقف الزمنى ، فـ « لوبينا » من الخارج لايحدث فيها شىء (تمطر قليلا .... نعم ، تمطر قليلا) ؛ لايتحدث فيها أحد تقريبًا ولايعمل ؛ حتى الريح بالرغم من جؤارها فهى ساكنة و « مكوّمة » هناك . كل شىء متوقف فى « لوبينا » : « إنه مكان يعشش فيه الحزن » ، لايوجد هناك سوى العجائز جالسين على عتبات دورهم « معلقين أبصارهم بشروق الشمس وغروبها ... إنها العادة ، يطلقون عليها هناك « القانون » ، والقانون والعادة من الأمور الثابتة التى لا تتغير .

وطبقًا لرأى الشخص الذى يتأمل بصوت مرتفع ، فإن الإيقاع الخارجى للحياة فى « لوبينا » معطل ، وتكرار هذا الشخص للكلمات والأفكار يؤدى إلى تقوية الإحساس بالعزلة وبتوقف كل شىء :

« - سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على « لوبينا » ، إنها قاتمة - يقولون إنها تجرجر رماداً من البركان ، لكن الشىء المؤكد أنه هواء أسود . عما قريب سترى ، إنه يمسك بتلابيب الأشياء فى لوبينا وكأنه يعضها ... عما قريب سترى » .

وتكرار الكلمات والأفكار خاصية أسلوبية أخرى لـ « رولفو » ، ويبدو كأن شخصياته لاتريد الخروج من ذواتها لكى لاتسمح بأى تطور أو نمو زمنى ، ولذلك فهى معتادة على تكرار بداية الفكرة كل بضعة جُمَل ، مما يعطى الانطباع بأن الكلمات تنطلق فى اللحظة نفسها دون فاصل زمنى .

وبهذه الطريقة يقدم لنا « رولفو » رؤيته لواقع الحياة الريفية المكسيكية التى يبدو فيها وكأن شيئًا لايحدث فى الخارج ، وإذا حدث فإنه يتم بطريقة آلية ، وفاءً لقانون العادة ، أو فى شكل انفجار عنيف (شخصى أو جماعى) يترسب فى النهاية داخل عتمة السكون بذوات الأشخاص الذين يشبهون الطبيعة القفر وكأنهم جميعًا رموز خرساء .

ولم تسلم القصص ذات الطابع الدرامى المعتمد على الحوار من خاصية تعطل الزمن وتجمد الأحداث الخارجية ، فالقصة التى

تحمل عنوان « قل لهم يتركونى أعيش » تتضمن انفجارين عنيفين من تلك الانفجارات التى تقطع السريان الرتيب للزمن الداخلى لهذه الشخصيات : حادث قتل ، وبعده بخمس وثلاثين سنة حادث إعدام ، وهما فى الحقيقة حدثان ميكانيكيان لايغيران من سكون وكرْب الواقع الذى يتخيله المؤلف بداخل شخصياته ، بل يمكن القول بأن الرتابة وشدة وطأة القدر على هذه الذوات يؤديان إلى تضاؤل الإحساس بكل حدث خارجى ، هذا لأننا بداخل حيوات مطرودة من « التاريخ » ، بداخل عالم يبدو من داخله وكأنه لامفر من الإذعان الصامت لحتمية « المكتوب على الجبين » .

لنتأمل هذا الجزء من القصة :

« من كان يظن أن ذلك الحادث الكريه الذى عفى عليه الزمن وابتلعه النسيان – حسب اعتقاده – سيعود ليطل برأسه من جديد ، عندما دفعته الظروف ليقتل « دون لوپى » ، لم يقتله شططا كما يدعى أهل « ليما » ، بل كانت لديه الدوافع والأسباب ، مازال يذكر ما حدث :

كان « دون لوپى تيريروس » صاحب إقطاعية « لايويرتا دى لاپيدرا » وفوق هذا أباه من العماد ، ولهذا السبب اضطر « خوبنثيو نابا » لقتله ؛ لكونه صاحب « لاپويرتادى لاپيدرا » ولأنه أيضًا أبوه من العماد ، ومع هذا منع ماشيته من المرعى .

تحمّل فى البداية ، مراعاة لما بينهما من أواصر الصلة ، لكنه بعد أن حلّ الجفاف ورأى ماشيته تتساقط واحدة بعد أخرى من فرْط

الجوع الذى ألهبها بسياطه ، وأبوه من العماد ما زال يركب رأسه ويضنّ عليها بعشب خيوله ، قرر وقتها إزالة سياج المرعى أمام كَبَّة حيواناته شديدة الهزال لكى تأكل حتى التخمة . لم يعجب هذا « دون لوبى » وأمر بإعادة السياج إلى ما كان عليه ليعود « خوبنثيو نابا » ليفتح فيه من جديد إحدى الثغرات . وهكذا ، ظلت الثغرة تغلق بالنهار لتفتح بالليل بينما ينتظر القطيع هناك متربصًا بجانب السور ، ذلك القطيع الذى كان يستمد من قبل مقومات وجوده ، معتمداً - فقط - على شمّ رائحة العشب دون التمكن من الوصول إليه .

احتدم النزاع بينهما ولم يصلا لاتفاق ....

وقتل لى عجلاً من العجول .

فى شهر مارس يكون قد انقضى على هذا خمس وثلاثون سنة ، لأننى أمضيت الشهر التالى له هائمًا على وجهى فى الجبل فرارًا من العدالة » .

إن القدر المشئوم والتأمل المقتضب يمثلان هنا لُحمة التكنيك القصصى لواقعية « رولفو » التى تعتبر حادث القتل ومرور الخمسة والثلاثين عامًا وكأنها لم تكن .

ومن سمات هذا التكنيك الذى ينفرد به « رولفو » أنه عندما يشير الى الواقع الخارجى ، فإنه لايحاول تفسيره أو شرح الميكانيزم الداخلى لهذا الواقع الذى يتأمله أو يخترعه ، بل يقدمه كما هو ويتركه ليتكفل بشرح نفسه ، وعلى هذا فالموضوعية الغريبة التى قد تتراءى

من بين ثنايا هذه المجموعة القصصية لاتمت بصلة لأشكال السَّرد التقليدية أو للتراث القصصى فى حقبة ما بعد الثورة .

ومن الغريب والمدهش حقًا أن يطل علينا هذا التكنيك الخاص بكاتبنا في موضوع مثل المطاردة التى تتناولها قصة « الرجل » ، إن الزمن فى هذه القصة لايتحرك فى اتجاه أفقى (من ——— إلى) بل فى خط رأسى (من أسفل إلى أعلى) ذلك لأن الأحداث تتراكم فوق بعضها بحيث تصبح نقطة النهاية فى مستوى نقطة البداية نفسها وتكون النتيجة إصابة الزمن بالشلل وتجمد الأحداث أو – بمعنى أصح – تحركها فى مكانها نفسه . وكل هذا يتم فى تكنيك معقد إذ من الصعب التمييز فى سرد قصة المطاردة بين صوت الراوى / المؤلف أو المطارِد (الساعى للأخذ بثأره) أو المطارَد (من عليه الثأر) أو شاهد العيان الوحيد ؛ ولذا فمن الضرورى اتمام قراءة القصة – شأنها فى ذلك شأن معظم قصص المجموعة – حتى يمكن تجميع النتف التى تتساقط من اشارات المتكلمين ورسم صورة تقريبية لجوهر الأحداث .

لكن ، بالرغم من تناثر الموضوع (التيمة) إلا أننا نستطيع بعد تجميع أشلائه الإجابة على الاستفسارات الرئيسية . والجزء الأول من القصة يسير أو يتحرك واقفًا فى زمنين : الزمن المتعلق بإشارات الهارب ، والزمن الآخر يتعلق بإشارات من يطارده ، وفى منتصف الطريق يضطلع بالمهمة راوٍ يتحدث بضمير المتكلم ، ثم وجهة نظر

الشـاهد العـرضى : وهـو راعـى أغنام يدلى بشـهـادته أمـام سلطات الأمن بالمنطقة . . وجميع شخصيات القصة هلامية أو زئبقية لايمكن الإمسـاك بهـا ، لأنهـا سرعـان مـاتَتَنَقَّلت من بين أصـابعنـا وتتـلاشى فى السَّهْل .

وإزاء هذه الرؤية الخاصة لكاتبنا مازال القارئ حتى اليوم يقع فى حيرة إذا أراد شرح وتفسير هذه المجموعة القصصية : إذ لايستطيع تحديد ما إذا كان « رولفو » يريد أن يقدم من خلالها صورة لما كان زملاؤه فى جيل الخمسينيات يسمونه « الذات المكسيكية » (جوهر عارٍ عن التاريخ) ، أو إذا كانت تعكس رؤية خاصة به لعالم قد تشكل خلال فترة طويلة ومعقدة من العنف التاريخى .

وهناك العديد من القصص ذات الأهمية الكبيرة داخل المجموعة ومنها على سبيل المثال : « لقد أعطونا الأرض »(التى تفتتح المجموعة) ؛ « الليلة التى تركوه فيها وحيداً » ؛ « نقطة العبور إلى الشمال » ، « يوم الزلزال » ؛ « السهل يحترق » (وهى التى أعطت عنوانها للمجموعة) . والقاسم المشترك بين هذه القصص يتمثل فى إمكانية تحديد إطارها التاريخى : « فالسهل يحترق » و « الليلة التى تركوه فيها وحيداً » تتناولان طرفًا من أحداث الثورة المكسيكية (١٩١٠) وحركة التمرد التى قام بها « لوس كريستيروس » (١٩٢٦-١٩٢٨) ؛ أما « لقد أعطونا الأرض » فتشير إلى عقم سياسة الإصلاح الزراعى وعدم مصداقيتها ؛ بينما تتناول « يوم الزلزال » الديماجوجية السياسية التى سادت فترة ما بعد الثورة ؛ وتكشف « نقطة العبور إلى الشمال » عن التردِّى المعيشى وحالة البؤس التى أجبرت - ولاتزال - ملايين الفلاحين على محاولة

التسلل عبر الحدود إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ومن جهة أخرى ، فإن القراءة المتأنية لهذه المجموعة تبرهن على مدى سطوة « القانون » (أو القدر) على القاعدة البشرية العريضة حتى قبل الاحتلال الإسباني ذاته . كما يتضح أن هذا « القانون » لم تُمله قوة خارج أسوار الحياة ، وإنما سنَّه ويسنّه - دائمًا - آخرون بعيدًا من أجل مصلحتهم ومنافعهم الشخصية ولاتعرف منه الجموع سوى آثاره السلبية عليها ، وهذا « القانون » يَمْثُل - اجتماعيًا - في شخصية « مندوب الحكومة أو « الحاكم » أو « الإقطاعي » أو « ربّ العمل » أو الزعماء وأشباههم أو في الحكومة ذاتها بعسكرها وقضاتها ومحاميها ، ولما كان « القانون » في صالح هؤلاء الآخرين الذين يصوغونه بعيدًا ولاترى منه الكتل البشرية إلا ما يعكر صَفْوها فإنها لاتجد وسيلة للاحتجاج سوى الثورة الدموية التي تنتهي دائمًا بالهزيمة والفشل الذريع ، وتكون النتيجة هي السقوط في مستنقع الخنوع والإذعان والاستسلام لهذا « القانون » (أو القدر) .

وكل شخصيات « رولفو » تقريبًا من هذا النوع الخانع لقدره المستسلم له .

وعلى سبيل المثال ، فإن الراّوي في قصه « عند السحر » ليس متأكدًا من ارتكابه لجريمة قتل صاحب العمل « دون خوستو » : « يقولون إنني قتلته . ربما » ؛ ومع هذا لايدافع عن نفسه بل يستسلم ويذعن لما يقوله الآخرون ، وكأن هذا قدره الذي عليه أن يقبله في صمت ولذلك نجده يرجح وجهه نظر الآخر (القدر) ويقول في تبلّد :

« لكن لاشك فى أنهم لم يضعونى فى السجن عبثًا وإنما لشيء فعلته ، ألا تعتقد أننى على صواب فى هذا الاستنتاج ؟ » .

شىء مشابه لهذا نجده فى « لقد أعطونا الأرض » ، وبالتحديد فى شكوى الفلاحين لمندوب الحكومة من عدم نفع الأرض التى سلموها لهم :

« – اكتبوا ما تقولون فى شكوى ، والآن أغربوا عن وجهى ، إنه الإقطاع الذى يجب أن تصبوا عليه جامّ غضبكم وليست الحكومة التى تمدكم بالأرض .

– مهلا ، ياسيادة المسئول . لم نقل شيئًا ضد الحكومة . كل كلامنا موجه للسهل ...

لكنه لم يرد سماعنا » .

وصورة أخرى للإذعان والاستسلام نراها فى هذا الرجل الذى لم يقاوم السلطات عند إلقائها القبض عليه وهو يعلم المصير الذى ينتظره ، بل إنه قام بعد ذلك بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التى سيعلّق عليها .

يقول الرّاوى فى قصة « ألا تذكر ! » : « قبضوا عليه فى الطريق . كان يعرج ، ولما جلس ليستريح وصلوا إليه . لم يقاوم . يقولون إنه هو الذى قام بتطويق عنقه بالحبل واختار الشجرة التى حازت إعجابه لكى يعلقوه عليها » .

فالسلطات الحكومية بكل أفرادها وهيئاتها لا تتدخل لإصلاح أحوال الناس أو لمساعدتهم بل بصفتها – كما سبق وأشرنا – ممثلا القانون (أو القدر) ولذا فهم لايتوقعون خيراً من جهتها ،

لكنهم برغم ذلك يرضخون لأحكامها على اعتبار أنها شىء قدرى لايمكن دفعه أو الفكاك منه .

لنتأمل هذا الجزء الساخر الحزين من قصة « لوبينا » والذى لايحتاج إلى تعليق لشدة بلاغته وتعبيره :

(حاولت ذات يوم إقناعهم بالذهاب إلى مكان آخر ، أرضه جيدة .

« هيا من هنا ! – قلت لهم .. لن نعدم وسيلة للإقامة فى بقعة أخرى . ستساعدنا الحكومة » .

سمعونى دون أن تطرف لهم عين ، نظروا إلىّ من قيعان عيونهم بنقطة الضوء التى تطل منها بعيداً .

– تقول الحكومة ستساعدنا ، ياحضرة المدرس ؟ أتعرف الحكومة ؟

قلت لهم نعم .

– نحن أيضاً نعرفها . يالها من مصادفة ! ما لانعرف عنه شيئا هو أم الحكومة .

قلت : لهم إنها الوطن . هزوا رءوسهم قائلين : لا . وضحكوا ، كانت المرة الوحيدة التى رأيت فيها أهل « لوبينا » يضحكون ، شحذوا أسنانهم غير المتناسقة وقالوا لى : لا ، الحكومة لا أم لها .

وعندهم حق ، تعرف ؟ هذا الرجل لم يعلم عنهم شيئًا إلا عندما قام أحد أبنائه بارتكاب خطأ هناك تحت ، وساعتها قامت الحكومة بمطاردته حتى « لوبينا » وقتلته . غير هذا لايعرفون لها وجوداً .) .

يتضح من المثال السابق مدى قدرة « رولفو » على التهكم والسخرية اللاذعة ، وإذا كانت السخرية تمثل عنصراً من العناصر فى قصة « لوبينا » فإنها تعتبر المحور الأساسى والعمود الفقارى لعدد من القصص الأخرى ومن أهمها « يوم الزلزال » و« أنكليتو مورونيس » . فى هاتين القصتين المتضمنتين أيضًا لصور من العنف والدمار يشحذ « رولفو » قريحته ليوجه سهامًا نارية لبعض الأوضاع القائمة (السياسية والاجتماعية) من خلال السخرية المرّة ، ففى قصة « يوم الزلزال » ينتقد الكاتب الديماجوجية السائدة فى فترة ما بعد الثورة . فعندما دمر الزلزال منطقة بأسْرها وسوَّاها بالأرض وتسبب فى موت الكثيرين تحت الأنقاض هرعت الحكومة ، ممثلة فى الحاكم ومستشاريه وحاشيته ، بزيارتها . ولم يستفد المتضررون من الزيارة سوى بعض الوعود الجوفاء وسيلا من الخطب المنمقة العالية النبرات ، بل إن الزيارة كانت عبئًا لامعنى له ، لأن الأهالى جمّعوا ما تبقى لديهم من أموال لتغطية نفقاتها الباهظة ، وفى هذه القصة تمادى « رولفو » فى إبراز التناقض الحاد بين الكلمات المعسولة الجوفاء وبين الواقع الأليم للنكبة لدرجة أن القارئ تنتابه موجة من الضحك لايستطيع السيطرة بسهولة عليها .

وفى قصة « أنكليتو مورونيس » ينسج الكاتب صورة مضحكة مبكية لآثار الفقر والجهل والتخلف وسطحية التدين فى المجتمع ، فقد سمحت هذه العوامل مجتمعة لداعر محتال بالتحول إلى قديس يفد إليه الناس طلباً للكرامات .

إنها إحدى القصص القليلة في المجموعة التي يظهر فيها الحوار جليًا ، وقد نسج الكاتب خيوطه بمهاره ودهاء واعتمد عليه في إبراز حدة التناقض بين وجهتين للنظر في غاية التباين .

إن الحديث عن هذه المجموعة التي تضم سبع عشرة قصة قد يطول إلى ما لانهاية ، لأنها نبع ثرٌ لايغيض ماؤه ويكتنفها الغموض والإبهام ، ومن ثمَّ فإنها تحتمل العديد من التأويلات ، إن الكلام عنها مهما كثر لايغني عن الانفراد بها وقراءتها مرات ومرات لأنها كالماء الأجاج كلما عَبَّ منه الإنسان ازداد عطشه وأحس بالحاجة للرجوع إليه ، ولأن كل كلمة فيها وُضعت بقدر ... إن الجمل فيها أشبه بدفقات سلاح ناريّ ، لكنه سلاح من أرض « رولفو » : تخرج طلقة من فوهته إلى الأمام وترتد الثانية من مؤخرته في الاتجاه المعاكس ؛ فهي تتقدم خطوة وتتقهقر أخرى ، وكأن كل جملة تعض ذيل سابقتها وتعوقها عن الحركة . وليس هذا وحسب ، بل إننا نجدها أحيانًا خالية من الروابط وأحيانًا أخرى نجد بها كلمة محورية تدور حولها بقية الكلمات .

وبالطبع فإننا لم نطف بجميع سراديب هذه المجموعة لأن هذا العمل يتطلب المزيد من الوقت والجهد والصفحات ومقتضى الحال لايسمح بهم ، ومع ذلك مازالت تلح كلمات واجبة في حق هذا الكاتب المُقِلّ الذي برهن على أن الإبداع لايوزن بحجمه وكثرته ، بل بمقدار ما يحمل من إتقان وجودة .

إن « رولفو » يعتبر إحدى العلامات المضيئة فى تاريخ القصة والرواية بأمريكا اللاتينية بالرغم من أعماله المحدودة . وهو وإن كان ليس مُجَددا ، إلا أنه الأكثر حنكة وبراعة بين الكتاب التقليديين ، إنه يتناول ما يعرفه ويحس به من خلال اتصاله المباشر والعميق بالأشياء الجوهرية : الحب ، الموت ، الأمل ، الفقر ، العنف ... الخ . وبه استطاع الأدب « الإقليمي » أن يتجاوز التصوير الفوتوغرافى والبعد الفولكلورى وأن يقتحم آفاقًا غير معهودة ، لأنه يعرض الحقائق عارية ، وأسلوبه مصفى خال من الشوائب ولغته موجزه وحادة مثل عالمه ، إنه ليس واعظًا ولا معلمًا ولا فيلسوفًا ، بل مجرد إنسان مرهف الحسّ ، يبكى بحرقة أرضه التى كانت مروجًا فى الماضى ، وحولّها الدمار إلى مقابر ينعق البوم فوقها ، إنه لايقدح الخيانة والظلم بل يعانيهما فى صمت حزين ، لأنهما جزء من وباء الحياة ذاتها .

علی عبد الرءوف البمبی

لقد أعطونا الأرض

بعد ساعات عديدة من السير دون العثور على ظلٍ لشجرة أو فسيلة أو أثر لنبات ، يُسمع نباح الكلاب .

وسط هذا الطــريق بلا شطآن خَطَــر للواحد مرات أنه لايــوجد شىء بعده ، وأن من المستـحيل مقابلة شىء على الجـانب الآخر ، فى نهاية هذا السهل المتـــصدع بالشقــوق والأودية الجافة . لكــن ، يوجد شىء ، هناك قرية ، يتناهى إلى الأذن نباح الكلاب ويُحس فى الهــواء برائحة الدخان ، وتُستطعم رائحة الناس تلك كما لو كانت أملا .

لكن القرية مازالت بعيدة ، إنها الرياح التى تُقرِّبها .

نسير من طلعــة الفجر . الساعة الآن كالرابعة مــساء . أحد يطلّ فى السماء ، يمد عينيه إلى حيث يتدلى قرص الشمس ويقول :

- إنها حوالى الرابعة مساء .

هــذا الأحــد هو « ميليــتــون » . معــه يمــضــى « فــاوستينو » ، « إســتيــبان » وأنا . نــحن أربعة . بإمكانــى عدّهم : اثنان فى الأمــام ، ومثلــهما فى المـؤخرة . أنظر إلى الوراء ولا أجـد غيــرنا ، حينئـذ أحدّث نفسى : « نحن أربعة » . منذ فترة ، فى حــوالى الحادية عشرة ، كنا بضعا وعشرين ؛ لكننا تبعثرنا حــفنة بعد أخرى إلى أن بقيت هذه الأنشوطة التى تمثلها .

يقول « فاوستينو » :

- يحتمل أن تمطر .

رفعنا جميعًا وجوهنا ونظرنا إلى سحابة سوداء ثقيلة تمر فوق رءوسنا . قلنا لأنفسنا : « يمكن » .

لانتفوّه بما يعتمل في صدورنا . من فترة ورغبتنا فى الكلام قد تبخرت ، قضت عليها الحرارة . بإمكان الواحد التحدث على راحته فى مكان آخر ، لكن الأمر هنا يتطلب جهداً ، إذا نطق الواحد تسخن الكلمات فى فمه من شدة الحرارة وتجف على اللسان حتى تتلاشى مع اللّهاث .

هكذا الأشياء هنا . ولذا ليس لأحد الرغبة فى الكلام .

تسقط قطرة ماء ، كبيرة وثخينة ، محدثة ثقبًا فى الأرض لتترك حوله عجينة لزجة كما لو كانت بصقة ، تهاوت بمفردها . انتظرنا أن تتبعها أخريات ، لا أثر لمطر . لو توجهت العيون إلى السماء الآن سترى أن السحابة المترعة بالماء تركض بعيداً جداً ، بكل ما أوتيت من سرعة . الرياح القادمة من القرية تدفعها نحو الظلال الزرقاء للقمم العالية . والقطرة الساقطة ، سهواً ، تلتهمها الأرض وتواريها داخل عطشها .

ماذا يفعل - بحق الشياطين - هذا السهل المترامي الأطراف ؟ ما فائدته ؟

عاودنا السير ، كنا قد توقفنا لرؤية المطر ، لكنه لم ينزل ، ومن ثمّ نستأنف السير مجدداً ، يخيّل إلىّ أننا مشينا أكثر مما قطعناه

من طريق ، هذا مـا أظنه ، لو كـانت أمطرت فلربما خطرت ببـالى أشيـاء مغـايرة . على كلٍ ، أتذكـر أننى لم أرها تمطر فوق السـهل منذ أن كنـت فتـى ، مطرا بمعنى الكلمة .

نعم ، السـهل لانفع فيـه . لاتوجد حـتى الأرانب أو العصـافيـر ، لاشيء سوى أعـداد قليلة من شـجيرات الـطّلح الجافة الـهزيلة وبقـعة أو أخرى لأعشاب مكوّرة الأوراق ؛ وفيما عدا هذا ، لاشيء .

فى هذا المكان نسيـر ، الأربعة على الأقدام . قبل ذلك كـان كل فرد منا يمتطى جواداً ويتنكب بندقية « عيار ٣٠ » .

الآن لايوجد معنا ولاحتى البندقية .

مازلت مقتنعا بأنهم كانوا علـى صواب حينما أصروا على تجريدنا من بنادقنا ، فمن الخطر اجتياز السهـل مسلحًا . يقتلون الواحد دون سؤاله إذا رأوا « عيار ٣٠ » مـتدليا من منْطقتـه ، أما الجياد فهى مـوضوع آخر . لو قدمنا على متـونها ، كنا تذوقنا الآن مياه النهر الخضـراء ، وتجولنا بمعداتنا الخاوية فى شوارع القرية وأفرغنا فيـها الطعام . كنا فعلنا هذا لو كانت معنا الجياد ، لكنهم جردونا منها مثلما صادروا البنادق .

أتوجـــه إلى جـمـيع الاتجـــاهات ولا أرى غـيـر الـسـهل . أرض شـاسعــة بلا فائدة ، تنزلق نظرات الواحد إذا لم تصـادف فى طريقها شيئًا يوقفها . تخرج فقـط ، ومن حين لآخر ، بعض السلاحف لتطل بأعناقها من فوق جحورها فـتلسعها حرارة الشمس وتضطرها للـعَدْو بحثًا عن ظل

حجـر للاحتـماء به . أما نحـن ، فعندما يتـعين علينا العمـل هنا ، ماذا سنفعل لاتقاء الحرارة الملتهبـة ؟ لقد أعطونا هذه القطعة المكفهرة الجرداء من الأرض كى نزرعها .

قالوا لنا :

- من القرية إلى هنا لكم .

سألنا :

- السهل ؟

- نعم ، السهل . السهل الكبير بأكمله .

زممنا شفاهنا لنقول لانريد السـهل ، نريد الأرض المتاخمة للنهر ، من النهر إلى الغوطات حيث تكثـر أشجار « الكسوارين » * والمراعى والأرض الخصبة ، وليس جلد البقرة المتغضّن هذا والمسمى بالسهل .

لكنهم لم يتركونا نفصح عن رغبـاتنا ، فمسئول الإصلاح الزراعى لم يأتِ لإضاعة الوقت فى الحديث معنا . سلمنا أوراق الملكية قائلا :

- لاتهابوا من تخصيص أراض شاسـعة لكم وحدكم ، لاتستكثروها على أنفسكم .

- إن السهل ، ياسعادة المسئول . . . . .

- إنها آلاف مؤلفة من الأفدنة .

- لكنها تفتقر إلى الماء . لايوجد منه مقدار مضمضة .

* كسوارين(Casuarinas) : أشجار ذات أوراق تشبه ريش طيور سريعة الطيران (المترجم)

– والمطر ؟ لم يصرح أحد بأنكم ستتملكون أراض تعتمد على الرّى ، بمجرد أن تمطر هناك ، سترتفع أعواد الذرة وكأنها تُمد مدّاً .

– لكن أراضى السهل ، ياسعادة المسئول ، صفيقة وصلبة ونجزم بأن المحراث لايستطيع النفاذ إلى أحشائها لأنها مثل المحاجر ، وسيكون من الضرورى اللجوء إلى الفأس لإحداث فتحات بها وإلقاء الحبوب فيها ، ومع هذا فلن ينبت بها شىء : لاذرة ولاغيرها .

– اكتبوا ما تقولون فى شكوى ، والآن اغربوا عن وجهى . إنه الإقطاع الذى يجب أن تصبوا عليه جام غضبكم وليست الحكومة التى تمدكم بالأرض .

– مهلا ، سيادة المسئول . لم نقل شيئًا ضد الحكومة ، كل كلامنا موجه إلى السهل . . . لانستطيع تحمل ما لا طاقة لنابه . هذا ما قلناه . . انتظر وسنشرح لك . لنبدأ من حيث انتهينا . . .

لكنه لم يرد سماعنا .

وهكذا أصبحنا ملاّكا للأرض ، وعلى هذا الفخّار الساخن يريدون مناّ بذْر الحب وانتظار إمكانيه نباته ونموّه ، لكن لن يرتفع فيها شىء ، ولاحتى تلك العقبان الكبيرة السوداء التى يراها الواحد هنا فى الأعالى وهى تتسابق محاولة الخروج من هذا الفضاء المتوهج القاسى حيث لايهتز شىء وحيث يمشى الواحد وكأنه يرتد على عقبيه .

يقول « ميليتون » :

– هذه هى الأرض التى أعطوها لنا .

يسأل « فاوستينو » :

- ماذا ؟

أنا لا أنبس ببنْت شفة . أحدّث نفسى : « رأس ميليتون » ليست فى مكانهــا . لابد أن الحــرارة هى التى جــعلتــه يهــذى هكذا ، الحــرارة التى اخترقت قبعتــه وأسخنت رأسه ، وإلا ، فما الداعى لكلامه ؟ أين الأرض التى أعطوها لنا ، يا « مــيليتون » ؟ لايوجــد هنا ولامثــقال ذرة من تراب تلعب معها الرياح لعبة الدوّامة » .

عاد « ميليتون » ليقول :

- ستكون لها فائدة ما . حتى ولو فى عدو الأفراس .

- أية أفراس ؟ - سأله « إستيبان » .

لم أدقق النظر من قــبل فى « إستــيبــان » كما ينبــغى . الآن ، وهو يتحدث ، أُحدّق فيه . إنه يرتدى سُتره تصل إلى سُرّته ، ومن تحت السترة يطل برأسه شيء مثل دجاجة . نعم ، إنها دجاجة ملونة تلك التى يحملها « إستــيبان » تحت ستــرته ، تُرى عيناها الناعســتان ومنقارها المفتــوح وكأنه يتثاءب . سألته :

- من أين لك هذه ؟

- إنها دجاجتى - ردّ علىّ .

- لم تكن معك من قبل ، فمن أين سرقتها ؟

- لم أسرقها ، إنها من حظيرتى .

- أحضرتها ، إذن ، زاداً للطريق ، أليس كذلك ؟

- لا ، حملتها للعناية بهـا . بقيت دارى لوحدها ولايوجد من يقدم لها الطعام ؛ لذلك أحضرتها . كلما أذهب بعيداً أحملها معى .

- ستموت مختنقة وهى مختـبئة بهذا الشكل ، من الأفضل إخراجها لتشم الهواء . .

أراحها تحت ذراعه وراح ينفخ عليها هواء فمه الحار ، ثم قال :

- ها قد وصلنا إلى الهاوية .

لا أسمع الآن بقية كلام « إستيـبان » . وقفنا صفا لنهبط الوهْدَة وهو أمامى مباشرة وقد أمسك الدجاجة من رجليها ويجتهد فى تحريكها باستمرار حتى لاتصطدم رأسها بالأحجار .

تطيب الأرض كلما نزلنا ، يتـصاعد الغبـار من جهتنا كمـا لو كانت كوكبة من البـغال هى التى تهبط ؛ لكن التدثر بالغبار يسـعدنا . يعجبنا . بعد السير إحـدى عشرة ساعة متواصلة على صـلابة السهل ، نحس بالمتعة ونحن ملـفوفون بتلك الذرات التى تتقافز علينا وطعمها طعم التراب .

فى أعالى النـــهر ، تطير أســراب الطـــيور علـى رءوس أشـــجـار « الكسوارين » . هذا أيضـا يعجبنـــا ، نباح الكلاب يُسمع حولنا الآن ، ذلك لأن الرياح القـادمـة من القـرية تجـعــله يـرتطـم بالوهدة ويغـمــرها بضجيجه .

عـاد « إستـيـبان » لاحتضـان دجاجتـه عندما أصحبنا على مـشارف القرية . أطلقها لتـستفيق من خدرها ، وبعدها اختـفى هو ودجاجته خلف حرج من نباتات اللّوف .

- لن أبرح هذا المكان - قال لنا « إستيبان » .

تابعنا التقدم وتوغلنا فى القرية .

الأرض التى أعطوها لنا توجد هناك ، أعلى الوهْدة .

مطلع العَرَّابات
(أو " لاكويستا دى لاس كومادرس " *)

كان فقيدا آل « توريكوس » (Torricos) صديقين دائمين لى ، ربما كانا مكروهين فى « ثاپوتلان » (Zupotlán) ، لكن صداقتهما الحميمة لى دامت إلى ما قبل موتهما بقليل ، أما بالنسبة لكراهية أهل « ثاپوتلان» لهما فلم تعد لها أهمية الآن ، لأنهم لم يكونوا يحبوننى أيضًا هناك ، وأعتقد أنهم لم ينظروا أبدًا بعين الرضا لأى فرد ينتمى لـ« مطلع العّرابات » . هذا معروف منذ أمد بعيد .

من جهة أخرى ، لم يكن آل « توريكوس » على وئام مع ساكنى « مطلع العّرابات » ، لأن الخلافات بينهم كانت شبه مستمرة ، ولا أبالغ لو قلت إن عائلة « توريكوس » كانت صاحبة الأرض وما عليها من بيوت ، علما بأن القسط الأعظم من « مطلع العرابات » كان قد وُزع علينا - نحن الستين مقيمًا هناك - بالتساوى ، ولم تكن عائلة « توريكوس » تزيد علينا إلا بقطعة من الجبل عليها نباتات اللّوف التى تتناثر بينها معظم البيوت ، بالرغم من هذا كانت « مطلع العّرابات » ملكا لعائلة « توريكوس » . والأرض التى أفلحها يملكها أيضا كل من « أوديلون » و « ريميخيو » توريكو ، والربى الخضراء - الثمانية عشرة - التى تظهر هناك تحت كانت بالكامل تخصهما ، لم يكن هناك داعٍ للتحقق من شىء لاستسلام الجميع للوضع القائم منذ فترة طويلة .

---

* « لاكويستا دى لاس كومادرس » (La Cuesta de las Comadres) اسم مكان (علم جغرافى) ، ومعناها : مطلع العّرابات ، فهى من الأسماء الأعلام التى لها معنى (المترجم)

ومن تلك الأيام حتى وقتنا هذا و « مطلع العرابات » يهجرها ساكنوها . من حين لآخر ، كان يرحل أحد السكان ، كان يجتاز مكان مظلة القطعان التى لم يبق منها سوى عمودها الطويل ، ويختفى بين أشجار البلّوط ولايعود للظهور ثانية .

كانوا يرحلون وفقط ، وأنا أيضًا كان بإمكانى الرحيل عن طيب خاطر لإدراك السرّ الكامن وراء الجبل والذى لايسمح لأحد بالعودة ؛ لكن تعلقى بأرض « المطلع » وصداقتى الحميمة لعائلة « توريّكوس » أقعدانى عن الرحيل .

تقع قطعة الأرض التى أزرع جزءًا منها كل عام بالذرة والجزء الآخر بالفاصوليا على الجانب العلوى ، هناك حيث يهبط السفح تجاه الوهدة المسماه « رأس الثور » .

لم يكن المكان قبيحًا ، غير أن الأرض كانت تتحول إلى مادة لزجة مع حلول موسم الأمطار وتتناثر بها حجارة صلبة حادة مثل جذوع تبدو وكأنها تنمو مع الزمن . ومع هذا ، فقد كانت أعواد الذرة تتشبث بها جيدًا والكيزان التى تغلّها حلوة المذاق . كانت عائلة « توريّكوس » لاتستغنى عن ملح كربونات الصودا فى كل ما تزدرده من طعام ، لكنها لم تحاول ولم تلمح لضرورة إضافة هذا الملح لكيزانى التى كانت ضمن منتجات « رأس الثور » * .

* يشير الكاتب هنا – عن طريق التورية – إلى ظلم عائلة « توريكوس » وتعدياتها على زراعات الآخرين فى المنطقة المسماه « رأس الثور » ، وعن استثنائها لأراضى راوى القصة المزروعة بالذرة من هذا التعدى ، وإذا يصف الراوى محصول ذرته (الكيزان) بأنها حلوة المذاق ، لأنها كانت بالتأكيد خالصة له . (المترجم) .

لهذا السبب ، ولأن الروابى الخضراء - الثمانية عشرة - الواقعة تحت ، كانت هى الأفضل ، هجر المنطقة سكانها . لم يكونوا يذهبون ناحية « ثاپوتلان » بل يأخذون الوجهة الأخرى التى تهب علينا منها كل ساعة تلك الرياح المعبقة برائحة أشجار البلوط وحفيف الجبل . كانوا يمضون صامتين ، دون التفوه بكلمة أو الصدام بأحد ، بالتأكيد كانت رغبتهم عارمة فى الشجار مع عائلة « توريكوس » للثأر من الأضرار الجَّمة التى ألحقوها بهم ؛ لكنهم لم يجدوا الشجاعة الكافية .

الشىء العجيب أنه بعد موت آل « توريكوس » لم يفكر أحد فى العودة ، ظللت أنتظر ، لكن لم يرجع أحد ، وجهت عنايتى أولا لدورهم ؛ أصلحت السقوف وسددت شقوق الحوائط بأفرع الشجر ؛ ولما رأيت تأخر عودتهم تركتها لحالها، الوحيدة التى لم تتأخر أبدًا فى المجىء كانت أمطار نصف العام الغزيرة وتلك الرياح التى تهب فى فبراير وتقتلع سقف البيت الذى آوى إليه ، من حين لآخر كانت تأتى أيضًا أسراب الغربان طائرة بالقرب من الأرض وهى تنعق عاليا كما لو كانت متأكدة من تواجدها بمكان خال من السكان .

سارت الأمور حتى الآن على هذا المنوال بعد موت آل « توريكوس » .

من قبل ، ومن هنا ، حيث أجلس الآن ، كانت « ثايوتلان » تُرى بوضوح ، فى أية ساعة من الليل أو النهار كان يمكن رؤية بقعة « ثابوتلان » البيضاء بعيدًا هناك ، أما الآن فقد ارتفعت نباتات « الخاريّاس » * وتعانقت ، وإمالة الريح لها من جانب لآخر لم يعد كافيا لرؤية شىء من خلالها .

* « خاريّاس » (Jarillas) : نباتات من عائلة القلقاسيّات . (المترجم) .

مما مضى مازلت أذكر كيف كان عـميدا آل « توريِّكوس » يأتيان أيضا للجلوس هنا ويظلان قـابعين ساعات وساعـات إلى ما بعد الغـروب وهما ينظران دون كلل إلى هناك وكأن المكان هذا يستولى على أفكارهما أو يُذكى فيهـما التـأمل فى الضـوضاء المنبـعثة من « ثابوتلان » وتدعوهمـا للتجول فـيهـا ، علمت وحـدى بعد ذلك أن السـبب لم يكن هذا ولاذاك ، كـانا يرقـبـان الطـريق وفـقط : ذلك الطـريق الرملـى الواسـع الـذى يمكـن متابعـته بالعين المجـردة من بـدايته حتى اخـتفـائه بـين أشجار صنوبر قمة « لاميديا لونا » .

لم أعرف مطلقًا أحـّد يضارع « ريميخيو توريكو » فى حـدّة البصر . كان أعـور . لكن يبدو أن العين السوداء نـصف المطبقة المتـبقيـة له كانت تقرّب الأشـياء بدرجة كـبيـرة وتضعهـا تقريبًا فى مـتناول يده ، ومن هذه المسافة يرصد بدقة متناهيـة أى جرم يتحرك على الطريق . وهكذا ، فعندما تلمع عينه بالرضا بعـد التدقيق فى شىء ما ينهض هو وأخوه من مرقـبهما ويختفيان من « مطلع العرّابات » زمنا قد يطول أو يقصر .

فى أيام غيـابهمـا كان يتغـير كل شىء بيننا ، يذهب الناس لإحـضار بهائمـهم من الكهوف الجـبلية ويربطونـها فى حظائرهم ، وتظهـر الخراف والديوك الرومى ، وفى تلك الأيام تسهل رؤية أكـوام الذرة والقرع العسلى وهى مطروحة للتشمس فى أفنيـة الدور ، وبالرغم من أن الرياح التى تجتاز القـمم العاليـة تكون أشـد برودة من مرات أخـرى إلا أن الكل هناك (فى

مطلع العّرابات) كـان لايتورع - دون معـرفة السبب - عن التأكـيد على جودة المناخ واعتداله ، ومثل أى مكان هـادئ مطمئن ، كان الواحد يسمع صـياح الدّيكة ، وكـأن السـلام يرفـرف دائمـًا بجناحيـه فـوق « مطلـع العرّابات » .

وبعد ذلك يعـود آل « توريّكوس » كانا يعلنان عن مـقدمهمـا قبل أن يصلا ، ذلك لأن كلابهم كانت تخرج مسـرعة ولا تتوقف عن النباح حتى تستقبلهما .

وتقـدير المسـافة والاتجاه الذى سـيصـلان منه كان يتوقف فـقط على النباح ، وعندئذ يسارع الناس مشوشين لإخفاء حاجياتهم ثانية . كان فقيدا « توريّكوس» مصدراً للرعب كل مرة يعودون فيها إلى « مطلع العرّابات ».

وبالرغم من هذا ، لم يحـدث أن تملكنى الخـوف بتـاتًا منهمـا كنت صديقًـا حميـما لهمـا ، بل وتمنيت أحيانا لـو رجعت بى الأيام إلى الوراء قليلاً حتى أكون على شـاكلتهما وانخرط فيمـا يصنعون . على أية حال ، فإن تقدم السن بى وقتها حال بينى وبين الانسلاخ من هويتى ، تذكرت فى تلك الأمسية أننى ساعدتهما مرة فى سرقة بغّال ، ووقتها أيقنت أن شيئا ما ينقـصنى ، وأن حياتـى المنصرمة كـانت شتـاتًا ، ولم تكن تتسع لأعـباء إضافية . نعم ، تيقنت من هذا .

دعانى عمـيدا عائلة « توريّكوس » وسط موسم الأمطار لأسـاعدهما فى جلب أجـولة من السكر ، مضـيت خائفًـا بعض الشىء . بداية ، لأن النوّة كـانت من ذلك النوع الذى يبـدو فيـه المطر وكأنه يكشط الواحـد من تحت قدمـيه . ولأننى ، ثانيًا ، لم أكن أعـرف المكان الذاهبين إليه ، على أية حـال ، فـقـد تبين لـى هناك أنـنى لـم أخلق لمثـل هـذا النوع من المغامرات .

أخبرانى أن المكان المقصود ليس بعيداً ، « خلال ربع ساعة سنكون هناك » ، قالا لى . لكن عندما بلغنا طريق « لاميديا لونا » كان الليل قد أرخى سدوله ، وحينما وصلنا إلى حيث يوجد البغّال كان قد انصرم معظمه .

لم يأتِ البغّال لرؤية القادم ، بالتأكيد كان ينتظر آل « توريّكوس » ، ولهذا السببَ لم يلفت وصولنا انتباهه . ظننت هذا . لكن البغّال ظل طوال الوقت الذى أمضيناه فى نقل أجولة السكر من هنا إلى هناك ساكنا ، مستلقيًا بين حشائش المراعى الكثيفة ، عندئذ أخبرت آل « توريّكوس » بما يلى . قلت لهم :

– هذا المستلقى هناك ، يبدو وكأنه فارق الحياة أو شيئًا من هذا القبيل .

– لا ، لابد أنه نائم – قالا لى – . تركناه عند متاعنا هذا ، ولابد أنه تعب من الانتظار فنام .

ذهبت إليه وركلته بقدمى فى ضلوعه لكى يستيقظ ؛ لكن الرجل ظل ممددًا كما كان .

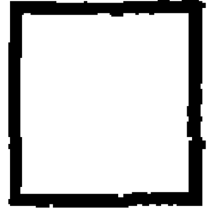
– إنه ميت بالتاكيد – أخبرتهما ثانية .

– لاتوهم نفسك ، إنه مجرد فقدان للوعى من جرّاء ضربة النبّوت التى سددها « أوديلون » إلى رأسه ، لكنه سينهض فيما بعد ، عندما تطلع الشمس وتلسعه حرارتها سينهض بسرعة ويذهب الى داره فى الحال . عليك بإحضار الجوال الذى هناك ! – هذا كل ما قالاه لى .

اتجهت ثانية نحو الميت وسددت إليه ركلة أخرى أحدثت رنينًا مثل الرنين الناجم عن ركل جذع شجرة جاف ، وبعد ذلك وضعت الحمولة على كتفى وسبقتهما ، كانا يتبعانى ، سمعتهما يغنيان خلال فترة طويلة إلى أن طلع الفجر ، لم أعد أسمعهما عندما لاحت تباشير الصباح .

حملت نسمة الهواء العليلة التى تسرى قبيل الشروق أصوات لحنهما ، ولم أعد أعرف إذا كانا يتبعانى ، إلى أن سمعت نباح كلابهما المتسابقة يسرى فى جميع الاتجاهات .

ومن تلك الواقعة عرفت كيف يتجسس آل « توريكوس » على الأشياء التى تمر تحت من على الطريق وهما جالسان كل مساء إلى جوار دارى فى « مطلع العرّابات » .



لقد قتلت « ريمخيو توريّكو » .

لم يكن قد تبقى وقتذاك غير نفر قليل من مربى القطعان . غادر الأولون المكان واحداً إثر آخر ، أما المتأخرون فقد ذهبوا تقريبًا فى جماعات ، منتهزين فرصة قدوم موسم الصقيع والثلوج ، فى السنوات السابقة كان الثلج يأتى ويقضى على المزرعات فى ليلة واحدة ، وهذا العام أيضا ، لذلك غادروا المكان . بالتأكيد اعتقدوا أن المشهد نفسه سيتكرر العام التالى ويبدو أنهم فقدوا الرغبة فى مواصلة تحمل أرزاء المناخ كل عام وبلايا آل « توريّكوس » كل آن . وهكذا ، فعندما قتلت « ريمخيو توريّكو » كانت « مطلع العرّابات » والربّى المجاورة خالية تقريبًا من السكان .

حدث هذا فى شهر أكتوبر على ما أعتقد ، أذكر أن القمر كان فى ليلة تمامه ساطعًا بالضوء ، لأننى كنت جالسا خارج دارى أرقع - مستعينًا بضوء القمر المكتمل - جوالا داهمته الثقوب عندما وصل « ريميخيو » .

لابد وأنه كان ثمـلا . وقف قبالتـى يتأرجح ، حاجـبًا بتمـايله ضوء القمر الذى أهتدى به فى عملى وكاشفًا له تارة أخرى .

- المواربة من أقبح الخصال - قالى لى بعد صمت طويل - . تعجبنى الصراحة ، وإذا كان يروقك الانحراف فقد أتيت هنا لأقوّمه لك .

واصلت ترقيع جـوالى ، كانت عيناى منهـمكتين فى حياكـة ثقوبه ، والمسلّة الطويلة كانت تعمل بنشاط كلما غمرها ضوء القمر .

بالتأكيد تصور لهذا أننى لا أحفل بكلامه .

- أنا أوجـه لك الكلام - صـاح حـانقًا - . تعـرف جـيدًا مـا أتيت لأجله .

انتـابنى الفـزع قليـلا عندمـا اقـتـرب منى وألقى على وجـهى هذه الكلمات ، وبالرغم من هذا ، حـاوت التطلّـع إلى وجهــه لمعرفـة حجم حميته ، وبقيت محملقًا فيه وكأننى أسأله عن سرّ قدومه .

آتى ما فعلت ثماره ، فقد أصبح أكـثر هدوءًا ليواجهنى قائلا إن مثلى من الناس يجب أن يؤخذ على غرّة .

- يجف حلقى وأنا أخـاطبك بعد الذى فـعلته - قـال لى - ؛ لكن أخى كان صديقًا حميمًا لى مثلك تمامًا ، ولهذا فقط أتيت لأستوضح منك ملابسات موته .

كنت أسـمعـه بجلاء . تركت الجـوال فى جانـب وبقـيت متـفرغًـا لسماعه .

عرفت أنه يُلقى علىّ تبعة قتل أخـيه . لكننى لم أفعلها . كنت أعرف القتلة ، لكنه أوصد الباب فى وجهى ولـم يعطنى الفرصة لأسميهم له .

كنا نصل ، أنا و« أوديلون » ، لحد التشاجر مرات عديدة - أستمر موجها الكلام لى - . كان صعب المراس نوعًا ما ويستهويه التحرش بمن أمامه ، لكنه لم يكن يتجاوز هذا الحد . بتسديد بعض الضربات أو اللكمات كان يهدأ . وهذا ما أريد معرفته : إذا كان قد قال لك شيئًا ، أو أراد أن يسلب منك شيئا ما أو ماذا حدث . ربما كان يريد ضربك وبادرته أنت . شيء من هذا لابد وأن يكون قد جرى .

هززت رأسى لأقول له لا ، ليست لى علاقة . . .

- اسمع - قاطعنى - ، « أوديلون » كان يحمل في محفظته ذلك اليوم أربعة عشر « بيزو » * . عندما رفعته وفتشت جيوبه لم أجد فيها تلك النقود ، وبعدها علمت أنك اشتريت بطانية .

كان هذا صحيحًا . بالفعل اشتريت بطانية . وجدت أن البرد قادم والمعطف الذى كان لدىّ تآكل بكامله ، ولذا ذهبت إلى « ثابوتلان » وابتعت بطانية ، لكننى بعت لهذا الغرض جديين كانا عندى ، كان بإمكانه رؤية الجوال الذى ملأته الثقوب نتيجة لحملى الجدى الصغير فيه لأنه لم يكن قد وصل إلى حد الاعتماد على أرجله كما كنت أبغى .

- كن متأكدًا من أننى سأنتقم ممن فعل هذا بأخى ، كائنا من كان ، وأنا أعرف من هو - وصلنى ما يقوله من فوق رأسى تقريبًا .

- بمعنى أنه أنا ؟ - سألته .

---

* « بيزو » (Peso) : عملة مكسيكية . (المترجم) .

كان قمر أكتوبر يغمر بضيائه سقف الحظيرة ويرسل بظل « ريميخيو » الطويل إلى حائط دارى ، لمحته يتحرك نحو شجرة المشمش ويمسك بالسيف القصير الذى أحتفظ به مُعَدًّا دائمًا هناك . رأيته يعود بعد ذلك والسيف القصير فى يده .

لكنه عندما مشى من أمامى ، وقعت عينى على المسلّة التى كنت غرزتها فى الجوال تلمع فى ضوء القمر . لا أدرى لماذا ، لكنى بدأت أثق ثقة عمياء فى تلك المسلّة . ومن ثمّ ، فعندما اقترب منى « ريميخيو » سحبتها بسرعة من الجوال وغرزتها بالقرب من سرّته . غرزتها حتى آخرها ، وتركتها فى موضعها .

أخذته رِعْدة وانحنى شيئًا فشيئا إلى أن سقط على الأرض متكورًا يغشاه العرق ونظرة الفزع تطل من عينه .

مرّت لحظة بدا فيها وكأنه سينهض ليطعننى بالسيف ؛ لكن من المؤكد أنه ندم على محاولته أو أرتج عليه فلم يدر ماذا يصنع ، وعندئذ سقطت السنجة من يده وتلَوّى من جديد . لم يفعل أكثر من هذا .

غامت نظرته وأصبحت تشع حزنًا وتقطر أسى وكأنه تحت وطأة الإحساس ببوادر مرض مؤلم ، منذ أمد طويل لم يُقدر لى رؤية نظرة حزينة كتلك وتملكتنى الشفقة ، لذلك انتهزت الفرصة لأسحب المسلّة من السرّة وأغرزها أعلى ، حيث ظننت أنه مكان القلب ، وبالفعل ، غرزتها فيه ، لأنه انتفض مرتين أو ثلاثة مثل دجاجة مقطوعة الرأس ثم لازم الهدوء . كان ميتًا بالتأكيد عندما توجهت إليه قائلا :

- اسمـعنى يا « ريميخـيو » اغـفر لى ، فأنا لم أقـتل « أوديلون » . عائلة « الكاراش » هى التى قـتلته ، كنت هناك عندمـا قُتل ، لكنى على يقين بأنى لم أمـسّـه . كـانوا هم ، جمـيع أفـراد عـائلة « الكاراش » . استدرجوه ، ولما انتبهت ، كان « أوديلون » يحتضر . وتعرف لماذا ؟ بداية لأن « أوديـلون » ما كــان يناسبه الذهاب إلى « ثاپـوتلان » . أنت تعرف هذا ، طال الزمن أم قصـر كان ولابد أن يحدث له شيء يعكر الصـفو فى تلك القرية التى لايحبه مـعظم سكانها ، وعائلة « الكاراش » هى الأخرى لم تكن تطيقه ، لا أنا ولا أنت ندرى سبب استفزازه لهم هناك .

« لقـد جرى مـا جرى فـجأة . كنت قـد فـرغت من شراء بطانيـتى وخارجًا عندما تفل أخوك ما فى فـمه من عَرَقى على وجه واحد من عـائلة « الكاراش » . فعل هذا مازحًا ، بقصد أن يتسلى لأنه أضحك من كانوا هـناك - لكنهـم كانـوا جميـعًا مخـمـــورين . « أوديـلون » وعـائلـة « الكاراش » والجميع . وفجأة انقضوا عليه ، استلّوا مديّهم ومزقوه إربًا . مات من هذا .

وكما ترى ، فلم أكن أنا القاتـل ، وددت أن تعرف تمام المعرفة أنه لم يكن لى فى الأمر لا ناقة ولاجمل » .

هذا ما قلته للمرحوم « ريميخيو » .

كان القمر قد انتقل إلى الجـانب الآخر لأشجار البلوط عندما رجعت إلى « مطلع العـرّابات » ومـعى الصـيّادة الماهـرة . قبل أن أحـفظهـا فى

مكانها غمستها عدة مرات فى مياه الغدير لأزيل آثار الدم العالقة بها . كنت سأحتاجها بعد قليل ولايروق لى رؤية دم « ريميخيو » ماثلا أمامى على الدوام .

حدث هذا فى شهر أكتوبر على ما أظن ، أثناء احتفال « ثاپوتلان » بأعيادها ، وأقول إن ما حدث جرى فى تلك الأيام لأنهم فى « ثاپوتلان » كانوا يطلقون الصواريخ ، بينما كانت ترتفع من الجهة التى ألقيت فيها بالجثة أسراب الطيور من جرّاء فرقعة الصواريخ فى الفضاء .

مازلت أتذكر هذا .

فقراء لحد الضياع

تنحدر الأمور هنا من سيئ إلى أسوأ . الأسبوع الماضى ماتت عمتى « خاثينتا » ويوم السبت ، بعد أن واريناها التراب وبدأت كواهلنا تتخفف مما عليها من أحزان ، أخذت تمطر مطرًا لم يسبق له مثيل .

أطار هذا صواب أبى لأن محصول الشعير كان مكوّما للتشمس فى الفناء . هبط وابل الأمطار فجأة ، فى موجات عظيمة متتالية ، ولم يدع لنا فرصة لننقذ من بين براثنه ولو حفنة واحدة ؛ كل ما استطعنا عمله ، جميع أهل الدار ، هو الاحتماء تحت سقيفة والتطلّع إلى المياه الباردة المتساقطة من السماء وهي تحرق وتبيد ذلك الشعير الأصفر الذى حصدناه مؤخرًا .

وبالأمس فقط ، وهو اليوم الذى أكملت فيه أختى « تاتشا » الاثنى عشر ربيعًا ، علمنا أن البقرة التى أهداها لها والدى بهذه المناسبة قد جرفها النهر .

بدأ فيضان النهر عند الفجر من ثلاث ليال خلت . كنت مستغرقًا فى النوم ، ومع ذلك فإن الصخب المصاحب للنهر عند زحفه أيقظنى فى الحال وجعلنى أثب من الفراش والغطاء فى يدى ، كما لو كنت قد أعتقدت أن سقف البيت يخرّ فوق رأسى ، لكننى عدت إلى الفراش بعد ذلك ، لأننى تعرفت على صوت النهر ، ولأن هذا الصوت ظل يهدهدنى بإلحاحه حتى جلب لى النعاس ثانية .

عندما نهضت ، كان الضباب يلف الصباح ويبدو أنها استمرت تمطر دون انقطاع . اشتد صخب النهر وأصبح يُسمع على مقربة . كان الجو معبقًا بالرائحة النتنة للمياه الهادرة وكأنها دخان حريق ضخم .

كان النهر قد فقد شاطئيه عند ما أطللت عليه . أخذ يرتفع رويدًا رويدًا فى الشارع الرئيسى إلى أن اقتحم بسرعة فائقة بيت السيدة التى يطلقون عليها اسم « لاتمبورا » . كانت تُسمع بربطة الماء عند دخوله الحظيرة وعند خروجه متدفقًا من الباب بينما تغدو « لاتمبورا » وتروح منهمكة فى إلقاء دجاجها بالشارع لكى يبحث لنفسه عن مأوى يعصمه من الماء .

وعلى الجانب الآخر ، عند المنعطف ، لابد أن يكون النهر قد حمل - دون أن يدرى أحد متى كان ذلك - شجرة التمر هندى التى كانت فى فناء دار عمتى « خاثينتا » لأننى لا أرى الآن أثرًا لها ، كانت الشجرة الوحيدة بالقرية من هذا النوع . ولهذا السبب وحده أدرك الناس أن الفيضان الذى نشاهده يفوق جميع الفيضانات التى داهمت القرية من سنوات عديدة .

فى المساء عدنا ثانية ، أنا وأختى ، لرؤية طوفان المياه التى يزداد غمقانها وثخانتها تدريجيًا وتغطى حاليًا المكان الذى يجب أن تكون فيه القنطرة . ظللنا هناك ساعات وساعات نتطلع إلى ذلك المنظر دون أن ينال منّا التعب .

صعدنا بعد ذلك إلى التلّ لنسمع بوضوح ما يقوله الناس ، لوجود جلبة شديدة هناك تحت ، إلى جوار النهر ، حيث تُرى أفواه كثيرة تُفتح ثم تُغلق كما لو كانت تريد التعبير عن نفسها ؛ لكن لا يُسمع شىء . لهذا السبب صعدنا إلى التلّ حيث يوجد أناس آخرون ينظرون إلى النهر

ويعددون الأضرار التى أحدثها ، وهناك عرفنا أن النهر حمل « لاسيربيتينا » ، تلك البقرة التى أهداها والدى لأختى « تاتشا » فى عيد ميلادها وكانت لها عينان جميلتان وأذن بيضاء والأخرى ملونة .

لا أدرى كيف سوّلت لها نفسها عبور النهر هذا عندما وجدته مغايراً للنهر الذى تعهده كل يوم . « لاسيربيتينا » لم تكن أبدا بليدة الحس أو عديمة الإدراك ، بالتأكيد كانت نائمة عندما داهمتها مياه الفيضان . فى مرات كثيرة كنت أُضطر لإيقاظها من سباتها بعد فتح باب الحظيرة ، لأننى لو تركتها على هواها ولم أفعل هذا لبقيت اليوم بطوله هناك بالداخل مغمضة العينين ، ساكنة بلا حراك وهى تتنهد ، وكأنها تسمع تنهيدات الأبقار النائمة وتتجاوب معها .

لابد وأنها كانت نائمة أيضًا ساعة أن جرفها التيار ، ربما حاولت الاستيقاظ عندما أحست بالمياه الثخينة تدق ضلوعها ، ربما تملكها الفزع حينذاك وحاولت الرجوع ؛ لكنها وجدت نفسها محاطة بسياج تلك المياه السوداء القاسية التى تشبه الأرض المتحركة . ربما جأرت طالبة النجدة .

الله وحده يعلم كيف جأرت !

سألت الرجل الذى شاهدها والنهر يجرفها إذا كان قد رأى أيضًا ابنها الرضيع الذى كان معها ، لكن الرجل أنكر رؤيته ، قال فقط إن البقرة المنقطة مرت على ظهرها بالقرب من المكان الذى كان فيه ، وهناك ابتلعتها الدوّامة فلم يعد يرى لها قرونًا ولا أرجلا ولا أية علامة تدل عليها ، فقد كانت تتدحرج على صفحة النهر جذوع أشجار وفروع وسيقان نباتات وكان هو مشغولا باصطياد الحطب مما جعله لايستطيع التحقق مما إذا كان التيار يجرف حيوانًا أو جذوع أشجار .

ولذا لانعرف إذا كان الرضيع حيًا أو سحبه التيار خلف أمه ، لو كان الأمر الأخير ، فليتغمد الله الاثنين برحمته .

الورطة التى تحدق بدارنا ، بسبب بقاء أختى « تاتشا » خاوية الوفاض ، ستكتشف أبعادها فى القريب العاجل ، ذلك لأن والدى استطاع ، بعد صنوف من الأعمال المضنية ، أن يشترى «لاسيربيتينا » وهى عجلة صغيرة ويتعهدها بالرعاية والتربية حتى كبرت ووضعت مولودها الأول ثم قدمها هدية لأختى لكى يكون لها رأس مال ولو صغير تتزوج به وتُفتدى من الانحراف الذى انحدرت إليه أختاى الكبيرتان من قبل .

وطبقًا لما يرويه أبى ، فقد انحرفت أختاى بسبب فقرنا المدقع ولأنهما ، علاوة على هذا ، كانتا عنيدتين ومشاكستين منذ نعومة أظفارهما . ولما شبتا عن الطوْق ساءت أحوالهما لمصادقتهما رجال علموهما أشياء معيبة . انغمست الاثنتان فى التيار بسرعة وتعلمتا الانصياع لنداءات الطالبين لهما فى الساعات المتاخرة من الليل .

وبعد ذلك لم تتورعا عن فعل هذا فى وضح النهار ، فقد كثر خروجهما إلى النهر بحجة جلب الماء وأحيانًا ، على غير المتوقع ، كانتا تنتظران عشاقهما فى الحظيرة .

عندئذ طردهما أبى . احتملهما فى البداية قدر ما استطاع ؛ ولما ناء به الحمل بعد ذلك ألقى بهما فى عرض الطريق . طاب لهما المقام فى « أيوتلا » أو لاأدرى أين ، حيث احترفتا البغاء .

لهذا يعتصر الألم أبى من أجل « لاتاتشا » ، فهو لايود أن تلقى مصير أختيها بعد أن أصبحت فقيرة دون بقرة تُسرى عنها أثناء ترعرعها وفورانها وتؤهلها للزواج من رجل مناسب يحافظ عليها ويبادلها الحب طيلة حياته .

وهكذا ازداد الأمر صعوبة الآن . في وجود البقرة كان الوضع سيختلف ، لأنها لم تكن ستعدم من يتشجع للزواج بها حتى ولو من أجل امتلاك تلك البقرة الرائعة الجمال .

الأمل الوحيد الذى يداعبنا الآن يتمثل فى بقاء ابن البقرة الرضيع على قيد الحياة ، نتمنى ألا يكون قد فكر فى عبور النهر خلف أمه ، لو ثبت هذا لقُدِّر لأختى « تاتشا » تفادى المصير المظلم .

وأمى ترتعد فرائصها فَرَقًا من مجرد التفكير فيه .

لاتدرى أمى سببًا للعقاب الجمّ الذى أنزله الله بها عندما وهبها بنات على هذا النحو ، وفى عائلتها لاتوجد جدّة واحدة من هذا الصنف ، فقد تربين جميعهن على الخوف من الله ومراقبته وكن مؤدبات ولم يقترفن غلطة واحدة فى حق كائن من كان - ولهذا لاتدرى من أين وصل لبنتيها هذا الأنموذج السيئ . الأمر يحيرها ، تطوف بذاكرتها فى كل اتجاه ولاتهتدى لمكمن الخلل فى ولادة ابنة بعد أخرى بالمواصفات السيئة نفسها . لاتتذكر شيئا ، وفى كل كرة ترد ابنتاها على خاطرها ، تبكى وتقول : « ليهد الله الاثنتين ويتغمدهما برحمته » .

لكن أبى يعلل ذلك بحتمية القدر الذى لاتغنى منه حيلة . الخطر الداهم يكمن فيمن بقيت هنا ، فى « لاتاتشا » التى لا تتوقف عن النمو مثل عود صنوبر وتوحى مقدمات نمو نهديها بأنها ستكون على شاكلة أختيها : فهما مدببان وعاليان ورجرجتهما تثير الانتباه .

- نعم - يقول أبى - إن صدرها يحرض العيون على التملّى فيه ليفضى بها الحال إلى خاتمة مفجعة ؛ إننى أتضوع ريح هذا المصير .

هذا ما يؤرق أبى ويزلزل كيانه .

تبكى « تاتشا » عندما علمت أن بقرتها لن تعود بعد أن أخمد النهر أنفاسها . إنها هنا ، إلى جوارى ، بفستانها الوردى ، تطل على النهر من فوق التلّ دون الكف عن البكاء . تتدفق على وجنتيها دموع عكرة وكأن النهر قد حلّ واستقر بداخلها .

أعانقها محاولاً التسرية عنها ، دون جدوى . يزداد عويلها . يخرج من فمها صخب مشابه لما تجرجره ضفتا النهر ، يجعلها ترتجف وتهتز ، بينما يستمر علوّ الفيضان . يلطخ طعم النتانة المتصاعد من هناك وجه « لاتاتشا » المبتل ويتحرك نهداها صعوداً وهبوطاً ، دون توقف ، وكأنهما شرعا فى الانتفاخ فجأة وأخذا يخططان لإضاعتها .

الرجـــــل

غاصت قدما الرجـل في الرمال ، تاركة آثاراً غير مطبوعـة مثل حافر حيوان . تسلَّقت الأحـجار ، متشبثـة مقدماتهمـا بها لانحدار المطلع ، ثم خطت نحو الأعالى باحثة عن الأفق .

« قدمان مفلطحان - قال الذى يقتـفى أثره - . القدم اليسرى ينقصها الإصبع الغليظ - قليلون من بأقدامهم هذه العلامات . من السهل الاهتداء إلى صاحبهما » .

يتجـه الطريق إلى أعلى ، تحيط به الحشـائش التى تكثر بها الأشـجار الشوكية ونبـاتات « لاس مالاس موخيرس » . يبدو من شدة ضـيقه وكأنه صراط للنمل . يصـعد دون تعرجـات نحو السمـاء . يختفى هناك بعـيداً ليعود للظهور ثانية تحت سماء أشد ارتفاعًا .

تتبعت القدمان الطريق دون الانحراف عنه . مشى الرجل معتمداً على عقبيه ، كـاشطًا الحجارة بأظافر قدميه ، خددشا ذراعيـه ، متوقفا عند كل أفق ليقيس نهايته : « **ليست نهايتى بالطبع ، بل نهايته** » ، قال . التفت ليرى صاحب الصوت .

لاتسرى نقـطة هواء واحدة ، بل صدى صـخبـه فحـسب بين الأفرع المقطوعة ، خائر القوى من السير متلمسًا ، يعد خطواته ، حابسًا أنفاسه : « **ماض إلى قدرى** » ، عاد ليقول . وأدرك أنه هو الذى يتكلم .

« صعد من هنا ، ممشطًا الجبل – قال الذى يتبعه – . قطّع الأغصان بسيف قصير . معلوم أن اللهفة تجرجره ، واللهفة تترك دائمًا أثرًا . هذا سيضيّعه » .

بدأ حماسه يفتر عندما طالت الساعات وخلف كل أفق يظهر آخر والتلّ لاينتهى . أخرج السيف القصير وقطّع الأفرع الصلبة وكأنها جذوع ثم اجتثّ الحشائش من جذورها ، مضغ بصقة قذرة ثم تفلها على الأرض فى رباطة جأش ، لثم أصابعه وبصق من جديد . كانت السماء هادئة هناك فى الأعالى ، ساكنة ، تعكس صورة سحبها بين ظلال أشجار الطّلح غير المورقة . لم يكن الوقت وقت ترعرع الأوراق ، بل ذلك الزمن الجاف والصدئ للأشواك والسنابل البرية الجافة . كان يضرب بسيفه القصير الأعشاب والأشجار القصيرة : « **بمثل هذا العمل تخور قوى الواحد ، الأفضل لك ترك الأشياء قابعة فى سلام** » .

سمع صوته يتردد هناك خلفه .

« رباطة جأشه أفصحت عن هويته – قال مقتفى أثره – ، أعلن عن نفسه ولم يبق الآن سوى تحديد مكانه ، سأصعد حيث صعد ، وأهبط من حيث هبط ، ملاحقًا له حتى أتعبه . وعندما أتوقف سيكون هناك . سيجثو على ركبتيه طالبًا منى العفو ، وسأدع رصاصة تستقر فى قفاه . . . هذا ما سيحدث عندما أجدك » .

وصل إلى النهاية . لاشىء سوى السماء الرمادية نصف المحترقة بغمامات المساء الكبيرة . كانت الأرض قد هوت إلى الجانب الآخر .

نظر إلى البيت الموجود قبالته ويتصاعد منه الرمق الأخير لدخان الجذوة . شق لنفسه طريقًا في الأرض الطرية المحروثة حديثًا ، وبمقبض السيف القصير طرق الباب دون رغبة . جاء كلب ولعق بركبتيه ، وجرى آخر حوله محركًا ذيله ، عندئذ دفع الباب الذى يُغلق فقط في وجه الليل .

قال الذى يقتضى أثره : « أنجز عملا محكمًا ، لم يعطهم فرصة حتى للاستيقاظ ، لابد أنه وصل الساعة الواحدة تقريبًا ، عندما يكون النوم أشد وطأة ؛ عندما يهجم النعاس ؛ بعد « تصبحون على خير » ، عندما تسرح الحياة بين يدى الليل وعندما يخدش تعب الجسم أوتار الشكّ ويمزقها » .

« ما كان ينبغى قتلهم جميعًا – قال الرجل – **على الأقل ليس عن بكرة أبيهم »** .

كان هذا ما قاله .

كان السحر رماديًا ، مترعًا بهواء بارد . هبط إلى الجانب الآخر ، متزحلجا على المرج . ألقى بالسيف القصير الذى كان قابضًا عليه عندما خدّر البرد كفيه . تركه هناك . رآه يلمع بين السنابل الجافة مثل جزء من أفعى بلا حياة .

هبط الرجل باحثًا عن النهر ، شاقًا لنفسه ثلمة جديدة بين أحراش الجبل .

يجرى النهـر هناك أسفل ، ناثرًا مـياهه بين أشـجار قصـيرة فـوّاحة مزدهرة ؛ محركاً فى صمت تياره الثخين ، يمشى ويدور حول نفسه . يأتى ويروح مثل ثعبـان متكوّر فوق الأرض الخضـراء ، لايحدث صوتًا . يمكن للواحد النوم هناك . إلى جواره ، ويستطيع سـماع أنفاسه هو ، لا أنفاس النهر ، يـنحدر العُلّيق من الأشـجار الفوّاحـة العاليـة ويغطس فى الماء ، تتشـابك أياديه لتـشكـل بيوت عنكبوت لايسـتطيع النهر تفكيك خيـوطها أبدًا .

اهتدى الـرجل إلى مجـرى النهر بمسـاعدة اللون الأصـفر للأشـجار القصيرة الفوّاحة ، لايســمعه ، يراه فقط متلويًا تحت الظلال . رأى طـيور « تشاتشالاكس » قادمة . فى المساء السـابق كانت قد ذهبت باتجاه الشمس طائرة في زراقات خلف الضـوء ، والشمس الآن على وشك الطلوع ولذا فهى تعود من جديد .

أشار على نفسـه بعلامة الصليب ثلاث مرات . « مـعذرة » ، قال لهم ، وشرع فى مهمته ، عندما وصل إلى الثالث كانت الدموع تتدفق من عينيه بغزارة ، أو ربما كان عرقا . القتل مهمة عسيرة ، الجلد قابل للطى ، يستعصى على القطع ، يدرأ عن نفسه الخطر بالرغم من إيثاره الاستسلام . والسيف القصير كان مثلومًا : « معذرة » قال لهم ثانية .

« جلس على رمال الشـاطئ – قال الذى يقتـفى أثره – ، جلس هنا ولم يبرح مكانه لوقت طويل. آمل أن تنقـشع السحب . لكن الشمس لم تطلع هذا اليوم ولا اليوم الذى يليه . مـازلت أذكر ، كان يوم الأحد الذى فقـدت فيـه المولود حديـثًا وذهبنا لدفنه. لم نكن حـزانى، أذكر فـقط أن

السماء كـانت رمادية والزهور التى كنا نحملها كـانت حائلة اللون وذابلة وكأنها متأثرة بغياب الشمس .

الرجل هذا ظـل هنا ، منتظراً . هـاهى آثاره : العش الذى صنـعـه بالقرب من الشـجيرات ؛ حرارة جـسمه التى تغوص مـثل بئر فى الأرض الرطبة » .

« **ما كان ينبغى ترك الطريق** – حدث الرجل نفسه – . **لو لم أتركه لكنت وصلت الآن ، لكن من الخطر السير حيث يسير الجميع ، خاصة وأننى تحت وطأة هذا الحمل الباهظ ، هذا الحمل الذى لايمكن أن تخطئه أىّ عين ترانى ؛ لابد وأنه يُرى مثل ورم غريب ، أُحسه هكذا ، عندما أحسست بإصبعى المقطوع ، كان الناس قد رأوه قبلى ولم أنتبه إليه إلا فيما بعد . وهكذا لدى الآن ، رغمًا عنى ، علامة توشى بى . الحمل الذى أنوء به يجعلنى أحس به ، أو ربما نال منى التعب »** . ثم أضاف قائلا : « **ما كان ينبغى قتلهم جميعًا ؛ كان علىّ الاكتفاء بالمقصود ؛ لكن الظلام كان مطبقًا والأحجام متشابهة ... على أىّ حال ، فالموت الجماعى يقلّص تكاليف الدفن** » .

« سينال منك التعب قبلى ، سأصل إلى حيث تريد الوصول قبل وجودك هناك – قال الذى يتبعه – ، أحفظ عن ظهر قلب مايدور بخلدك ، من أنت ومن أين تكون وإلى أين أنت ذاهب ، سأصل قبل أن تصل » .

« **ليس هذا هو المكان** – قال الرجل عند رؤية النهر . – **سأعبره من هنا وربما أخرج على الشاطئ نفسه ، يجب تجاوزه إلى الجانب الآخر ،**

حيث لا يعرفني أحد ولا يدري عني شيئًا ، وبعد ذلك سأسير دون الانحراف يُمْنة أو يسارًا حتى أصل ، لن ينتزعني مخلوق من هناك » .

مرت جماعات أخرى من طيور « تشاتشا لاكس » وهى تنعق نعيقًا يصم الآذان .

« سأتقدم إلى الأمام أكثر ، النهر هنا مشتجر ويمكن أن يعيدني إلى حيث لا أرغب في العودة » .

« لن يَمَسُّك ، يابنى ، أحد بسوء . أنا هنا لأحميك ، لهذا وُلدت قبلك واشتد ساعدى قبل ساعدك » .

كان يسمع صوته ، خارجًا من فمه على مهل. يحس به يرنّ مثل شيء زائف بلا معنى .

لماذا تفوّه بهذا الكلام ؟ من المحتمل أن يكون ابنه يسخر منه الآن ، وربما لا .

«ربما يتملكه الغضب منى لأننى تركته وحيدًا فى ساعتنا الأخيرة . فقد كانت ساعتى أيضًا ؛ بل ساعتى فحسب ، قَدِم من أجلى ، لم يكن يبحث عنكم ، لأننى ببساطة كنت نهاية رحلته ، الوجه الذى حلم برؤيته ميتا ، متمرغا فى الطين ، مدعوسًا بالقدم لحد التشوّه ، مثلما فعلت بأخيه ؛ لكننى فعلته وجها لوجه ، أمام « خوسيه ألكانثيّا » وأمامك ولذت ساعتها بالبكاء والانتفاض رعبًا ، ومن يومها عرفت من أنت وكيف ستأتى للثأر منى . انتظرتك شهورًا ، يقظًا بالليل والنهار ، متأكدًا من مجيئك متخفيًا مثل أفعى أثيمة ، وجئت متأخرًا ، وأنا أيضًا وصلت

متـأخراً . أخرنى دفن المولود حـديثًا . بدأت أدرك الآن . الآن أدرك سرّ ذبول الأزهار فى يدى » .

« **ما كان ينبغي قتلهم جميعًا** - يحدث الرجل نفسه - . **لم يكن الأمر يستحق وضع هذا العمل الباهظ على كاهلي . الأموات يفوقون الأحياء ثقلا : يسحقون الواحد تحتهم . كان عليّ أن أتحسسهم واحداً بعد آخر حتى أعثر عليه ؛ كان بإمكاني التعرف عليه من الشارب ؛ وبالرغم من الظلام كان بإمكاني الاهتداء إلى الموضع الذى أضربه فيه قبل تمكنه من النهوض ... على أيٍّ حال ، ما حدث هو الأفضل - فلن يبكيهم أحد وسأعيش فى سلام ، المهم أن أجد مكانًا مناسبًا لعبور النهر قبل أن يدهمني الليل** » .

اتجه الرجل إلى مكان يضيق عنده النهر ، لم تظهر الشمس طيلة ماانصرم من نهار ، لكن الضوء كان قد انثنى وأمال الظلال ، ومنه أدرك الرجل أن الوقت يوافق ما بعد الظهر .

« لقد وقعت فى الفخ - قال الذى يقتفى أثره ويجلس الآن على ضفة النهر -. أوقعت نفسك في ورطة ، فعلت أولا فعلتك الشنيعة وتتجه الآن نحو التوابيت ، نحو تابوتك الخاص ، لايهمّ أن أتبعك حتى هناك . يجب أن تعود عندما تتعثر فى القيود التى تلفلفها حولك ، سأنتظرك هنا .

سأستغل الوقت فى تقدير البعد المناسب للتصويب وتحديد المكان الذى سيتلقى الرصاصة ، لاينقصنى الصبر وأنت تفتقده ، وهذه

ميزة لى . قلبى ينزلق ويتمرغ فى دمه ، وقلبك خَرِب وغاص بالعفن . وهذه أيضا ميزة أخرى . ستموت غداً أو ربما بعد غد أو فى غضون أيام ثمانية ، لايهم الوقت ، لدى ذخيرة من الصبر لاتنفد » .

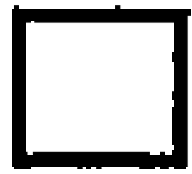
وجد الرجل النهر متصندقًا بين حوائط عالية فتوقف « يجب أن أعود » ، قال .

النهر فى تلك الأماكن واسع وعميق ولايتعثر فى أى حجر ، ينزلق فى مجراه مثل زيت ثخين ومتسخ ، ومن حين لآخر يبتلع فى دوّاماته ضفدعة ، ويرتشفها رشفًا دون أن تصدر عنها شكوى واحدة .

« يابنى – قال الذى كان جالسا منتظراً – : آن الأوان لأخبرك أن من قتلك فى عداد الأموات من هذه الساعة . أيعود علىّ من وراء هذا نفع ؟ القضية أننى لم أكن معك . فى ماذا يفيد الشرح ؟ لم أكن معك وكفى ، ولامعها ، ولا معه . لم أكن مع أحد منكم ؛ لأن المولود حديثًا لم يترك لى أى علامة للذكرى »

نكص الرجل على عقبيه وقطع شوطا طويلا بحذاء النهر .

تثب على رأسه فقاعات من الدم . « **ظننت أن الأول سيوقظ الباقين بحشرجته، ولهذا أسرعت** » . « أستميحكم العذر فى العجلة » ، قال لهم ، وأحس بعد ذلك بأن تلك الحشرجة كانت مثل شخير النائم ؛ ولذا تملكه الهدوء عندما خرج إلى الليل ، إلى برد تلك الليلة الملبدة بالغيوم .



كان يبدو أنه جاء هاربًا . كانت ساقاه ملطختين بالطين لدرجة لايظهر معها لون بنطاله .

رأيته منذ أن غطس فى النهر ، ترك نفسه للتيار دون أن يضرب بيديه الماء كما لو كان يمشى على قاع النهر . اخترق الشاطئ بعد ذلك وترك أسماله لتجف . رأيته يرتعد من البرد . كان الهواء نشطًا والسماء ملبدة بالغيوم .

كنت أطلّ من فتحة الحظيرة التى عهد لى بها صاحب العمل لأرعى حملانه ، عدت ودققت النظر فى ذلك الرجل دون أن أجعله يشعر أن أحدًا يتجسس عليه حتى لايرتبك .

اعتمد على ذراعيه وبقى ممددًا تاركًا جسده ليجف ، أدخل نفسه بعد ذلك فى القميص والبنطال المترعين بالثقوب . لاحظت أنه لم يكن يحمل سيفًا أو أى سلاح آخر ، لاشيء سوى غمد يتيم متَدل من وسطه

نظر وعاود النظر فى جميع الاتجاهات ثم ذهب . كنت على وشك النهوض لأحبس الحملان عندما رأيته يعود بهيئته المشوشةنفسها .

ألقى بنفسه مرة أخرى فى النهر ، فى فرعه الأوسط ، ميممًا طريق العودة .

« ماوراء هذا الرجل » سألت نفسى .

لاشيء . فى طريقه للعودة سحبه التيار المندفع كالسهم وكان على وشك الغرق ، ضرب الماء بذراعيه دون هوادة لكنه لم يستطع العبور فى النهاية وخرج هناك وهو يفرغ ما فى أحشائه من ماء .

كرر عملية تجفيف نفسه وهو عارٍ تمامًا ثم سار بحذاء النهر فى الاتجاه الذى قدم منه سلفًا .

من يُسْلمه لى الآن ! لوكنت أعرف ما فعله لكنت أجهزت عليه رمياً بالحجارة دون أدنى تأنيب للضمير .

والآن أدرك أنه كان مجرمًا ، تكفى رؤية وجهة فقط للحكم عليه . لكنى لا أطلّع على الغيب ، ياسيادة المحقق ، أنا مجرد راعى حملان ، وخوّاف بعض الشيء عندما يجد الجد . صحيح ما تقوله حضرتك من أنه كان من السهولة بمكان إلقاء القبض عليه غيلة وأن حجراً واحداً موجهًا بعناية إلى الرأس كان كافيًا لتركه متيبسًا ، معك كل الحق ولايمكن أن ينازعك فيه أحد .

وماتقصّه علىّ بالنسبة لمن قتلهم مؤخراً يجعلنى أؤنب نفسى . الفتك بالقتلة يسرّ الخاطر ، صدقنى ياسيادة المحقق ، ليست لى بعادة ؛ لكن لابد -أن يحس الواحد باللذة وهو يعاون الرب فى القضاء على الضالين من عباده . لم ينته الأمر هنا ، رأيته يعود اليوم التالى بحكاية مغايرة ، لكننى لم أكن أعرف شيئًا عن الحقيقة وقتها ، لو كنت أعرف !

رأيته يعود ، بالقميص الممزق ، أشد نحافة من اليوم السابق ، وعظامه تطلّ من تحت جلده ، لم أصدق أنه هو ، وكأننى أراه للمرة الأولى .

عرفته من الهالة التى تحيط بعينيه : عينان شبه جامدتين كأن بهما قذى ، رأيته يعبّ الماء ثم يملأ به فمه وكأنه يتمضمض ؛ لكن ما حدث أنه ابتلع حفنة كبيرة من اليرقات ، لأن النُقْرة التى هبط إليها ليشرب كانت وطيئة وتعج باليرقات ، لابد أنه كان جائعًا .

تأملت عينيه ، كانتا مثل ثقبين مظلمين وكـأنهما عينا كهف ، اقترب مني وسألني :

« ألك هذه الحمـلان ؟ » . قلت لا . « إنها لمن ولـدها » ، هذا ما قلته له ، لم يعجبه قولي ، لم ينبس ببنت شـفة ، اقترب من أسمن نعجة وبيديه قـبض على إحدى أرجلهـا كالكماشـة والتقم الضـرع ، ارتفع ثغاء الحيوان ، لكنه لم يفلته وظل يسـحب ويسحب إلى أن سئم من الرضاعة يكفي أن أقول لـك إنه تعين عليّ تطهيـر ضرع الشاة « بالكيـرولين » لكي يخف احتقانه ولاتحدث له التهابات من جرّاء عضات الرجل .

تقول إنه قتل جميع أفراد عـائلة « أوركيدي » ؟ لو كنت أعرف لمزقته إربًا ضربًا بالهراوة .

لكن الواحد جاهل ، يعيش الواحد في التلّ منعزلا ، لاصلة له بأحد سوى الحملان ، والحملان لاتعرف القيل والقال .

عاود الظهـور في اليوم التالي ، عندما وصلت ، حـضر . تولد بيننا نوع من الألفة ، أخبرني أنه ليس من هنا ، بل من مكان قصيّ ؛ لكنه لم يعد يقوى على المشي لأن ساقيه لا تـتحملانه : « أمشي وأمشي ولا أقطع شيئًا ، ركبـتاي تنثنيان وَهنًا وضعفًا ، والأرض التي أنتسب إليـها بعيدة ، بعد تلك الرِّبى بكثير » . أخبرني أنه أمضى يومين كاملين دون تذوق طعام سوى بعض الأعشاب ، هذا ما قصّه عليّ .

تقول حضرتك إن الشفقة لم تأخذه بأفراد عائلة « أوركيدي » وقتلهم عن بكرة أبيـهم ؟ لو كنت أعرف لثُبْت إلى رشدي وتملكني العـجب وأنا أراه يرضع لبن نعاجي .

لكنه لم يكن يبـدو سيئـا ، حكى لى عن زوجته وأولاده الصـغار ، وعن غربته عنهم . كان يرتشف المخاط عندما تلمّ به ذكراهم .

من دقة خاصرته يُستَدل على شـدة نحافته . بالأمس فقط أكل جزءاً من خروف قـتله البرق ، بالتأكـيد كان النمل قـد أتى من قبل على بعض الخروف والبـعض الباقى شـواه على النار التى كنت قد أشـعلتهـا لأسخن عـليـها أقـراص الذرة وأجهـز عليه بالكامل . مـصمص العظام وتركـها بلقعا . « الحيوان مات مريضًا » ، أخبرته .

لكنه ازدرده بالكامل ، وكأنه لم يسمعنى . كان جائعًا .

لكن حضرتك تقول إنه أودى بحياة هؤلاء الناس ، لو كنت أعرف ! وما السبـيل إلى المعرفة فى ظل العزلة والشقة بالآخرين ، لست إلا راعى غنم وخلاف هذا لا أعـرف شيئًا ، ومـاذا يفيد لو أخبـرتك أنه كان يأكل خبزى نفسه ويغمسه فى قصعتى ذاتها !

ولأنى أتيت لأخبـرك بما لدىّ من معلومات ، تعتـبرنى متسـتراً على مجرم ؟ وتقـول إنك ستودعنى السجن لإيوائى هذا الـشخص ؟ وكأنى أنا الذى أجهزت على تلك العائلة ، جئت فقط لأبلغ عن قتيل وجدته طريحًا هناك فى نُقْرة بـالنهر ، وتستـجوبنى عن متـى وكيف وأوصاف القـتيل ، وعندما أجيب على هذه الأسئلة أصبح متستراً على مجرم .

صـدقنى ، ياسيـادة المحقق ، لو كـنت أعرف هوية ذلك الرجل مـا عـدمت وسيلة للفـتك به ، لكن مـا ذنبى فى الجهل به ؟ أنا لست عـلام الغيوب .

ما قدمت له سوى الطعام وكان يحدثنى عن أولاده وعيناه تنهمران بالدموع .

وهو الآن ميت ، ظننت أنه نشر أسماله بين أحجار النهر لتجف ؛ لكنه كان هو ، بكامله ، منكفئًا هناك ، ووجهه فى الماء . اعتقدت فى البداية أنه انحنى ليشرب من النهر ولم يتمكن من رفع رأسه فاستنشق الماء بدلا من الهواء ، إلى أن رأيت الدم المتخثر يتدفق من فمه وعنقه مملوء بالثقوب .

لايخصنى استقصاء هذا الأمر ، أتيت فقط لأخبر سيادتك بما جرى ، دون حذف أو إضافة . أنا راعى أغنام ولا أفهم فيما يتعدى حدود مهنتى .

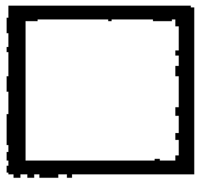
عند السّحر

من وسط الضباب تطلع « سان جبرييل » معروقة بقطرات الندى . نامت غمامات الليل فوق القرية باحثة عن الدفء المنبعث من سكانها . الشمس الآن على وشك الطلوع والضباب ينقشع ، ملفلفًا ملاءته ، تاركا خيوطا بيضاء على أسطح المنازل . من الأشجار والأرض المبتلّتين يتصاعد ، مفتونا بالسحب ، بخار رمادى لايكاد يُرى ؛ لكنه سرعان ما يتلاشى . وخلفة يظهر دخان المطابخ الأسود ، برائحة خشب البلوط المحترق ، ليحجب السماء بذرات رماده .

التلال البعيدة هناك مازالت تلفها العتمة .

حلق طائر خطّاف فوق الشوارع وبعده أعلنت الأجراس النّوْبة الأولى لقدوم الفجر .

أُطفأت الأنوار . حينئذ طوّقت بقعة ، كأنها من تراب ، القرية التى استمرت لبعض الوقت تغط فى سباتها ، متناومة فى دفء بواكير الصباح .



فى طريق « خيكيلپان » ، المحفوف بالأشجار العالية ، يأتى العجوز « إستيبان » على متن بقرة ، قائداً للقطيع الحلوب ، لقد صعد هنالك

ليتفادى مضايقة الجراد ووثوبه على وجهه ، يهش الذباب بقبعته العريضة ومن حين لآخر يحاول ، بفمه الخالى من الأسنان ، الصفّير للأبقار حتى لا تتخلف وتظل فى الوراء . كانت تسير وهى تجتر ، ناثرة ندى الحشائش على أجسادها .

يتكشف الصباح . يسمع دقات أجراس « سان جبرييل » معلنة طلوع الفجر فينزل من على ظهر البقرة ويجثو على الأرض ، وبذراعيه المبسوطين يشير بعلامة الصليب .

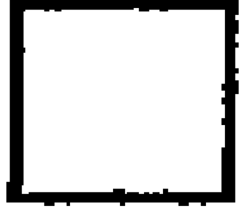
تنعق بومة بين الأشجار وعندئذ يثب على ظهر البقرة من جديد ، يخلع قميصه لكى يجعل الهواء البارد يُذهب فزعه ، ويستمر فى طريقه. « واحدة ، اثنتان ، عشرة » ، يعد الأبقار عند مروره بالحظيرة العمومية الموجودة عند مدخل القرية . يستوقف إحدى البقرات من أذنيها ويقول لها وهو يمطّ شفتيه : « سيفرقون اليوم بينك وبين ابنك ، ياحليقة الرأس ، اذرفى الدمع مدراراً كما تشائين ؛ لكنه اليوم الأخير الذى سترين فيه ابنك الصغير » . تنظر إليه البقرة بعينيها الوادعتين ، تضربه بذيلها وتمضى إلى الأمام .

تدق الأجراس النَّوْبة الأخيرة للفجر .

لايدرى أحد ما إذا كانت طيور الخطّاف تأتى من « خيكيلپان » أو تخرج من « سان جبرييل » ؛ ما يُعرف فقط هو أنها تأتى وتروح وهى تزقزق ، ملوثة صدورها بطين المستنقعات دون أن تمسك عن الطيران ، تحمل جماعات منها شيئًا ما فى مناقيرها ، تلمس الطين بدفّاتها الريشية وتبتعد ، تنسحب من فوق الطريق لتتوارى فى الأفق المعتم .

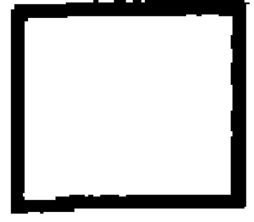
السحب الآن فوق الجبال ، بعيدة جداً ، تبدو مثل مظلات رمادية مشدودة إلى سفوح القمم الزرقاء . ينظر العجوز « إستيبان » إلى الشرائط

الورقية الملونة التى تطوف بالسماء : حمراء ، برتقالية ، صفراء ، تتحول النجوم إلى اللون الأبيض . تنطفىء الـومضات الأخيرة وتبـرز الشمس ، كـامـلة ، متوّجة أطراف الحشائش بقطرات زجاجية .



« كانت سُـرّتى باردة بسبب تعـرضها للهـواء ، لا أتذكر الآن لماذا . وصلت إلى الدهليز المفـضى إلى الحظيرة ولم يفتـحوا لى . تهشم الحـجر الذى كنت أطرق به البـاب ولم يخـرج أحد . ظننت حـينئذ أن صـاحب العمل ، سـيدى « دون خوسـتو » ، لم يستيـقظ بعد ، لم أخبـر الأبقار بشىء ولم أشـرح لهن شيـئًا ؛ انسـحبت بخـفـة حتى لاترينني وتتـبـعن خطواتى . بحثت عن المكـان المنخفض من السور وتسلقـته ثم هبطت فى الناحية الأخـرى بين العجول الصغيرة ، وبينمـا كنت أرفع مزلاج الدهليز رأيت سيدى « دون خوستو » خـارجًا من تحت مظلة الخيزران وهو يحمل بين ذراعيه الصغـيرة « مارجريتا » التى كانت نائمـة وعبر الحظيرة دون أن يرانى ، التصـقت بالحائط مـختبـئًا منه ، ومن المؤكـد أنه لم يرني ، على الأقل هذا ما ظننته » .

شرع العجوز فى حلابة الأبقار ، بقرة بعد أخرى ، وكلما فرغ من واحدة أدخلها . ترك البقرة المحرومة من الاجتماع مع ابنها للنهاية ، لكن جؤارها المستمر جعله يُشفق عليها ويُدخلها . « هذه هى المرة الأخيرة - قال لها - . انظرى إليه والعقيه بلسانك ؛ انظرى إليه كما لو كنت تودعيه الوداع الأخير ، أنت على وشك الولادة ومازلت تدللين هذا المتصابى » . ثم التفت إليه قائلا : « تذوق أثداءها فقط لأنها لم تعد لك ؛ ألا تدرى أن هذا اللبن قد غدا رخوًا ولايناسب إلا حديث الولادة » . وعندما رآه يرضع من الأثداء الأربعة جُنّ جنونه وانهال عليه ركلا بالأقدام « سأحطم رأسك ، ياابن الحيوان » .



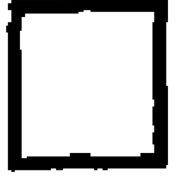
« كنت سأمزق خطمه بالتأكيد لو لم تنشق الأرض عن سيدى « دون خوستو » الذى سدد إلىّ عدة ركلات بقدمه لكى يُهدىء من روعى. أخذ الهراوة بعد ذلك وأمطرنى بوابل من الضربات جعلتنى أسقط بين الأحجار وعظامى تسزعق من شدة ما تَلَقّت من هول . أتذكر أننى

ظللت طوال ذلك اليوم مخدراً وغير قادر على الحركة من الأورام الناجمة عن العلقة الساخنة ومن الألم الفظيع الذى مازلت أعانى منه حتى الآن .

ما الذى حدث بعد ذلك ؟ لاأدرى . كل ما أعرفه أننى لم أعد للعمل عنده ، لا أنا ولاغيرى ، لأنه مات فى ذلك اليوم نفسه . سيادتك لاتعلم بهذا ؟ جاءوا ليخبرونى به فى البيت ، بينما كنت مستلقيًا على سرير نقّال وزوجتى إلى جوارى تضمد جراحى ، وتضع عليها الكمّادات . جاءوا إلىّ ليخبرونى أننى قتلته . ربما يكون هذا ما حدث ؛ لكنى لا أتذكر شيئًا ، ألا تعتقد سيادتكم أن قتْل آخر يترك آثارًا ؟ لابد وأن يترك آثارًا ، خاصة إذا كان هذا الآخر يفوق القاتل قوة ومَنَعة ، لكن لاشك فى أنهم لم يضعونى فى السجن عبثًا وإنما لشىء فعلته ، ألا تعتقد أننى على صواب فى هذا الاستنتاج ؟

خذ بالك معى : ما أتذكره بوضوح يمتد إلى اللحظة التى ضربت فيها العجل الصغير وما تبعه من هجوم سيدى علىّ ، إلى هنا تعمل الذاكرة بوضوح ، أما ما حدث بعد ذلك فكله غامض المعالم ، أعتقد أننى غبت تمامًا عن الوعى بعد تمددى على الأرض وعندما أفقت كنت فى سريرى وزوجتى هناك إلى جوارى تشجعنى على تحمل آلامى كما لو كنت صبيًا صغيراً ولم أبلغ من الكبر عتيًا ، لدرجة أننى صحت فيها : اصمتى ! أتذكر ما قلته لها ، كيف أنسى - ياامرأتى العجوز - أننى قتلت رجلا ! ومع هذا ، يصرّون على أننى الذى أرديت « دون خوستو » قتيلا . بماذا قتلته إذن ؟ يقولون بحجر ، أليس كذلك ؟ ربما

حالفهم الصواب فى هذا لأنهم لو قالوا إننى قتلته بسكين لوصفتهم بالعتَه لأننى لا أحمل سكينًا منذ أن كنت شابًا يافعًا ، ومن يومها حتى وقتنا هذا مرت سنوات لاتحصى » .



ترك « خوستو بارامبيلا » ابنة أخته « مارجريتا » على السرير ، محاولا عدم إحداث ضوضاء . فى الغرفة المجاورة كانت تنام أخته التى أقعدها الكساح منذ عامين وجعل جسدها مثل خرقة بالية ، وإن كان النوم لايزور عينيها إلا لِمامًا ، لايغشاها النعاس إلا فترة قصيرة عند السَّحر ، تنام فيها وكأنها أسلمت الروح إلى بارئها .

استيقظت عند طلوع الشمس ، كانت قد بدأت تفتح عينيها عندما وجدت « خوستو بارامبيلا » يضع جسد « مارجريتا » النائم على الفراش . سمعت أنفاس ابنتها وسألت: « أين أمضيت الليل ، يا « مارجريتا »؟ وقبل أن يبدأ فاصل الصراخ الذى سيؤدى فى النهاية إلى إيقاظها ، غادر « خوستو بارامبيلا » الحجرة فى صمت .

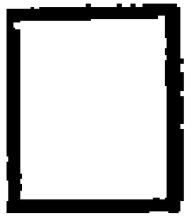
كانت الساعة السادسة صباحًا .

اتجه إلى الحظيرة ليفتح الدهليز للعجوز « إستيبان » . جال بخاطره التعريج على مظلة الخيزران ليحمل السرير الذى أمضى

الليل فوقه بصحبة « مارجريتا » . « لو يصرح القسيس بهذا ، لتزوجتها في الحال ؛ لكنني على يقين بأنه سيعمل لى فضيحة عندما أطلب منه هذا ، سيقول زنا محارم وسيعلن بموجبه مروقنا عن الدين وارتدادنا عن المسيحية » . فى هذا كان يفكر عندما وجد العجوز « إستيبان » يمسك بيدين من حديد خِطْم العجل الصغير ويسدد الركلات إلى رأسه .

كان يبدو أن العجل على وشك أن يفطس ، لأنه كان ينبش الأرض بحوافره دون أن يقوى على النهوض .

جرى وقبض على رقبة العجوز ودفعه على الأحجار ، بينما كان يركله ويكيل له شتائم لم ترد على لسانه من قبل ، أحس بعد ذلك بسحابات تطفو داخل رأسه وسقط متدحرجًا على أرضية الحظيرة المرصوفة ، حجبت غمامة كبيرة سوداء نظرته عندما أراد فتح عينيه . لم يكن يحس بألم ، بل بشىء أسود يُطبق على فِكْرِه ليحيله إلى ظلام دامس .

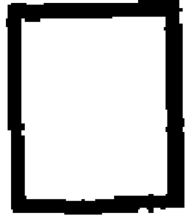


نهض العجوز « إستيبان » بعد أن ارتفعت الشمس قدْر رمح . مضى متلمسًا ما حوله ومتوجعًا ، لايدرى كيف فتح الباب وألقى بنفسه فى الشارع . . . لايدرى كيف وصل الى بيته ، مطبق العينين تاركًا خيطًا

من الدم على طول الطريق ، لكنه وصل وتكوّر على سريره النَقّال ونام من جديد .

كانت الساعة تشير تقريبًا إلى الحادية عشرة صباحًا عندما دخلت « مارجريتا » الخطيرة لتبحث عن « خوستو بارامبيلا » وهى تبكى لأن والدتها نعتتها بالبغاء بعد موشح طويل من العظات .

وجدت « خوستو بارامبيلا » ميتًا .



« يقولون إننى قتلته ، ربما ، لكن من الجائز أيضًا أن تكون حميته ذاتها هى التى فتكت به . كان طبعه حادًا وسيئًا للغاية ، لم يكن يعجبه شىء على الإطلاق : فالمذاود يراها دائمًا غير نظيفة ، والأحواض خالية من الماء والأبقار عجفاء .

لم يكن يعجبه شىء ؛ حتى نحافتى لم تكن تروقه . ومن أين لى بالسِّمْنة وفمى لايعرف الطعام إلا لمامًا ! لقد كنت أمضى وقتى كله فى رحلات متواصلة مع الأبقار ؛ أقودها إلى حيث اشترى مرعى فى « خيكيلپان » ؛ وأنتظر هناك حتى تأكل ثم نأخذ طريق العودة لنصل وقت السَّحر . كان ذلك مثل ترحال دائم .

والآن ترانى حضرتك بين قضبان السجن منتظرًا موعد محاكمتى الأسبوع القادم بتهمة قتل « دون خوستو » . أنا لا أتذكر شيئًا ؛ لكننى لا أستطيع نفيه ، ربما كانت على أعيننا غشاوة ولم ننتبه إلى أن أحدنا يقتل الآخر . يحتمل أن يكون هذا ما حدث . ذاكرتى فى هذه السنّ لاتسعفنى ؛ ولذا أتوجه بالشكر للخالق لأنه لو طمس كل ملكاتى فلن يضيرنى الآن كثيرًا ، لأننى بالفعل لم تبقَ لى حاليا ملكة واحدة تقريبًا ، أما بالنسبة لروحى فأنا أعهد بها أيضًا لرب العزّة » .

كان الضباب يهبط ثانية على « سان جبرييل » . لاتزال الشمس تلمع فوق الروابى العالية ، وبقعة من التراب تغطى القرية . جاءت الظلمة بعد ذلك . فى تلك الليلة لم تسطع الأنوار ، حدادًا على « دون خوستو »، صاحب الكهرباء ومالك المصابيح . ظلت أنوار الشموع تضيىء زجاج الكنيسة الملوّن حتى مطلع الصباح ، بينما سهر المشيعون إلى جوار جسد المرحوم . من بين يقظة الليل وغفوته تنبعث صلوات النساء اللاتى ترددن بصوت مفتعل : « اخرجى ، اخرجى ، اخرجى أيتها الأرواح الشريرة المذنبة » .

بقيت الأجراس تدق دقاتها الجنائزية طوال الليل ، حتى السّحر ، إلى أن قطعتها نوبة الإعلان عن الفجر .

« تالپا » (TALPA)

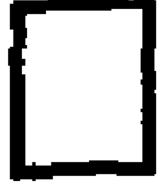
ألقت « ناتاليا » بنفسها بين ذراعى أمـها وانخرطت فى بكاء مسترسل مكتوم ، كان بكاءً متراكما من أيام عديدة ، مُدَّخراً للساعة التى نعود فيها إلى « زينزونتلا » ، ورأت أمها وأحسَّت بالرغبة فى التفريج عن همّها .

وعلى خلاف هذا ، لم تخامر الدموع عيـنيها أثناء المهام الجسام التى حـفلت بها أيام عـدّة : عندما كـان لزامًا عـلينا دفن « تانيلو » فى حفـرة بأرض « تالپا » دون مساعـدة مخلوق ، عندما أنا وهى ، وحدنا ، تكاتفنا وأخذنا ننبش بأظافرنا الأرض الصلبة لنحفر قبراً نوارى فيه « تانيلو » سريعًا حتى لايستمر فى إثارة فزع الناس برائحة هوائه المشبع بالموت .

ولاحتى بعـد ذلك ، فى طريق العودة ، عندما أتيـنا مواصلين الليل بالنهـار دون راحة ، سائرين مـتلمسين كـالمنوّمين ندوس الأرض بخطوات تبدو مثل قـرعات فوق جثـوة « تانيلو » . فى تلك الأثناء بدت « ناتاليا » مـثل حـجـر صلد تحـمل قلبًـا مكبلا حـتى لاتحس به ينتـفض داخـل صدرها ، لكن عينيها لم تذرفا دمعة واحدة .

لم تبك إلا بعـد أن وصلت إلى هنا ، فى حـجر أمـهـا ؛ لتغـمهـا ولتحـيطها علمـًا بمدى ما كابدته من مـعاناة ، ولتغـمنا - بالمرة - كلنا ، لأننى أحسست أيضًا بهذا البكاء وكأنه يعتصر خرقة خطايانا .

المسألة أننا تسببنا ، أنا و« ناتاليا » ، فى موت « تانيلـو سانتوس». حـملناه إلى « تاليا » ليـموت، ومـات ، كنا نعـرف أنه لن يتحـمل طول المسافة ،ومع هذا دفعناه دفعًا لتتخلص منه الأبد. هذا باختصار ما فعلناه .



كان أخى « تانيلو » هو صـاحب فكرة الذهاب إلى « تالپا » . راودته الفكرة قـبل غـيـره ، منذ سـنوات ، منذ ذلك اليـوم الذى أصبح فـيـه والفقّاعـات الداكنة تغطى ذراعيه وساقـيه . وعندما تحولت الفقـاعات بعد ذلك إلى قروح لاينبـثق منها الدم بل شىء أصـفر مثل الرَّاتيـنج يقطر ماء ثخينًا . أتذكـر جيدًا أنه أعرب لنا وقتـها ، والخوف يتملكه عن إحـساسه باستحالة الشفاء مما أصابه من ضرّ .

لهـذا كـان يريد الحج إلى عـذراء « تالپا » ، لـكى تُشـفى بنـظرتهـا قروحه . وبالرغم من أنه كان يدرك أن « تالپا » بعيدة والسفر إليها يتطلب السير طويلا تحت قرص الشمـس نهارًا وتحت برد مارس ليلا ، إلا أنه كان مصمـمًا ، معتقدًا أن الـعذراء ستجعله يبرأ مـن تلك الأشياء التى لايجف نبعها قط . لم يتطرق إليه الشك فى قدرة العذراء على غسل الأشياء وإزالة ما بها من أدران مثل مرج خارج لتـوّه من المطر ، وأمامها هناك ، ستنتهى بلواه ؛ لن يؤلمه شىء ولن يعد لإ يلامه . هذا ما كان يعتقده .

هذا ما جعلنا نصطحبه أنا و « ناتاليا ». كان لزامًا عليّ مرافقة « تانيلو » لأنه أخي ، ومرافقة « ناتاليا » له شبه واجبة على أية حال لأنها كانت زوجته . كان يحتاجها في الذهاب ليتوكأ عليها وربما دعت الضرورة في العودة لحمله على الأعناق ، بينما يكتفي هو بجرجرة آماله .

كنت أعرف مسبقًا ما يدور بخلد « ناتاليا » ، فقد خبرتها بعض الشيء . كنت أعرف ، مثلا ، أن ساقيها الملفوفين ، المكتنزين والساخنين مثل حجارة في أشعة شمس الظهيرة ، ظلا وحيدين زمنًا طويلا . كنت أعرف هذا . اجتمعنا مرات عديدة ؛ لكن طيف « تانيلو » كان يفصل دائما بيننا ؛ كنا نحس أن يديه المقرحتين تقفان حائلا بيننا وتنتزعان « ناتاليا » للاستمرار في العناية به ، وسيبقى الوضع على ما هو عليه طالما ظل على قيد الحياة .

أعرف الآن أن « ناتاليا » نادمة على ما حدث . وأنا أيضًا ؛ لكن هذا لن ينقذنا من تأنيب الضمير ولن يُعد السلام لجوانحنا مطلقًا . لايمكن أن يبعث في نفوسنا الطمأنينة العلم بأن « تانيلو » كان سيموت في جميع الأحوال ، لأن دوره كان قد حان ولم تعد تجدى الرحلة الطويلة إلى « تاليا » البعيدة ؛ فقد كان في حكم المؤكد أنه سيموت سواء هنا أو هناك ، أو ربما تأخر قليلا موعد موته هنا عن هناك ، لأن المعاناة التي كابدها في الطريق والدم الزائد الذى فقده ، والحماسة وغيرها ، قد اجتمعت وعجّلت بنهايته . ما يثير الأسى هو دفعنا له دفعًا إلى الأمام عندما فقد الرغبة في المواصلة وعندما أحس بعدم جدوى

الاستمرار وطلب منا إعادته . كنا نَشُدُّه شداً من الأرض لكى يواصل السير قائلين له إنه لم يعد بالإمكان التفكير فى التراجع .

« « تاليا » الآن أقرب إلينا من « زينزونتلا » » ، كنا نقول له . لكن « تاليا » كانت لاتزال بعيدة ؛ خلف أيام كثيرة من السير المتواصل .

كنا نريد أن يموت ، لاشيء غير هذا منذ مغادرة « زينزونتلا » وفى كل ليلة من الليالى التى أمضيناها فى الطريق إلى « تاليا» . إنه أمر لانستطيع فهمه الآن ؛ لكنه كان هدفنا وقتها ، أتذكر هذا جيداً .

لاتفارق مخيلتى تلك الليالي ، كنا نشعل أولا أخشاب الصنوبر للاستضاءة ، وبعد أن تصفو الجذوة ويعلوها الرماد نبحث ، أنا و « ناتاليا » ، عن أىّ ظلٍّ للاحتماء به من ضوء السماء . وهكذا كنا نعتصم بعزلة الحقول حيث يلفنا الليل بجناحيه بعيدا عن عينى « تانيلو » . وتلك العزلة كانت تدفع الواحد منا نحو الآخر ، كنت أهتصر جسد « ناتاليا » بذراعى فيغشاها نوع من العزاء ، كانت تحس بالراحة ؛ تتناسى أشياء كثيرة ثم يعتريها الخدر ويتنفس جسدها الصعداء .

كانت الأرض التى نتوسدها دائمًا حارة ، ولحم « ناتاليا » ، زوجة أخى ، كان يسخن فى الحال بفعل حرارة الأرض . والحرارتان المجتمعتان كانتا تحرقان الواحد بعد ذلك وتجعلاه يفيق من حلمه ، عندئذ كانت يداى تلهثان خلفها ؛ تروحان وتجيئان فوق جسدها المشتعل كالجذوة ؛ بخفه فى البداية لتهتصرانها بعد ذلك كما لو كانتا تبغيان عصر دمها . وهكذا مرة بعد أخرى ، ليلة بعد ليلة ، إلى أن يأتى السّحر وتطفىء الريح الباردة لهيب جسدينا . هذا ما كنا نفعله أنا و « ناتاليا » على جانبى الطريق المؤدى إلى « تاليا » ، خلال مرافقتنا « تانيلو » فى رحلة

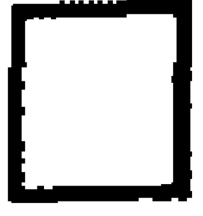
الاستشفاء إلى العـذراء . فات كل هذا وانقضى ، وشفى « تانيلو » حتى من حياته . فى ماذا يفيد تقليب المواجع بذكر المعاناة التى كابدها « تانيلو » من أجل العيش ، بذلك الجسد المسمم التـالف ، المترع بالماء الآسن الذى ينبثق عند حـدوث أى قطْع بالساقين أو الذراعين . قـروح كبيـرة ، تنفتح على مهل ، على أقلّ مهلها ، ليخرج منها هواء يثير فينا الذعر .

لكنه بعـد أن مات أصبـحت الأمور تُرى من منظور مـختلف . الآن تبكى « ناتاليا » من أجـله ، ربما ليرى ، من حيث ترقـد عظامه ، تأنيب الضميـر الذى يخالط روحها . تقول إن وجه « تـانيلو » يطالعها فى الأيام الأخـيرة . الشيء الوحـيـد فيـه الذى كان ذا نفـع لها ؛ وجـه « تانيلو » المخضب دائمًا بالعرق من وطأة المجهود الذى يبذله لتحمل آلامه . أحسّت به يقترب من فمـها ثم يختفى بين خصلات شعرها ، طالبًا منها . بصوت غير مـسموع . مساعـدته . تقول إنه إخبرها أنه شُفى مـؤخراً ، ولم يعد يضايقه أىّ ألـم . « بإمكانى الآن ، يا « ناتـاليا » ، البقـاء إلـى جـوارك ، ساعدينى لكى أبقى معك » . تدعى أن هذا كلامه لها .

كنا قد فرغنا من مغادرة « تالپـا » ، من تركه هناك مدفونًا فى أعماق تلك الحفرة السحيقة التى صنعناها بأيدينا .

ومن حينها نسيتنى « ناتاليا » ، أعـرف كيف كانت عيناها تلمعان من قبل مثل بِركتين ينعكس على صفحتهـما ضوء القمر ، لكن لونهما أصبح حائلا ، وغامت النظرة فيهمـا كما لو كانت تمرغت فى التراب ، وبدا أنها

لم تعد ترى شيئًا. كل ما حولها « تانيلو » الذى يخصها ؛ « تانيلو » الذى تعهدته بالرعاية بينما كان حيًا ودفنته عندما وجب عليه أن يموت .



خرجنا من قريتنا وأمضينا عشرين يومًا قبل الوصول إلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى « تالپا » . كنا نسير وحدنا ، نحن الثلاثة ، خلال تلك الأيام . وبعدها بدأنا ننحشر فى جموع لاتحصى قادمة من جميع الاتجاهات وأفضت بها طرقها ، مثلنا ، إلى ذلك الطريق الواسع الذى يشبه مجرى النهر . كنا نمشى جرًا ، مدفوعين من كل جانب كما لو كانوا يسوقوننا مقيدين بخيوط من الغبار ، هذا لأن الغبار كان يتحرك من جرّاء دبيب الجموع السائرة ، غبار أبيض مثل نخالة الذرة يرتفع عاليًا ثم يعاود الهبوط ، لكن الأقدام المتحركة كانت تردّه وترفعه من جديد ، وهكذا كان الغبار من فوقنا ومن تحت أرجلنا طيلة الوقت . وفوق هذه الأرض كانت تُحلّق سماء خاوية الوفاض ، بلا سحب ، فيما عدا الغبار ؛ والغبار لاظلّ له .

كنا ننتظر الليل بفارغ الصبر لنستريح من الشمس ومن ذلك الضوء الأبيض للطريق ، استطال النهار بعد ذلك ، فقد غادرنا « زينزونتلا » فى أواسط فبراير ، وبعد أن دخلنا الآن فى مارس أصبح النهار يطلع متعجلا . لانكاد نغلق أعيننا بالليل حتى توقظنا الشمس من جديد ، الشمس نفسها التى تبدو وكأنها غربت منذ قليل .

لم أتصور مطلقًا أن بطء الحياة وقسوتها ، مهما بلغا ، يمكن أن يعادلا السير بين كومات من البشر ؛ كنا مثل فوّارة تعج بدود متراكب بعضه فوق بعض تحت لفح الشمس ، ملفوفين بعتمة الغبار التى تحبسنا جميعًا فى الطريق نفسها وتقتادنا كالمحاصرين بسياج . كانت العيون تتبع الطريق ؛ تصطدم بالغبار كما لو كانت تتعثر فى شىء لايمكن اختراقه . والسماء رمادية دائمًا ، مثل بقعة رمادية غليظة وثقيلة تسحقنا جميعًا من علٍ . لم يكن الغبار يرتفع عنا وتخف عتمته إلا عندما نعبر نهرًا من حين لآخر . كنا نغمس رءوسنا الساخنة المُغْبرة فى المياه الخضراء ، وعندها يتصاعد منًا للحظة بخار أزرق يشبه البخار الخارج من الفم فى جو شديد البرودة ، لكننا كنا نعود ثانية للاختفاء بعدها بقليل فى الغبار ، يحمى بعضنا البعض من الشمس ، من حرارتها الموزعة علينا بالقسطاس .

ذات يوم سيأتى الليل . كنا معلقين بهذا الأمل . سيصل الليل ونخلد للراحة فى كنفه . همّنا الآن تجاوز النهار ، عبوره . على أى وضع للفرار من الحرارة ومن الشمس ، بعد ذلك سنمسك عن السير . بعد ذلك . ما علينا عمله حاليًا هو عدم التوانى فى بذل الجهد بعد الجهد للسير فى أعقاب الجموع التى تتقدمنا وأمام الكتل البشرية التى تتبعنا .

كان هذا هو شغلنا الشاغل أنا و « ناتاليا » وربما « تانيلو » أيضًا ، أثناء سيرنا بين أفواج الحجاج فى الطريق الرئيسى المؤدى إلى « تاليا » ؛ كنا نريد أن نكون أول الواصلين إلى العذراء ، قبل أن ينفد منها رصيد المعجزات .

لكن « صحة تانيلو » أخذت تتدهور أكثر ، جاءت لحظة لم يكن يريد فيها الاستمرار ، عندما انتفخ لحم قدميه وأدى الانتفاخ إلى انبثاق الدم منهما . أوليناه عنايتنا حتى تحسن ، ومع هذا لم يرد الاستمرار .

« سأبقى جالسًا هنا يومًا أو اثنين ثم أعود بعدهما إلى « زينزونتلا » » ، هذا ما قاله لنا .

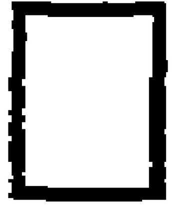
لكننا أبينا . كان بداخلنا شيء منعنا من الإحساس بأى نوع من الشفقة تجاه أيّ « تانيلو » . كنا نريد الوصول به إلى « تالپا » لأن حالته وقتها لم تكن تَنِمّ عن جفاف نبع الحياة به . لهذا كانت « ناتاليا » تستحثه أثناء شطفها لقدميه بمطهر لتخفيف الورم ، كانت تقول له إن شفاءه يتوقف على عذراء « تالپا » . فهى الوحيدة القادرة على إبرائه من آلامه إلى الأبد ، هى دون غيرها ، توجد عذارى أخريات ؛ لكن عذراء « تالپا » تفضلهن جميعًا . هذا ما كانت تقوله « ناتاليا » .

وعندئذ كان « تانيلو » ينخرط فى البكاء بدموع تشق أخدودًا بين عرق وجهه وبعدها يلعن نفسه ويتحسر على حاله . كانت « ناتاليا » تجفف بخمارها دفقات دموعه ، ونُنهضه فيما بيننا من على الأرض لكى يسير .

وهكذا سحبناه سحبًا حتى وصلنا به الى « تاليا » .

فى الأيام الأخيرة نال التعب منا أيضًا ، كنا نحس أنا و« ناتاليا » أن أجسادنا قد انطوت تحت الأعباء الثِّقال ، كأن قوة خفيّة توقفنا لتضع أحمالا باهظة فوقنا . كان « تانيلو » دائم السقوط وكان علينا رفعه من الأرض وحمله أحيانًا على الأكتاف . ربما تسبب هذا فى الحالة التى وصلنا إليها : جسدان خائران ، وَوَهَنٌ يحول بينهما وبين القدرة على المشى، لكن الجموع التى كانت تمضى هناك إلى جوارنا كانت تعجل بسيرنا .

فى الليل كانت تهدأ حركة هذا العالم المندفع قدمًا إلى الأمام . كانت الجذوات المشتعلة المتناثرة فى كل مكان تلمع فى الهواء الطّلق ، وحول ألسنة اللهب تصلى جموع الحجاج وهى عاقفة أذرعتها على شكل صلبان ونظراتها ميممة شطر سماء « تالپا » ، والرياح تأخذ ذلك الحفيف وتردّه ، مُقَلِّبَة له ، حتى تجعل منه هديرًا متوحداً ، بعد ذلك بقليل يبقى كل شىء هامدا ، ومع هذا فعند منتصف الليل تقريبًا كان يتناهى إلى سمعنا صوت بعيد يصلّى ، بعد ذلك تُغْلق العيون وتنتظر دون نوم هجوم صبح اليوم التالى .



دخلنا « تالپا » ونحن نردد صلاة التسابيح .

خرجنا من قريتنا أواسط فبراير ووصلنا إلى « تالپا » فى نهاية مارس أثناء مغادرة أناس كثيرين لها وصلوا قبلنا . تسبب « تانيلو » فى هذا التأخير لإصراره على ممارسة بعض الطقوس المصاحبة لإعلان التوبة . عندما وجد نفسه محاطًا برجال يعلقون أوراق الصبّار الثخينة فى شكل أحجبة ، قرر عمل شىء خاص به ، جالت بخاطره فكرة ربط إحدى قدميه بالأخرى بكُمٍّ قميصه لإعاقة وتعجيز خطواته ، أراد بعد ذلك وضع إكليل من الشوك فوق رأسه . وبعدها مباشرة عصب عينيه ، وبعد ذلك ، فى الجزء الأخير من الطريق ، ارتكز على الأرض وراح يمشى على عظام ركبتيه ويداه معقوفتان خلف ظهره ، وبهذا الشكل وصل الى « تاليا » ذلك الشىء الذى كان أخى ، « تانيلو سانتوس » ؛ ذلك الشىء المُتْرع بالقروح وخيوط الدم الغامقة التى كانت تترك فى الهواء ، عند مروره ، رائحة

حامضة مثل حيوان ميت . وعلى خلاف ما نبغى رأيناه وقد ألقى بنفسه فى خضم الرقصات . غفلنا عنه لنجده هناك ، والصنوج الطويلة فى يده ، يدق الأرض بقدميه الزرقاوين الحافيتين دقات عنيفة . بدا هائجًا بكامله ، كما لو كان ينفض الحمية التى يَدَّخرها بداخله منذ وقت طويل ؛ أو كما لو كان يُخرج ما تبقى فيه من جهد ليتمكن من الحياة مدة أطول قليلا .

ربما تذكر ، عند رؤيته الرقصات ، الأيام الخوالى عندما كان يذهب كل عام إلى « توليمان » ، فى ذكرى موت المسيح ، ويظل يرقص الليلة بكاملها حتى تتفكك أوصاله ، لكن دون أن يناله نَصَب . ربما تذكر هذا وأراد أن يستعيد نشاطه القديم .

رأيناه أنا و« ناتاليا » مدة ليست بالقصيرة ، ثم شاهدناه بعد ذلك يرفع ذراعيه ويجلد جسده بالأرض ، والصنوج لاتزال بيديه وقد غمرها الدم . انتزعناه جراً من هناك ، محاولين حمايته من رفسات أقدام الراقصين ؛ من بين هياج تلك الأقدام التى تتدحرج على الصخور وتثب داعسة الأرض دون الانتباه إلى ما إذا كان هناك شىء قد سقط بينها .

دخلنا به الكنيسة وهو مطوىّ الساقين كالكسيح . جثت « ناتاليا » معه أمام تمثال عذراء « تالپا » المُذَهَّب ، شرع « تانيلو » فى الصلاة وسقطت منه دمعة كبيرة ، خارجة من الأعماق ، وأطفأت الشمعة التى وضعتها « ناتاليا » بين يديه . لم ينتبه لهذا واستمر فى صلاته ، كان يصلى بصوت كالصراخ ليتأكد من أنه يصلى .

لم يفده كل هذا بشىء . لقد مات على أى حال .

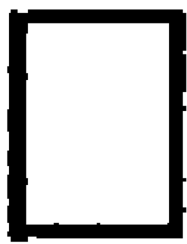
« ... نتضرع إليها أيضا من سويداء قلوبنا ضراعة يُغَلِّفها الألم . استغاثتنا بها مضمخة بالأمل . حنانها يترقرق أمام النحيب والدموع ، لأنها

تقاسى مثلنا . هى قادرة على إزالة هذه الغشاوة لتترك القلب لَدنا نقيًا مهيأ لاستقبال رحمتها وعطفها . عذراؤنا ، أمنا ، التى لايهمها معرفة شيء عن خطايانا ؛ التى تغفر لنا الذنوب ، التى تود لو حملتنا بين ذراعيها لكى تَسْلَم حياتنا ، إنها هنا إلى جوارنا تخفف عنا وتشفينا من أمراض الروح وأوجاع الجسد المكلوم المبتهل . إنها تعرف أن إيماننا يزداد صلابة مع الأيام لأنه يرتكز على التضحية وبذل النفس . . . » .

هذا ما كان يقوله القسيس من على منبر الكنيسة ، وبعد فراغه من حديثه ، أخذ الناس يصلون فى آن واحد ، محدثين صخبًا يماثل صخب جيش من الزنابير أفزعه الدخان .

لكن « تانيلو » لم يسمع ما قاله القسيس . بقى هامدًا ، ورأسه جاثم على ركبتيه . كان ميتًا عندما حرّكته « ناتاليا » لكى ينهض .

فى الخارج كانت تُسمع جلبة الرقصات ؛ الطبول والمزامير ؛ قرعات الأجراس وهاجمنى الحزن حينئذ ، عندما أحسست فى تلك اللحظة نفسها بوجود أشياء كثيرة حولى تنبض بالحياة : ها هى العذراء ، أمامنا مباشرة ، توزّع علينا ابتسامتها ، وهنا إلى جوارى « تانيلو » ، مجرد عائق . أصابنى هذا بالغمّ . لكننا نحن الذين حملناه ليموت هناك . لن أنسى هذا ما حييت .



نحـــن الآن فى « زيـــنزونـــتلا » . عــدنـــا بدونه . ولـم تـــسألنـى أم « ناتاليا » عن شــىء ؛ ولا عما صنعــته بأخى ، أخذت « ناتـاليا » تبكى على صدرها وقصت عليها ما حدث .

بدأت أشــعـر وكـأننا لم نصل لأى مكان ، أننا هنا مــؤقــتًـا ، لكى نستريح ثم نواصل الســـير بعـــد ذلك . لا أدرى إلـى أيـــن ؛ لكن علينا أن نواصل ، لأننـا هـــنا علـــى مقربة من الندم وتأنيب الضمير ومن ذكرى « تانيلو » .

ربما إلى أن يأتى الوقت الــذى يبدأ فيــه كل واحــد منّا الخـوف من الآخـــر . ربمـــا أود أن أقـــول إنـــنا لم نتـــبادل كلـــمــة واحدة منذ مغادرة « تاليا » . ربما يكون جسد « تانيلو » شديد القرب منا نحن الاثنين ، ممددًا على حصــيرة القش ؛ مــغطى من الداخل والخارج بغليــان ذباب أزرق يئز كما لو كان شخيرًا عظيـمًا يتسلل من فمه ؛ من ذلك الفم الذى لم يستطع غلقه بالرغم من محاولات « ناتاليـا » ومحاولاتى ، وكأنه كان يرغب فى التنفس بدون صوت مسمــوع . « تانيلو » الذى لم يعد شىء يؤلمه ، وكان موجوعًا ويداه ورجلاه متقرحتان وعيناه مفتوحتان وكأنهما يطالعان موته . وهنا وهناك تقطر كل قروحه ماءً أصفر ، مُعبّقًا بتلك الرائحة التى تنسكب فى كل اتجاه ويحس بها الفم ، وكأنه يســتطعم عسلا ثخينًا ومُرًا يذوب فى دم الواحد مع كل زفرة هواء .

ربما هذا هو الذى نتذكـره كثيرًا هنا عـــن ذلك « التانيلو » الذى دفناه بأرض « تاليا » المقدسة ؛ الذى أهلْنا عليــه التراب والحجارة حتى لا تنبش مثواه الأخير وحوش الجبل .

" ماكاريو " (MACARIO)

أجلس بجانب القنطرة فى انتظار ظهور الضفادع ، أثناء تناولنا العشاء ، ليلة أمس ، أخذت تصدر صخبًا شديدًا ولم تتوقف عن النقيق إلا بعد طلوع النهار . تُؤَمِّن حاضنتى على هذا أيضًا قائلة إن نقيق الضفادع أطار النوم من عينيها ، وهى تريد الآن الاستغراق فى النوم دون إزعاج ، ومن ثمَّ فقد طلبت منى الجلوس هنا ، إلى جوار القنطرة ، وبيدى لوح من الخشب لكى أضرب به الضفدعة التى تظهر على صفحة الماء وأمزقها شر تمزيق . . . الضفادع نوعان : نوع لونه أخضر بالكامل فيما عدا البطن ، ونوع جبلى أسود . عينا حاضنتى سوداوان أيضًا . الضفادع الخضراء تُؤكل لأن لحمها طيب ؛ أما السوداء فلحمها خبيث ، ومع هذا فقد أكلت الأخيرة أيضًا ، بالرغم من أنها لاتُؤكل ، ووجدت طعمها لايختلف فى شىء عن سابقتها . « فيليبا » هى التى تدّعى بأن لحم الضفادع السوداء سيئ وخبيث ، لـ « فيليبا » عينان خضراوان مثل عيون القطط . هى التى تقدم لى الطعام فى المطبخ عندما يحلّ موعده ، وتريد منى ألا أصيب الضفادع بأذى ، لكن حاضنتى هى التى تأمرنى بفعل هذا وتَرْك ذاك . . . أنا أحب « فيليبا» أكثر من الحاضنة ، لكن الأخيرة هى التى تملك حافظة النقود وتعطى منها « فيليبا » لكى تشترى ما نأكله . يقتصر عمل « فيليبا » على إعداد الطعام

بالمطبخ لثلاثتنا . لا تفعل أكثر من هذا منذ أن عرفتها . أما غسيل الأوانى فيقع على عاتقى ، كما تقع على عاتقى أيضًا مهمة جمع وإحضار الحطب اللازم لإيقاد الفرن . وحاضنتى هى التى تقوم بعد ذلك بتوزيع حصص الطعام علينا . بعد أن تفرغ هى أولا ، تعمل كومتين بيديها : كَوْمة لـ « فيليبا » والأخرى لى . لكن « فيليبا » كثيرا ما تزهد فى الأكل، وعندها أنفرد بالكومتين وحدى . لهذا أحب « فيليبا » ، لأننى أشعر دائمًا بالجوع ولا أشبع قَطّ ، حتى مع أكلى نصيبها . بالرغم من أنهم يرددون أن جوف الواحد يمتلىء عندما يأكل إلا إننى لا أحس بالامتلاء مهما قدموا لى من طعام . و« فيليبا » تعرف هذا أيضًا . فى الشارع يصفوننى بالجنون لأننى لا أشبع أبدًا . سمعت حاضنتى هذا منهم ، أما أنا فلم أسمع شيئًا . لاتتركنى حاضنتى أخرج وحدى إلى الشارع . لا تُخرجنى إلا للذهاب إلى الكنيسة لسماع القدّاس ؛ وهناك تجلسنى إلى جوارها وتربط يدى بطرف خمارها . لا أدرى سببا لربطها يدىّ ، لكنها تقول حتى لا أتشيطن وآتى بأفعال مرعجة ، أدّعوا ذات يوم أننى حاولت خنق شخص ما ؛ أننى طوّقت بيدىّ عنق سيدة وحاولت خنقها دون سبب . لا أتذكر هذا ، لكن حاضنتى هى التى تقول إننى أفعل كل هذا ،وهى لا تكذب. عندما تنادى علىّ لآكل ، تصدق وتعطينى نصيبى من الطعام ، على خلاف أناس آخرين يدعوننى للأكل معهم ولما أقترب يمطروننى بوابل من الحجارة فأطلق ساقى للريح دون أن أتبلّغ لا بطعام ولا بغيره ، لكن حاضنتى تعاملنى معاملة حسنة . لهذا أنا مسرور فى دارها. هذا بالإضافة لإقامة « فيليبا » معنا ، وأنا أحبها

لأنهـا صديـقة ودودة . . . . لبن « فـيليـبا » حلـو المذاق مثـل زهـور « الأوبيليسك » . شربت لبن الماعز ولبن الخنزيرات حديثة العهد بالولادة ، لكنهما لا يضـارعان لبن « فيليبا » حلاوة . . . منذ أمد بـعيد وهى تسمح لى بامـتصاص ثدييـها اللذين يخـرجان لبنًا أشـهى من اللبن الذى تقـدمه حاضنتى فى غذاء أيام الآحاد . . . من قـبل كانت تأتى كل ليلة إلى غرفة نومى وتـستلقى علىّ أو إلى جـوارى ثم تبـحث عن الوضع الأمـثل لكى أستطيع تلقى ذلك اللبن الدافئ الحلو الذى يتدفق من الحلمتين . . . أكلت أزهار « الأوبيليسك » مرات كثيـرة لأشغل الجوع عنى. كان للبن « فيليبا » الطعم نفـسه ، لكننى كنت أحـبه أكـثر لأنهـا كانت تدغدغ كـل جزء من جسـدى أثناء اسـتقبـالى له من ثدييهـا . كانت تخلد بعـد ذلك إلى النوم بجوارى حتى انبلاج الصباح. كان هذا ذا نفع كـبير لى : فهو - من جهة - يطرد البرد عنى ويجعلنى أنعم بالدفء ؛ ومن جهة أخرى ، يحول بينى وبين الفكرة المسيطرة على ذهنى ومفادها أننى سأدخل النار لامحالة إذا مت وحيداً فى غرفتى . . . فى بعض الأحيـان لا يعترينى خوف من الجحيم ، وأحيانا أخرى أرتعـد فَرَقا منه . بعـد ذلك أشعر بلذة فى تخـويف نفسى بفكرة ذهابى المؤكد إلى الجـحيم يومًا ما ، لأن رأسى فى غـاية الصلابة ، لولهى ، بنطح أول شىء أجده أمامى ، لكن « فـيليبا » كانت تأتى وتطرد مخاوفى . تدغدغنى بيديها الخـبيرتين وتفصل بينى وبين فكرة الموت الملحة إلى أن أنساها تمامًا بعد مضى وقت قصير . . . تقول « فيليبا » لى، عندما تكون لديها الرغبة فى البقاء معى ، إنها ستعترف للربّ بكل ذنوبى، وأنها سترتقى فى التّـو إلى السماء وتتوسل إلى الرب لكى يـطهرنى من الخبث

الجمّ الذى يطوق جسـدى من أعلاه إلى أسفله. ستطلب منه المغفرة حتى أنام قرير العين ، لهذا فهى تعترف كل يوم ، لا لأنها سيئة بل لأن جوانحى تعج بالشياطين ومن الضرورى إخراج هذه الأرواح الشريرة من جسدى باعترافها نيابة عنى. كل يوم ، مساء كل يوم ، وستظل تسدى إلىّ هذا المعروف طيلة حياتها ، هذا ما تقوله « فيليبا » . لهذا أحبها كثيراً . . . وبالرغم من هذا ، فكل ما تقدم يهون بالمقارنة بحكاية شدة صلابة الرأس وتحجرها ، يظل الواحد ساعات وساعات ينطح عواميد الممر بمقدمة رأسه ولاتُصاب الرأس بأذى ، تتحمل ولاتتهشم ، ويسدد النطحات إلى الأرض، بخفّة فى البداية وبقوّة بعد ذلك ، حتى يجعلها ترنّ كالطبلة . مثل الطبلة المصاحبة للناى ، عندما يأتى الناى للاحتفال بالرّب ، وعندئذ يسمع الواحد ، فى الكنيسة وهو مشدود إلى حاضنته ، قرعات الطبلة وهى ترنّ فى الخارج « توم » « توم » . . . تقول حاضنتى إننى سأتلظى بنار جهنم إذا استمر هوسى بنطح الأرض ، وتواجد البقّ والصراصير والعقارب فى حجرتى خير شاهد على هذا المصير المحتوم، لكن ما أريده هو سماع صوت الطبلة ، عليها أن تدرك هذا ، سماعها ، مثلما يكون الواحد فى الكنيسة ، منتظراً خروجه الوشيك إلى الشارع ليري كيف يُسمع صوت تلك الطبلة من مسافة بعيدة وكيف يملأ فى الوقت نفسه الكنيسة من الداخل ويغطى على إدانات القسيس . . . «طريق الأعمال الصالحة يشع بالضياء ، وطريق الأعمال الطالحة تسوده الظُلمة» . هذا ما يقوله القسّ . . . أنا أنهض وأخرج من غرفتى والظلام لا يزال مُطبقًا ، أكنس الشارع وأعود ثانية إلى غرفتى

قبل أن يمسك ضود النهــار بتلابيبى . فى الشارع تحـدث أشياء كثيرة . لا يعدم الواحد من يتطوعون بشجّ رأسه بمجرد أن يروه ، تنهمر حجارة كبيرة ومدببة من كل اتجاه وبعدها يلزم رتُق القميص والانتظار لأيام طويلة حتى تلتئم السجحات بالوجه أو الركبتين . ويتحمل الواحد ثانية تقييد يديه حتى لا تنتزع الضمادات ويعود الدم للانبـثاق من جديد . الدم أيضا مزاقه حلو برغم اخـتلافـه عن طعم لبن « فيليـپا » . . . لأجل هذا (تفـادى الرمى بالحجارة) لا أبرح الدار بتاتا ، وبمجرد أن يقدموا لى الطعام وألتهمه أدخل غرفـتى وأغلق بابها جيـداً بالمزلاج حتي لا تفتـرسنى الآثام متنهزة فـرصة حلول الظلام . ومع هذا لا أوقـد المصباح لأرى المكان الذى تتـسلقنى منه الصراصير وتتبختر فوقى .

أنام على جانبى ، وعندما أحس بالأرجل الخادشة لأى صرصار فوق عنقى أفعـصه بصفــعــة واحدة من يدى ، لكننى لا أضيىء المصباح لكى لا تهتدى إلىّ الآثام وأنا أفتش به عن الصراصير المختبئة تحت غطائى . . . ترعــد الصراصــير كالعبــوة النـاسفة عندما يمزق الواحــد أحشــاءهــا . لا أدرى ما إذا كانت الجداجد الليلية تُصدر الصوت نفسه أيضًا . لم أجرِّب قتـــل الجداجد من قـبل . تقول « فـيليپـا » إن الجداجد تصــدر صخـبا مســتــمراً ، دون أن تتــوقــف أو تعطى لنفســها فرصة للتنفس ، لتغطى على الصــرخــات العــالية للأرواح التـــى تتطهر فى الســمــاء من آثامهــا الدنيوية . وعندمــا يأتى اليوم الذى تتلاشى فيــه الجداجد سيمـتلىء العالم بصرخــات وتوجعات الأرواح العلوية وسيـطلق الجميع ، عندئذ ، ساقـيه للـريح من شـــدة الهـلع . وعـــلاوة على مـــا تقـــدم ، يروقـنى

كثيراً إصاخة السمع لهـدير الجداجد التى تغصّ بها حجرتى . من المحتمل إن عدد الجداجد الموجودة هنا ، بين ثنايا الدعائم الخشبية التى أرقد فوقها، يفوق بكثير عدد الصراصير . توجد أيضا عقارب ، تتساقط فى كل آن من السقف وعلى الواحد أن يكتم أنفاسه حـتى تستكمل مشوارها فوقه وتصل إلى الأرض ، فلو حرّك الواحد ذراعه أو بدأت ضلوعه ترتجف سيشعر فى الحال بحرقـان اللدغة ، وهذا يؤلـم . ذات مرة ، لدغت عقربة « فـيليپا » فى مؤخرتها . أخذت تبكى وتوجهت بصراخ مسترسل مكتوم إلى العذراء البتول متـوسلة الإبقاء على مؤخرتها . دَهَنْتُ لهـا مكان اللدغة بلعابى ، أمضيت اللـيلة بطولها أدهن لها برضابى وأصلّى من أجلـها ، إلى أن جاء وقت تأكـدت فيـه أننى لم أخفف عنهـا شيـئًا بعـلاجى ، وعندئذ أخذت أساعـدها بدمـوع عينىّ قـدر ما استطعت . . . على أية حال ، أنـا أجد راحتى أكثر فى غرفتى عن الظهور فى الشارع لافتا انتباه محبى ضرب خلق الله . أنا هنا بمنأى عـن الأذى . فحـاضنتى لاتعـنفـنى لأكـلى زهور « الأوبيليسك » أو الرياحين أو أشـجار الرمـان الموجـودة فى بيـتـها ، لأنهـا تعرف شهيتى المفتـوحة دائمًا لـلطعام ، وتعـرف ملازمـة الجـوع لى ، وعـدم كـفـاية أية كـمـيـة من الطـعـام لسدّ رمـقـى بالرغم من ازدرادى كل لحظة أشـياء من هنا ومن هناك . وهى تعرف أيضًا أننى ألتهم الحمص المنـقـوع بـدلاً من تقـديمـه للخنـازير السـمينة والذرة الجـافة التى يجـب علـىّ تقـديمـها للخنازير العجفاء . وهكذا فهى تدرك جيداً فـداحـة الجـوع الذى يصاحـبنى مـنـذ أن أُصبح إلى أن أُمسى ، ولذا لن أبرح مكانى طالما وجدت فى البـيت الذى يأوينى طعاما أَطْعَمُه ، ذلك لأنى أعتقد أن اليوم الذى ينأى فيه الطعام عنى سيشهد خاتمتى ، وساعتها سـأذهب إلى الجـحـيـم بكل تأكـيـد . ومـن هناك لن يسـتـطيع

أحد إنقاذى من أُتونه ، ولاحتى « فيليبا » بالرغم من حدبها وعطفها علىّ ، ولا الحجاب الذى أهدته لى حاضنتى وأحمله متدليًا من عنقى . . . أنا الآن بجانب القنطرة أنتظر خروج الضفادع على صفحة الماء ، ولم تظهر ضفدعة واحدة طيلة هذا الوقت الذى أتكلم فيه وأتحدث عن نفسى .

لو تأخرت عن هذا فى الظهور ربما أروح فى إغفاءة ، وعندها لن تجد من يقتلها وسيخاصم النوم عينى حاضنتى لسماعها صخبهم ، وسيتملكها الغضب . ستطلب عندئذ من طابور القديسين الموجود بحجرتها إطلاق الشياطين من عقالها وإرسالهم إلىّ ليقتادونى جرًا إلى الجحيم السرمدى ، مباشرة ، دون التعريج على المكان المخصص للتطهر من الذنوب قبل حساب يوم القيامة ، وعندها لن أتمكن من رؤية أبى ولا أمى الموجودين دون شك فى ذلك المكان . . . من الأفضل إذن الاستمرار فى الحديث . . . تتملكنى رغبة عارمة فى العودة للتذود ببعض جرعات من لبن « فيليپا » ، من ذلك اللبن اللذيذ والحلو مثل العسل الذى يخرج من تحت زهور « الأوبيليسك » .

السهل يحترق

« قتلوا الكلبة ،
لكن مازال صغارها أحياء . . . » .
(مقطع من أغنية شعبية)

« يعيش " بيترونيلو فلورس " ! » .

ارتطمت الصيحة بالحوائط الضخمة للوهدة وصعدت قفزاً إلى حيث نوجد . تلاشت بعد ذلك .

لبرهة ، حملت إلينا الرياح التى تهب من تحت جلبة أصوات مُتكَوِّمة ، محدثة صخبًا يماثل ما تحدثه مياه الفيضان عند جريانها على أرض مليئة بالحصى .

تبعتها صيحة أخرى ، خارجة من المكان نفسه هناك ، تلوَّت على منعطف الوهدة ثم تسلقت الحوائط الضخمة ووصلت إلى جوارنا بكامل قوتها :

« يعيش الجنرال " بيترونيلو فلورس " ! » .

نظرنا إلى بعضنا .

نهض " لاپيـراً " متثـاقلا ، سـحب الخرطوش من خـزانة بندقيـته وحفظه في جيب سترته ، دنا بعد ذلك من مكان « الأربعة » وقال لهم :

« أتبعوني ، أيها الفتيان ، لنبـحث عما نصارعه من ثيران !» . تبعه الإخوة " بينابيـدس " الأربعة ، منحني الرءوس ؛ " لاپيراً " وحـده كان يمضي منتـصب القامـة ونصـف جسده النحـيف يظهـر من فوق السـور الحجري .

ظللنا ، نحن ، في موضعنا هناك ، بلا حراك . كنا مرصوصين على حافة البـساط العشبي الأخضـر مستلقين على ظهورنا وبطوننا نحـو السماء مثل سلاحف تستدفئ بحرارة الشمس .

كان السور الحجري يشتد تعرجه عند صعوده الأكَمات وهبوطه منها ، ومعـه كان يتلوى أيضًا " لاپيـراً " بصحبة الأربعـة وكأن أقدامـهم مطوقة بسلاسل .

هكذا رأيناهم وهم يختـفون عن أعيننا . أعدنا وجـوهنا لنتطلع ثانية إلى أعلى ، إلى شجـيرات " الأمولس " * التي تنعم علينا بظلها المتهرئ المتواضع . كـان الجو مُـعَبّـقًا بمزيج من رائحـة الظل الساخن بفـعل حرارة الشـمس ورائحة شـجـيرات " الأمـولس " المتعـفنة ؛ وفي الهـواء يتناثر الإحساس بنعاس القيلولة .

كانت الجلبـة القادمـة من هناك ، تحت ، تتصاعـد طوال الوقت من الوهدة وتهز أجسادنا بعنف لتطير منها النوم .

---

* " الأمولس " (Amoles) : أشجار مختلفة الأنواع تستخدم بصيلاتها كصابون للغسيل . (المترجم)

وبالرغم من أننا كنا متحرقين شوقًا لتمييز الأصوات ، مرهفين السمع ، فلم يكن يصل إلينا سوى الصَّخب : دوّامة من الهمهمات مثلما يُسمع من بعيد الحفيف الذى تحدثه عربات الكارّو عند مرورها بعطنة مسدودة مليئة بالحجارة . دوّى ، فجأة ، صوت عيار نارى . رجّعت الوهدة صداه كما لو كانت تتساقط .

أيقظ هذا ما حولنا : طارت عصافير " توتوشيلوس" ، تلك العصافير الملونة التى كنا نشاهدها تمرح بين أشجار " الأمولس" . وفى الحال استيقظت أيضًا الباغات من سبات القيلولة وملأت الأرض بصريرها .

– ما هذا ؟ – سأل " پدرو ثامورا " ، ووَسَن القيلولة مازال يثقل جفنيه . عندئذ نهض " تشيويلا " ، مجرجرًا بندقيته كما لو كانت غصن شجرة ، وترجَّل فى إثر من ذهبوا .

– سأذهب لأستكشف ما حدث – قال وهو يختفى مثل الذين سبقوه .

تعالى صرير الباغات حتى أصابنا بالصمم ولم ننتبه للساعة التى ظهروا فيها هناك ، وعلى خلاف ما نشتهى وجدناهم أمامنا مباشرة وقد جُرِّدوا مما كانوا يحملون ، بدوا وكأنهم على سفر ، فى أبهى الحلل ، كما لو كانوا متهيئين لنوازل أخريات غير هذه النازلة التى أطبقت عليهم الآن .

عدنا أدراجنا وأخذنا نرقبهم من فتحات المزاغل .

مرّ المتقدمون وتبعهم آخرون ثم آخرون غيرهم ، بأجساد منحنية إلى الأمام ، مُتعبين من النعاس ، كانت وجوههم تلمع بالعرق كما لو كانوا قد غمسوها فى الماء أثناء اجتيازهم النهر .

تابعوا المرور .

جاءت الإشارة . سُمع صفير مسترسل وبدأ تبادل إطلاق النار بعيداً هناك ، حيث ذهب " لاپيرا " .

استمر إطلاق النار بعد ذلك هنا .

كانت المهمة فى غاية السهولة . فقد كانوا يسدون بأجسادهم فتحات المزاغل ، تقريبًا ، وكان هذا مثل التصويب عن كثب وجعلهم يغادرون الحياة إلى الموت فجأة دون أن يشعروا تقريبا بذلك .

استمر هذا وقتًا قصيراً . كالوقت المنصرم بين طلقة وأخرى . وسرعان ما خلت فتحات المزاغل التى تكفى إطلالة واحدة منها لرؤية من كانوا منحنين وقد تكوّروا على الأرض وكأن أحدا مازال يطلق الرصاص عليهم هناك ، اختفى من كتبت له النجاة . ظهروا ثانية ، لكن فى مكان آخر .

أمسكنا عن إطلاق الدفعة الثانية من الرصاص .

صاح أحدنا : « يعيش " بدرو ثامورا " ! »

جاءت الإجابة من الجانب الآخر ، بصوت كالهمس : الغوث يا إلهى ! الغوث ! النجدة ياقديس " أتوتشا ! " .

مرّت الطيور . عبرت الأفق فوقنا ، متجهة نحو الربّى ، أفواج السُّمّان .

جاءنا الإطلاق الثالث للنار من الخلف . صدر منهم ، وجعلنا نثب إلى الجهة المقابلة من السور متخطين القتلى الذين قتلناهم .

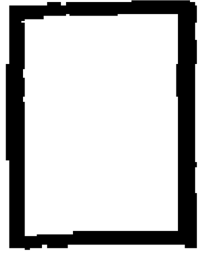
بدأ بعد ذلك مشوار الفرار بين الأحراج .

كنا نحس بالرصاص يزمجر فى أعقابنا ، كما لو أننا سقطنا فوق أعشاش اليعاسيب ، ومن حين لآخر ، وكل مرة أكثر تواصلا من سابقتها ، يستقر الرصاص فى منتصف واحد منّا فيهوى على الأرض وعظامه تطقطق .

عدونا ، وصلنا إلى حافة الوهدة وتدلينا من هناك وكأننا نتساقط .

واصلوا إطلاق الرصاص . استمروا فى الضرب حتى بعد أن صعدنا - على أيدينا وأرجلنا - إلى الجانب الآخر ، مثل زبازب أفزعها اللهب .

« عاش الجنرال " بيترونيلو فلورس " ، يا أولاد . . . ! » ، وصلتنا صيحاتهم مرة أخرى ، صيحات كالرعود تقافزت نحو قاع الوهدة .



انحنينا خلف الحجارة الضخمة المستديرة التى وصلنا إليها وأنفاسنا متقطعة من شدة الرّكض ، كنا ننظر وحسب إلى " پدرو ثامورا " مستفسرين بعيوننا عما جرى .

لكنه كان ينظر إلينا أيضًا دون أن يفتح فمه ، كأن الكلام قد نفد من الجميع ، أو كأن ألسنتنا قد انعقدت مثل البغاوات" البيروكس" ويشق علينا فك عقدتها لتتفوه بكلمة .

ظل " يدرو ثامورا " ينظر إلينا . كان يعدّنا بعينيه ؛ بهاتين العينين المحمرتين بكاملهما وكأنهما لاتنطبقان أبدا ، كان يعدنا واحدًا واحدًا . كان يعرف عدد من كانوا هناك ، لكن بدا وكأنه ليس متأكدًا ؛ لذلك كان يكرر العدّ مرات ومرات .

ينقص البعض : أحد عشر أو اثنا عشر رجلا ، دون عدّ " لاييرا " و " تشيويلا" ومن رافقوهما ، يحتمل أن يكون " تشيويلا " قد ارتقى غصن شجرة وتمدد فوق بندقيته منتظرًا انسحاب القوات الحكومية .

كان " لوس خوسيسوس " ، ولدا " لاييرا " ، هما أول من رفعا رأسيهما ثم جسديهما بعد ذلك . راحا ينتقلان من موضع إلى آخر منتظرين سماع شيء من " يدرو ثامورا " . قال :

- هجوم آخر مثل هذا وسيفنوننا عن بكرة أبينا .

تحرك بلعومه ، في التوّ ، وكأنه يبتلع ملء الفم شجاعة ليصيح فيهما : « أعرف أن أباكما لم يعد ، لكن اصبرا ، تحملا قليلا ، وسنبحث عنه » .

دوّت طلقة صادرة من هناك ، طار على إثرها سرب من العصافير على السفح المواجه لنا ، اتجهت العصافير نحو الوهدة وظلت تخفق بأجنحتها إلى أن اقتربت منا ؛ وعندما رأتنا أصابها الهلع فاستدرات متألقة بأشعة الشمس وعادت لتملأ بالصياح أشجار السفح قبالتنا .

رجـع " لوس خوسيسـوس" إلى مكانهما السابق وأقعيا فى صمت .

ظـللنا هكذا طيلة ما تبقى من النهـار . عندما جـنّ الليـل وصـل "تشيويلا" وبرفقته واحد من « الأربعـة » . أخبرانا أنهما قادمان من هناك تحت ، من عند " لاپيدرا ليسـا " ، لكنهما لـم يستطيـعا إفادتنا بشىء عن القوات الحكومية : هل انسحبت أم بقيت متربّصة هناك ؟ مما لاشك فيه أن الهدوء يُطبـق على المكان ، ومن حين لآخر ، كان يُسمع عواء الذئاب .

- أنت يا " بيـتشون " ! - نادى علىّ " پـدرو ثامورا " - . أوكل إليك ، أنت و " لوس خوسيوس" ، مهـمة الذهاب إلى "لابيدرا ليسا " للبحث عن " لاپيرا " . لو عثرتم عليـه مقتولاً ، ادفنوه . عليكم بفعل الشىء نفسه مع الآخرين . أما الجـرحى فاتركوهم فوق شىء مـرتفع حتى يراهم الهنود (الحمر) ؛ لكن لاتحضروا أحداً منهم .

- هذا ما سنفعله .

وذهبنا .

كانت الذئاب تعوى على مـقربة منا عندما وصلنا إلى الاصطبل الذى تركنا فيه خيولنا .

الآن لاتوجد خيول ، بل حمار ضامر فحسب كان يعيش بالمكان قبل مجيئنا ، لابد وأن الـقوات الحكوميـة قد اسـتولت على مـا خلفناه وراء ظهورنا من خيول . عثرنا على بقـية « الأربعة » خلف بعض الشجيرات ،

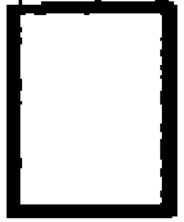
الثلاثة معا ، الواحد منهم فوق الآخر وكأنهم كوّموهم هناك ، رفعنا رءوسهم وهززناها قليلا لنرى ما إذا كانت بأحدهم حياة ؛ لكنهم كانوا ميتين موتًا لا مراء فيه . وعلى حافة النهر وجدنا آخر وأضلاعه تطل من جلده وكأنهم أجهزوا عليه بالسيوف . مسحنا البقعة الغاصة بالأعشاب من أعلاها إلى أدناها وعثرنا على آخرين ، واحد هنا وآخر هناك ، أغلبهم داكن الوجه .

– لقد قتلوا هؤلاء غيلة – قال واحد من " لوس خوسيوس " .

تفرغنا بعد ذلك للبحث عن " لاييراً " ولم نحفل بغيره .

لا أثر له .

« لابد وأنهم حملوه – قلنا لأنفسنا – . أخذوه معهم ليعرضوه على الحكومة » ؛ ومع هذا ظللنا نفتش عنه فى كل مكان ، بين القش . لم تكف الذئاب عن العواء ، ظلت تعوى طيلة الليل .

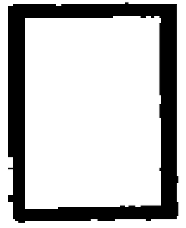


بعد أيام قليلة ، فى " أرميريّا " ، عند عبورنا النهر ، التقينا من جديد بقوات " بيترونيلو فلورس" . حاولنا التقهقر ، لكن بعد فوات الأوان ، كان مثل الإعدام رميًا بالرصاص ، أنطلق" پدرو ثامورا " أمامنا هامزًا ذلك الجواد المبرقش الربّعة الذى لم أرَ مثيلا له طيلة

حياتى . تبعناه ، زُرافات ، منحنين على رقاب الخيول . كانت مذبحة عظيمة ، بكل المقاييس ، لا أعى تفاصيل ما حدث لأننى غصت فى قاع النهر وفوقى حصانى المقتول ، وجرفنا التيار بعيداً ، نحن الاثنين ، حتى أوصلنا إلى مكان ضحل غاصّ بالرمال .

كانت تلك هى المواجهة الأخيرة لنا مع قوات " بيترونيلو فلورس " . لم نقاتل بعد ذلك . ولتحرى الدقة أقول إننا لا نقاتل منذ زمن طويل ، بل نحاول الخلاص بأجسادنا ، ولذلك قررنا العودة بما تبقى من رجال إلى التلّ للاحتماء به والفرار من المطاردة . أصبحنا فى نهاية المطاف شرازم قليلة لإيهابها أحد ، لم يعد الآن لمثل هذا المشهد وجود : واحد يجرى مذعوراً وهو يصيح « احترسوا ، رجال " ثامورا قادمون " .

لقد عاد السلام ليرفرف بجناحيه على السهل الكبير .



لكن لن يستمر هذا لوقت طويل .

مضى ما يقرب من الثمانية أشهر ونحن محتمون بمخبأ وادى « توثين » الضيق العميق ، حيث يتعثر نهر " أرميريّا " لساعات عديدة قبل أن يهوى مرتطمًا بشطآنه . ظللنا ننتظر مرور الأعوام لنعود إلى العالم بعد ذلك ، عندما ينسانا الناس . أخذنا نربى الدواجن

ونصعد الجبل من حين لآخر بحثًا عن الوعول . كنا خمسة ، تقريبا أربعة، لأن واحدًا من " لوس خوسيوس" أمسكت بساقه غرغرينة من جرّاء الطلقة التى أصابوه بها أسفل مؤخرته ، عندما هاجمونا من الخلف .

كنا هناك ، حيث بدأ الإحساس بعدم الفائدة يتسلل إلى قلوبنا ، ولو لم نكن متأكدين من تعليقهم لنا على أعواد المشانق لسلمنا أنفسنا واسترحنا ، وبينما نحن على هذه الحال ، ظهر المدعو " أرمانثيو ألكالا " ، ساعى بريد " " پدرو ثامورا " " .

عند انبلاج الصباح ، ونحن نتهيأ لتقطيع أوصال إحدى البقرات ، سمعنا صغير القرن ، كان قادمًا من مسافة بعيدة للغاية ، باتجاه السهل . سمعناه ثانية بعد مرور وقت قصير ، كان مثل خوار الثور : حاد فى البداية ، أجش بعد ذلك ، ثم حادًا مرة أخرى ، كان الصدى يُرَجِّعَه ويطيله أكثر وأكثر ويقذف به إلى جوارنا هنا ، إلى أن يخمده فى النهاية خرير النهر .

كانت الشمس على وشك البزوغ عندما استبان " ألكالا" هذا وظهر من بين نباتات العرعر .

كان يضع على محفّة ذات عجلتين خراطيش عيار « ٤٤ » وعلى متن جواده يحمل بالعرض حقيبة محشوة بالبنادق .

ترجّل من على فرسه ، ووزّع علينا البنادق ثم أغلق الحقيبة على الباقى منها .

- إذا لم يكن لديكم ما تفعلونه من اليوم إلى الغد ، فعليكم بالتهيؤ للرحيل إلى « سان بوينا بينتورا » . « پدرو ثامورا » ينتظركم هناك . وحتى تكملوا استعداداتكم سأترككم للبحث قريبًا من هنا عن عائلة « زاناتس » . سأعود بعد ذلك .

عاد في اليوم التالي قبيل الغروب . بالفعل ، كانت عائلة « زاناتس » معه ، كانت وجوههم تلمع بالدكنة بين ألوان الغروب الرمادية . كان يرافقهم ثلاثة لا نعرفهم .

- سنحصل على جياد في الطريق - قال لنا .

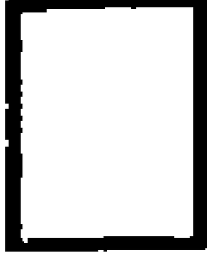
وتبعناه .

قبل الوصول إلى « سان بوينا بينتورا » بكثير شاهدنا أكواخ مربي الماشية وهي تحترق ، كانت ألسنة اللهب تتصاعد عاليًا من عنابر الغلال كما لو كانت النار قد أُضرمت في مستنقعات زيت سريع الاشتعال ، كانت الشرارات تتطاير وتنعقد في ظلمة السماء مشكلة سحبًا كبيرة مضيئة .

واصلنا تقدمنا ، مهتدين بأضواء « سان بوينا بينتورا » ، كما لو أن يدًا خفية تدفعنا إلى هناك لتقضي على من بقي منا .

قابلنا على مشارف المدينة فرسانًا يأتون خببًا على صهوات خيول شُدَّت إلى مقدمة سروجها حبال ؛ بعضها يجرجر رجالا مقيدين يحاولون متابعة الخيول على أيديهم ، والبعض الآخر يجرجر رجالا سقطت أيديهم إلى جوارهم ورءوسهم متدلية . شاهدناهم يمرون . تبعهم بعد ذلك « پدرو ثامورا » وخلق كثير على ظهور الجياد ، أناس كثيرون لم نعهد لكثرتهم مثيلا من قبل . تملكنا الحبور .

من لا يتملكه السرور وهو يتخيل اجتياز تلك الصفوف للسهل الكبير مرة أخـرى ، كمـا كان يحـدث فى الأزمان الهـائنة الغـابرة ! ومن ينسى البداية ! عندمـا انشقت الأرض عنا مثل زهور المناطق الحارة الناضـجة وقد أذرتها الرياح لتـشيع الرعب فى كل الأرجاء المحيطة بالسـهل . مضى زمن كنا فيه هكذا ويبدو أنه يعود من جديد .



نزلنا كـالصاعقـة علىّ « سان پدرو » . أضـرمنا فيـها النيـران ولينا وجوهنا شطر « پيتكال » .

جرى هذا ومـحصول الذرة على وشك الحـصاد وأعواده تـنثنى بفعل الرياح التى تهب على السهل فى ذلك الوقت مـن العام . وهكذا كان من دواعى السرور رؤية النيران وهى تمرح بين مراعى الخيول ؛ رؤية السهل وقد تحول معظمه إلى جذوة خالصة والدخان يتلوى فوقها ؛ ذلك الدخان الذى يتضوع برائحـة العسل والقصب ، ذلك لأن اللهب كان قد امـتد أيضًا إلى مزارع القصب .

ومن بين الدخان كنا نخرج ، كالأشباح ، والوجوه يعلوها الهباب ، نسوق أمـامنا قطعان الماشـية من هنا وهناك ونجمـعها فى مـكان ما ونسلخ جلودها بعد ذبحها ، تلك كانت تجارتنا : جلود الماشية .

هذا لأن « پدرو ثامـورا » قـال لنا : « سنمـول هذه الثـورة بأمـوال الأغنياء ، سيـغطون بأموالهم ثمن السلاح ونفقـات هذه الثورة ، وبالرغم من أننا نفتـقر حتى الآن لراية وشـعار نحارب من أجلهـما ، إلا أنه يجب علينا الإسراع فى جمع ما تصل إليه أيدينا من أموال ، لكى نكون على أتم الاستعداد عندما تأتى قوات الحكومة » . هذا ما قاله لنا .

وعندما عادت قوات الحكومة أخيـراً أخذت تنزل بنا الإصابات كسابق عهدها ، وإن لم يكن بالـسهولة نفسهـا . يُرى الآن من عدة فراسخ أنهم يهابوننا .

لكن الخوف منهم كان يتملكنا أيضـا . كان من السهل ملاحظة كيف كانت حلوقنا تغص بأرواحنا بمجرد سمـاع الجلبة التى تحدثها تشكيلاتهم أو سمـاع حوافر جـيادهم وهى تركض فـوق حجارة أى طريق حـيث نكمن للإيقاع بهم . عند رؤيتـهم وهم يمرون أمامنا ، كان ينتابنا إحـساس بأنهم ينظرون بطرف خفـى إلينا وكأنهم يقولون لنا : « رائحـتكم تزكم أنوفنا ، وما نفعله ليس إلا مناورة ومداراة » .

وكثيـراً ما كان يصدق هذا الإحـساس ، فبمجـرد أن نبدأ فى إطلاق النار عليهم نجدهم استلقوا على الأرض ، متترسين بخيولهم ويقاوموننا من مـوضـعـهم ، إلى أن يضـرب آخـرون حـولنا الحـصـار دون أن نشـعـر

بهم ، ويتلقفوننا مـثل دجاج محبوس بالحظائر . أدركنا من وقـتها أننا لن نستمر طويلا على هذا المنوال مهما كانت كثرتنا .

هذا لأن من نواجهـهم الآن من رجـال ليسـوا كـرجال الجنرال « أوربانو » الذين أرسلوهم إلـينا فى البدايـة وكانوا يفـزعـون من مجـرد الصياح والتلويح بالقبعات ؛ أولئك الرجال الذين أُخرجوا من ديارهم قسراً ليحـاربونا وكـانوا لايجـرءون علي مـهاجمـتنا إلا إذا تأكـدوا من قـلة عددنا . لقد فـنى هـؤلاء ولـم يعـد لهم أثر ، جاء بعدهم آخرون فـى منتـهى السـوء . الآن يقـودهم « أولاتشـيا » ومـعه أنـاس مـتمـرسون يمتـازون بالصـبر والتـحـمل ؛ علاوة علـى رجال ذوى بأس جـاءوا من « تيوكـالتيـتشى » مُطَعَّمين بهـنود « تيبهـوانس » : هنود شـعث الرءوس ، معتادين على الصـيام لعدة أيام وبإمكانهم فتح عيونـهم ساعات كاملة دون أن تطرف للتـجسس على الواحـد ، منتظرين ظهور رأسـه ليسـكنوا فيـها إحدى رصاصات عيار « ٣٠ × ٣٠ » الطويلة التى تهشم المخ وكأنها تحطم غصنًا متعفنًا .

ودون الحاجة إلى تعليل يمكن القول إن الانقـضاض على أكواخ مربى القطعان كان أسهل بكثير من عمل الكمائن للقوات الحكومية . لهذا السبب تفرقنا ، وبزمرة من الأفراد هنا وأخرى هناك أنزلنا بهم أضراراً لم يسبق لها مثيل . لم نكن نسـتقر أبدًا فى مكان بل نهرول من مـوضع لآخر مسلمين أقدامنا للريح مثل بغال سريعة العدو .

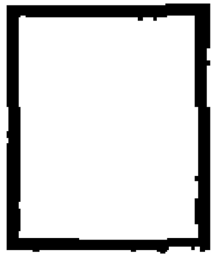
وهكذا ، فبـينما كان بعضنـا يشعل الحرائق فى بيوت وأكـواخ مربى القطعـان فى « خـاثمـين » ، كنا نسـقط كـالدواهى على ثكـنات الجند

ونحن نجرجر أفرع الشجر لإيهـام الناس بكثرتنا ، ومتخفين بين مانثيره من غبار وصياح .

كانت المباغتة من نصيبنا ، ولجنودهم الترقب والانتظار .

قـضينا زمـنًا ونحن ننتـقل من مكان لآخـر ، إمّا إلى الأمـام أو إلى الخلف ، كالمتأرجحين . من هنا كانت تُرى النيران المضرمة بالجبل ، حرائق ضخـمة كمـا لو كانت النيران قـد أمسكت بالأرض الفـضاء . من هنا كنا نشـاهد ألسنة اللهب وهى تتـصـاعـد طوال الوقت من الحظائر والأكـواخ وأحيانا من القـرى الكبيرة مثل « توثاميليا » و « ثايوتيـتلان » وتحيل الليل إلى نهار ساطع ، كان رجال « أولاتشيـا » يغادرون ثكناتهم ويغزون السير فى اتجاه تلك الحرائق ، وعندما يصلون إليهـا ، يشاهدون « تولوليمسپا » وهى تحترق خلفهم .

كان مشـهدًا يبعث على السـرور : مغادرة الأوكار فجـأة بعد انطلاق الجند المتحـمسين للقتال ، ورؤيـتهم وهم يجتازون السـهل الخاوى ، دون عدو يواجـهونه ، وكأن البـحر السحـيق بلا قرار ، ذلك السهل المحـفوف بالجبال كالحدوة الكبيرة ، قد انشق وابتلعه .



حرقنا « كواستيكوماتى » واستمتعنا هناك بمشاهدة ما تبقى فيها من رجال وهم يُقتلون على شاكلة الثيران فى حلبات المصارعة . كان « پدرو ثامورا » شديد الولع بلعبة الثور هذه .

كانت القوات الحكومية قد غادرت « كواستيكوماتى » فى طريقها إلى « أوتلان » لتعقب العصابات التى تعشش ، طبقًا لاعتقادهم ، فى مكان يقال له « لاپوريفيكاثيون » . كنا قد تركنا هذا المكان عندما اتجهوا إليه ، ومن ثمَّ فقد كانت « كواستيكوماتى » متهيأة لاستقبالنا .

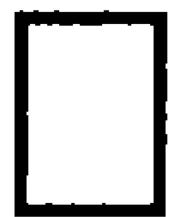
سمحت لنا الظروف هناك بتقليد مصارعة الثيران . الثمانية جنود الذين تركتهم القوات الحكومية ، علاوة على الصرّاف والقائم بالأعمال الإدارية (الإدارى) ، كفوا ليومين مصارعة .

أقمنا سورًا خشبيًا مستديرًا مثل الذى يُعد لحبس العنزات ، لاستخدامه كحلبة ، جلسنا على السور لنمنع خروج المصارعين الذين كانوا يجرون بسرعة فائقة عندما يرون الموسى الذى يجرى وراءهم به « پدروثامورا » ويريد نطحهم به .

صُرع الجنود الثمانية فى أمسية ، والاثنان الآخران فى الأمسية التالية ، الوحيد الذى احتاج صرعه لجهد كبير هو الصّراف الطويل والنحيف مثل الرمح السمهرىّ ، ذلك لأن مجرد ميله إلى جانب كان كفيلا بتفادى النطحة ، أما الإدارىّ فلم يصمد لأكثر من جولة ، كان ربع القامة أخرقًا ولم يلجأ لأية حيلة كى يتفادى الموسى ، مات صامتًا صمتًا مطبقا ، دون أن تصدر عنه حركة وكأنه كان يتمنى هذه الميتة ، لكن الصراف تطلّب جهدًا .

كان « پدرو ثامورا » قد أعار كل واحد من المـصارعين مدْرَعة سميكة وثقيلة ، ولهـذا السبب استطاع الصرّاف أن يناور بمهـارة نطحات الموسى ، فقد استفاد جيداً من المدرعة إذ كـان يحركها برشاقة أمام النطحات المسددة إليه مباشرة ، وبهذا الشكل راوغ « پدرو ثامورا » حتى أتعبه ، كان يُلاحظ بوضوح مدى التـعب الذى أَلَمّ به من ركضه العشـوائى نحو الصّراف ومن عدم إصـابته إلا ببعض الخدوش ، عندئذ نفـد صبره ، ترك الأمور تسـير على ما هى عليه ، وفجأة ، وبدلا من النطح المواجـه كما يفعل الثيران ، أبعد المدرعة بيد وبالأخرى التى تمسك الموسى طعنه طعنة قاتلة . بدا وكأن الصراف لم ينتبه لما حدث لأنه ظل يجرى بعدها لفترة وهو يهز المدرعة إلى أعلى وإلى أسفل وكأنه يهش مجمـوعة من الزنابير ، لم يمسك عن الجرى إلا بعد أن شاهد الدم وهو ينبثق من وسطه ، انتـابه الهلع وحاول بأصابعه سدّ الفـتحة التي يخـرج منها فى فوّارة ذلـك الشىء الملّون ليتركـه شاحب اللون ، بقى بعـد ذلك ممددا وسط الحلبـة وهو ينظر إلى الجـمـيع ، وظل هكذا إلى أن قمنا بشنقه ، لأننا لو لم نفعل لتأخر موته كثيراً .

ومن بعدها ، لم يتـخل « پدرو ثامورا » عن ممارسة لعبـة الثوره هذه كلما سنحت له الفرصة .



فى ذلك الوقـت ، كان معظمنا من المناطق المتاخمة ل « خاليسكو »، من بداية موطن « پدرو ثامورا » إلى مايليه ؛ انضم إلينا بعد ذلك أناس من مناطق مختلفة :

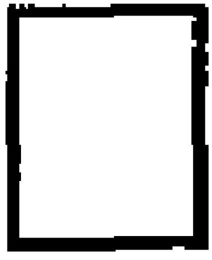
الهنود « الجويروس » من « ثاكو ألكو » و « ثانكو نـثوتس » أصحاب الوجوه المماثلة للبن العاقِد ، كما انضم إلينا آخرون من المناطق الباردة التى تسمى « مـاثاميلتـا » وعباءاتهـم الطويلة لا تفارق أجسـادهم طوال الوقت وكأن الثلـوج أتت وراءهم ولاتكف عن التسـاقط فوقهـم . كان هؤلاء لا يحـسـون بالجـوع فى الأجـواء الدافـئـة ، ولذا كلفـهم « پدرو ثامـورا » بالتمركز فى منطقة البراكين حيث لا توجـد سوى الرمال الخالصة والحجارة الملساء .

لكن الهنود « الجـويروس » سرعـان ما أحـبوا « پدرو ثامـورا » ولـم يرضوا بديلا لصـحبتـه ، كانوا ملازمين لـه ، مثل ظله ، ويلبون جـميع أوامره ؛ لدرجة أنهم كانوا أحيانا يقـومون بخطف أجمل ما فى القرى من فتيات ويقدمونهن لـ « پدرو ثامورا » .

مـازلـت أتذكر بوضـوح كل شِيء ، تلك الليـالى التى كنا نمضـيهـا بالجبل ، نغز السير دون إحداث ضـجيج والنعاس ملء جفوننا ، فارين من ملاحـقـة القـوات الحكوميـة التى تقتـفى آثارنا . ما زلت أتخـيل « پدرو ثامورا » مـتلفعًا بعـباءته ولا يكف عن إصدار التـعـليمـات لنـا حتى لا يتأخر أحد عن الرّكب :

- أنـت ، يا " يـيـتاسـيو " ، أهـمـز هـذا الجـواد وأنـت ، يـا " ريسنيدس " ، لا تنم ، أنا بحاجة للتحدث معك !

نعم ، كان يعتنى بنا جميعًا . كنا نسير فى جوف الليل والنعاس يداعب جفوننا ورءوسنا فارغة من الأفكار ؛ لكنه كان مشغولا بنا ، يحدثنا كى نستيقظ ونرفع هاماتنا . كنا نحس بعينيه المفتوحتين اليقظتين ، اللتين لايخامرهما النعاس ، المعتادتين على الرؤية فى جوف الليل وعلى التعرف علينا فى الظلام الحالك . كان يعدنا جميعًا ، واحدًا واحدًا ، كمن يعد ما بكيسه من نقود ، ثم يسير إلى جوارنا . كنا نسمع وقْع حوافر جواده ونعرف أن عينيه على حذر دائم ؛ لهذا كنا نتبعه كالعميان ، صامتين ، دون أن تصدر عن فرد منّا شكوى ، لا من البرد ولا من النعاس .



لكن الأمور ساءت وأخذت فى التدهور السريع منذ حادثة قطع سكة القطار عند المطلع المؤدى إلى "سايويلا "وإخراجه عن القضبان .

لو لم يحدث هذا ، ربما ظل باقيًا على قيد الحياة كل من " " پدرو ثامورا "و " تشيويلا " و " التشينو أرياس " وكثيرين غيرهم ، ولربما استمرت الثورة فى طريقها الصحيح ، لكن " پدرو ثامورا " أهان الحكومة وأثار حفيظتها بمهاجمة قطار " سايويلا " .

لايفارق مخيلتى إلى الآن منظر ألسنة اللهب وهى تتصاعد من الحفرة المكدسة بالموتى ، كانوا يكوّمونهم بمجارف ويدحرجونهم كجذوع الأشجار إلى أسفل المطلع وعندما تعلو الكَوْمة يصبون عليها البترول ويضرمون فيها النيران . كانت أجنحة الرياح تحمل النتن إلى مسافات بعيدة ، وظل الجو لأيام طويلة معبقًا برائحة اللحوم الآدمية المشوية .

لم نكن نعى تمامًا أبعاد ما نحن مقبلون عليه حتى قبل وقوع الواقعة بقليل ، كنا قد رشقنا مسافة كبيرة من السكة الحديد بقرون وعظام الأبقار ، وللزيادة فى الحيطة فتحنا القضبان فى النقطة التى سينعطف عندها القطار ، فعلنا هذا وانتظرنا .

كان السحر قد بدأ ينثر ضياءه على الأشياء ؛ وعلى أسطح عربات القطار تُرى بوضوح تجمعات من البشر . كان يُسمع غناء بعضهم ، أصوات لرجال ونساء ، مرّوا أمامنا ولاتزال تلفهم غلالة من سواد الليل ، لكننا استطعنا تمييزهم : جنود بكامل استعداداتهم . انتظرنا . لم يتوقف القطار .

كان بمقدورنا إصابتهم برصاصنا إصابات مباشرة ، لأن القطار كان يسير متمهلا ويلهث وكأنه يريد صعود المطلع معتمداً فقط على مجهوده الذاتى ، بل كان بإمكاننا تجاذب أطراف الحديث معهم حينًا من الوقت . لكن الأمور لم تكن تمضى فى هذا الاتجاه .

بدءوا ينتبهون لما يحدث عندما أحسوا بأرجحة العربات وبرجرجة القطار وكأن أحداً يهزه بعنف . بعد ذلك نكصت القاطرة على عقبيها ،

مسحوبة وهى خارج القضبان بثقل العربات الغاصة بالبشر . كانت القاطرة تطلق صفيرا أجش ، طويلا وحزينًا ، لكن لم يمد لها أحد يد العون . استمرت فى التراجع ، مجرورة بذلك القطار الذى لايُرى له آخر ، إلى أن خانتها الأرض تحتها فمالت على جنبها وهوت فى قاع الوهدة . وفى لمح البصر تبعتها العربات ، واحدة واحدة ، وانكفأت كل منها فى مكانها هناك . أطبق الصمت بعد ذلك وكأن الجميع ، بما فيهم نحن ، قد أخرسه الموت .

هذا ما حدث .

عندما بدأ يخرج من بقى منهم حيًا من بين ركام العربات ، انسحبنا والرعب يعصف بنا .

اختبأنا بضعة أيام ؛ لكن قوات الحكومة أتت لتقتلعنا من مخابئنا . لم يتركونا ننعم بالهدوء لحظة ؛ حتى ولو من أجل مضغ قطعة من قديد . جعلوا ليلنا ونهارنا سواء ، وصادروا ساعات نومنا وطعامنا . أردنا الاحتماء بوادى « توثين » الضيق العميق ؛ لكن الحكومة وصلت إليه قبلنا. سرنا بمحاذاة البركان ، وتسلقنا الجبال الشاهقة الارتفاع وهناك ، فى ذلك المكان المسمى « طريق الربّ » ، وجدنا رصاصاتهم بانتظارنا . كنا نحس بسخونة الهواء المحيط بنا من جرّاء الرصاص المتساقط علينا فى دفقات مضغوطة ، لدرجة أن الحجارة التى كنا نحتمى بها تبعثرت أشلاءً كما لو كانت من حلوى . عرفنا بعدها أن بنادقهم التى كانت تطلق الرصاص لم تكن بنادق بل مدافع رشاشة إذا أصابت دفقة منها جسد إنسان

جعلته كالمصفاة . وَقَـر فيأذهاننا حينذاك أن أعدادهم لاتحصى ، بالآلاف ، وأن ليس أمامنا من سبيل سوى العُدو أمامهم .

جـرينا قدر اسـتطاعتنا . فـى « طريق الرّب » تخلف " تشيـويلا " خلف شجرة قطلب والعـباءة ملفوفة حول عنقه وكأنه يـحتمى من البرد . ظل يحدق فينـا ، واحدًا واحدًا ، أثناء مرورنا عليه لـيوزّع على كل واحد منا نصيبـه من الموت ، بدا وكأنه يضحك علينا ، بأسنانه المتفـرقة الملطخة بالدم .

تفرقنا فى مجموعات صغيرة : جنى ثمار التبعثر كثيرون ، وأضير به آخرون غيرهم ، كان من النادر ألا نرى واحدًا منّا على قارعة إحدى الطرق معلقـا من قدميـه فـى عمود طويـل ، ويستمـر هكذا ردحًا من الزمن ، متدليا مـثل جلد غير مدبوغ . كانت العقبان تأكل لحـومهم وأحشاءهم من الداخل ولاتتركها إلا وهى هياكل عظيـمة ، وبما أنهم كانوا يعلقونهم على ارتفاع كبير فقد كانوا عُـرضة لأرجحة الرياح أياما طويلة ، وربما شهورًا ، وأحيانا حتى لايتبقى من المُـعَلَّق سوى بنطاله وكأنهم علقوه ليجف هناك . حينمـا كانت عين الواحـد تقع على هذه المشاهد يحس بجـدية الأمر ودنوّ الأجل .

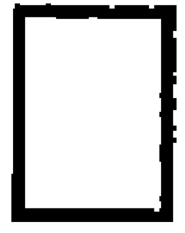
اسـتطاع البعض الفـرار بجلودهم إلى التلّ الكبـير حـيث كنا نزحف كالأفاعى لنقضى الوقت فى التطـلّع إلى السهل ، إلى تلك الأرض الجاثمة هناك حيث وُلدنا وعشـنا ، وحيث ينتظروننا الآن ليجهزوا عـلينا . أحيانًا كان الرعب يتملكنا من ظلال الغمام .

لو أتيحت لنا الفرصة لذهبنا لمن بيدهم الأمر عن طيب خاطر لإعلان التوبة وطلب العفو حتى يتركونا فى سلام ؛ لكن الجرائم الكثيرة التى اقترفناها من جهة ، وخبث الناس وسوء طويتهم من جهة أخرى ، لم يتركا لنا صديقًا واحدا نلجأ إليه ، حتى الآمال المعلقة على حلفائنا السابقين ، الهنود الموجودين على مقربة ، هنا فى الأعالى ، قد تبخرت هى الأخرى بعد أن قلبوا لنا ظهر المجنّ . ينسبون إلينا الفتك بحيواناتهم . زودتهم الحكومة بأسلحة كثيرة وأرسلوا إلينا من يحذرنا من الاقتراب منهم لأنهم لن يترددوا فى قتل من يلمحونه .

« لانريد رؤيتكم ؛ لكن لو رأيناكم لن يعصمكم منا عاصم » ، أوصلوا لنا هذه الرسالة .

وبهذا الشكل ضاقت علينا الأرض بما رَحُبَت ، لم يبقَ لنا ولاحتى بضعة الأمتار التى نحتاجها لنرقد فيها أمواتًا .

لهذا قررنا ، نحن المتبقين ، التفرق ، وعلى كل واحد أن يكترى (بحياته) اتجاهه الخاص .



أمضيت مع "پدرو ثامورا" خمس سنوات . بأيام هنيئة ؛ وأخرى مريرة ، اكتملت السنوات الخمس ، لم أره بعدها ، يقولون إنه ذهب إلى « مكسيكو » (العاصمة) وراء امرأة وهناك قتلوه . انتظرنا عودته ، ظهوره أحد الأيام لنخوض معه غمار الثورة من جديد ؛ لكننا تعبنا من طول الانتظار . قتلوه هناك . أخبرني رفيق بالسجن بتمكنهم منه .

غادرت السجن من ثلاث سنوات مضت . عاقبوني بتهم كثيرة ؛ ليس من بينها مؤازرة "پدرودرو ثامورا " في ثورته ، لم يعرفوا هذا . قبضوا عليّ لجرائم أخرى ، من بينها عادتي السيئة في اختطاف الفتيات . تعيش معي الآن إحداهن ، ربما أفضل امرأة بين نساء العالم ، الموجودة هناك ، خارج قضبان السجن ، منتظرة ، لا أحد يعلم منذ متى . إطلاقهم سراحي .

- " بيتشون " ، أنا في انتظارك - قالت لي - . انتظرتك لسنوات طويلة !

تخيلت حينئذ أنها تنتظرني للانتقام مني ، طَفَت صورتها على مخيلتي ، وفيما يشبه أحلام اليقظة تذكرت من تكون ، عاودني الإحساس بالماء البارد المتساقط من العاصفة على « تلكمپانا » ، تلك الليلة التي داهمنا فيها القرية وسويناها بالأرض ، كنت شبه متيقن من أن أبيها هو ذلك الشيخ الفاني الذي قتلناه ونحن في طريقنا إلى الخروج ؛ ذلك الذي أطلق أحدنا على رأسه رصاصة بينما كنت أضع ابنته عنوة على سرج حصاني وأضربها ضربات غير مدمية على رأسها

لكى تهدأ وتكف عن عضّى . كانت صبـية فى الرابعة عشرة من عمرها ، ذات عينين جميلتين ، وكلفنى ترويضها عناء وجهداً كبيرين .

- معى ابن لك - قالت لى بعد ذلك - . إنه هنا .

وأشارت بإصبعها إلى صبى فارع الطول قلق العينين .

- اخلع القبعة لكى يراك والدك .

وخلع الصبى القبعة ، كـان مثلى تمامًا وبنظرته شىء من الشر ، ورثه بالتأكيد عن أبيه .

- يسمونه أيضًا " بيتشون" - عادت المرأة لتقول لى ، تلك التى هى زوجـتى الآن - . لكنه ليس قـاطع طريق ولا قـاتلا ، إنه طيب المنبت . طأطأت رأسى .

قل لهم يتركونى أعيش

-" خوستينو " ، قل لهم يتركونى أعـيش . هيا ، قل لهم هذا ، رحمة بى ، قل لهم يحسنوا إلىّ ويتركونى .

- لاأستطيع . هناك جاويش لايريد سماع شىء عنك .

- اجعله يسمعك ، استخدم شطارتك معه وأخبره أنه إذا كان المقصود تخويفه فـقد تعـذب بما فـيه الكفاية ، قل له يفعل هذا ابتـغاء الأجر من الله .

- الأمر لايتعلق بإثارة الفزع ، يبدو أنهم مصممون على قتلك ، ولا أريد العودة إليهم ثانية .

- جرّب مـرة أخرى . مـرة أخرى فـقط . ولننظر ما سـتسفـر عنه محاولتك .

- لا ، لا أرغب فى الذهاب . أنا ابنك ، وإذا ترددت عليهم كـثيراً قد يعـرفون من أنا ويقررون سـاعتهـا إيرادى المورد نفسـه . الأفضل ترك الأمور تمضى على ما هى عليه .

- هيا ، يا "خوسـتينو " . توسـل إليهم أن تأخذهم بعض الشـفقة بى . قل لهم هذا لاأكثر .

جزّ « خوستينو » على أسنانه وهز رأسه قائلا :

- لا .

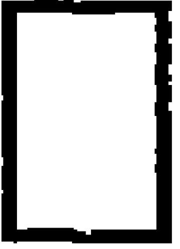
وظل يهز رأسه شوطًا طويلا .

- اطلب من الجاويش مقابلة « الكولونيل » . وأخبره بمدى ضعفى وكبر سنى ، وأننى لم أعد أصلح لشىء . ماذا سيجنى من وراء قتلى ؟ لاشىء البتة ، لابد وأن له قلبًا ، توسل إليه أن يعفو عنى ابتغاء المثوبة من الله .

نهض "خوستينو" من على حافة الحوض الحجرى الذى كان جالسًا فوقه واتجه نحو باب الحظيرة . عاد أدراجه بعد ذلك ليقول :

- أنا ذاهب ، لكنهم لو أعدمونى أنا الآخر ، من سيتكفل عندئذ برعاية زوجتى وأولادى ؟

- العناية الإلهية ، يا "خوستينو" . ستتكفل بهم . لاتشغل بالك بشىء سوى الذهاب إلى هناك ولاتفكر فى غير ما يمكن أن تصنعه من أجلى . هذا هو الأمر العاجل .



أحضروه وقت طلوع الفجر. والآن تكشف النهار ومازال هناك ينتظر، مربوطًا فى آلة خشبية . كان مضطربا . حاول أن يغفو قليلا لينعم بالهدوء ، لكن النوم كان قد طار من عينيه ، كما تلاشت رغبته فى الطعام . لم تكن له رغبة فى شىء ، فيما عدا البقاء على قيد الحياة . بعد أن تيقن من دنوّ أجله ، تملكته رغبة عارمة فى الحياة لايحس بمثلها إلا من بُعث من الأجداث حديثًا .

من كان يظن أن ذلك الحادث الكريه الذى عفى عليه الزمن وابتلعه النسيان ، حسب اعتقاده ، سيعود ليطل برأسه من جديد ، عندما دفعته الظروف ليقتل "دون لوبى ". لم يقتله شططا كما يدعى أهل « أليما » ، بل كانت لديه الدوافع والأسباب . مازال يذكر ما حدث .

كان « دون لوبى تيريروس » صاحب إقطاعية " لا بويرتا دى بيدرا" وفوق هذا أباه من العمَاد . ولهذا السبب اضطر « خوبنثيو نابا » لقتله ؛ لكونه صاحب "لابويرتا دى بيدرا " ولأنه أيضًا أبوه من العماد ، ومع هذا منع ماشيته من المرعى .

تحمّل فى البداية ، مراعاة لما بينهما من أواصر الصلة ، لكنه بعد أن حلّ الجفاف ورأى ماشيته تتساقط واحدة بعد أخرى من فرط الجوع الذى ألهبها بسياطه ، وأبوه من العماد مازال يركب رأسه ويضنّ عليها بعشب خيوله ، قرر وقتها إزالة سياج المرعى أمام كُبَّة حيواناته الشديدة الهزال لكى تأكل حتى التخمة . لم يعجب هذا "دون لوبى" وأمر بإعادة السياج إلى ما كان عليه ليعود "خوبنثيو نابا " ليفتح فيه من جديد إحدى الثغرات . وهكذا ، ظلت الثغرة تُغلق بالنهار لتفتح بالليل بينما يتظر القطيع هناك متربصًا بجانب السور ؛ ذلك القطيع الذى كان يستمد من قبل مقومات وجوده معتمدًا فقط على شمّ رائحة العشب دون التمكن من الوصول إليه

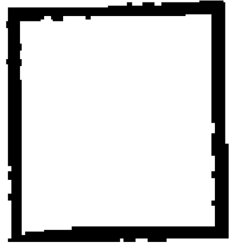
احتدم النزاع بينهما ولم يصلا لاتفاق .

إلى أن حذّره " دون لوبى" ذات مرة :

– اسمع يا "خوبنثيو" ، لو اقتحمت إحدى مواشيك المرعى سأقتلها

أجابه :

– ليس ذنبى أن تبحث الحيوانات عن الجانب الذى يريحها . إنها لاتفقه شيئا ؛ ولذا أحذرك من التعرض لها .



« وقتل لى عجلا من العجول .

فى شهر مارس يكون قد انقضى على هذا خمس وثلاثون سنة ، لأننى أمضيت الشهر التالى له (أبريل) هائمًا على وجهى فى الجبل فرارًا من العدالة . ولم تكف البقرات العشر التى أعطيتها للقاضى ، ولاقيمة رهن دارى التى أخذها مقابل مغادرتى السجن . وكل ما تبقى لى بعد ذلك دُفع رشوة للكف عن مطاردتى ، وبرغم هذا لم يكفوا عن ملاحقتى ، وأتيت مع ابنى للعيش فى قطعة الأرض الصغيرة التى كنت أملكها فى " يالودى بينادو " . وكبر ابنى وتزوج من "إجناثيا " وأنجب ثمانية أولاد . وبما أن الشيخوخة قد أدركتنى فلابد وأن تكون الحادثة قد طواها النسيان ، لكن ما يحدث معى الآن يؤكد أنها لم تُنسَ .

وحسبت حينئذ أن المائة "بيزو" المتبقية كفيلة بتسوية المسألة . المرحوم « دون لوبى » كان وحيدًا ،ولم تكن معــه سوى زوجته وطفلين يحبوان ، الأرملة ماتت هى الأخرى حسرة على زوجها ، واحـتضن الطفلين أقارب لهما يعيشون بعيدًا ، ولذلك فإن الشعور بالخوف منهـما لم يكن له مبرر على الإطلاق .

لكن الآخرين لم ينسـوا أننى مطلوب من العدالة واستغلوا ذلك فى إرهابى ومواصلة ابتزازى .

إذا حلّ غريب بالقرية يسارعون بإنذارى :

– خذ حذرك ، يا "خوبنثيو" ، بالقرية غرباء .

وعندئذ أخفّ بالخـروج إلى الجـبل ، وأتوارى بين أشـجـار القطلب وأظل أيامًا أتغذى على الأعشاب والنبـاتات البرية . كنت أهرب أحيانا فى منتصف الليل كمن تلاحـقه الكلاب . استمر هذا حـياة بطولها ، لم يكن لعام أو اثنين ، بل لحياة بكاملها » .

والآن جـاءوا للبحث عنه ، بعـد أن تلاشى الأمل فى ظهـور أحـد وتملكه اليقين فى نسيان الناس للحادث ، وأعتقد أنه سيقضى أيامه الأخيرة فى طمـأنينة وراحـة بال . « ستكون شيخـوخـتى جـواز مـرورى إلى الطـمأنينة ، بسببها سيتركوننى وشأنى » ، ظن هذا .

داعبه هذا الأمل حـتى ملك عليه نفســه ، ولهذا شُقَّ عليه استيعاب فكرة موته هكذا ، فجأة ، في هذه المرحلة من العمر ، بعد أن جاهد كثيرًا من أجل الـفكاك من ربقــة الموت ؛ بـعــد أن أمــضى ربيع عــمــره

هائمًا على وجـهه من جهة لأخـرى يجرجره الفـزع ، وعندما ذبل جسده وتحول إلى جلد متغضن مدبوغًا بالأيام المريرة التى حكم عليه فيها بالهرولة للتخفى عن أعين الجميع .

وعلى سبيل الاحـتياط ، ألم يصل به الأمر لحـد ترك امرأته تهرب ؟ عندما أشرق عليه صباح ذلك اليوم بخبر فرار زوجته ، لم تدر حتى بخلده فكرة الخروج للبـحث عنها ، تركها تهرب دون أن يتـقصى مع من أو إلى أين حتى لايضطر إلى الذهاب إلى القرية ، تركها تضـيع مثلما ضاع قبلها كل ماعنده دون أن يحرك ساكنًا . لم يبقَ له شيء يهتم به سوى حياته ، ولن يدخر وسعًـا فى سبيل الحفـاظ عليها ، لم يعد بإمكانه الـسماح لهم بقتله . ليس بإمكانه ؛ وخصوصا الآن .

لكنهم أحـضروه من هناك ، من " پالو دى بينادو " ، لهـذا الغرض بالذات . لم يكونوا بحاجة لشد وثاقه حتي يتبعهم . مشى باختياره مطوقًا بغُـلّ الخـوف ليس إلا ، أدركوا أنه لايسـتطيع الفـرار منهم بذلك الجسـد الفانـى ، وبهاتين الساقـين النحيلتين مـثل عصيّـتين جافـتين ، والمكبلتين بالخوف من الموت . لقد كان ذاهبًا لذلك المصير . ليموت. أخبروه بهذا .

من ساعتها عرف مـا هو ماضٍ إليه ، وبدأ يحس بذلك الغثيان الذى كان يعـتريه دائما بمجرد رؤيتـه لشبح الموت يحوم حوله ، ويجـعل الجَذَع يطلّ من عينيـه ، ويورم فمه بالغصص المريرة التى كـان عليه أن يتجـرعها رغمًا عنه ، بذلك الشيء الذى يُثـقل قدميه بينما تتأرجح رأسـه فوق عنقه ويدق قلبه بعنف بين ضلوعه . لا ، لايمكن أن يستوعب فكرة قتلهم له .

لابد وأن يكون هناك بصيص من الأمل ، لم تُصادر بعد إمكانية وجود أمل ما . ربما يكونون قد أخطأوا ، ربما كانوا يبحثون عن "خوبنثيو نابا" آخر وليس عن شخصه هو .

مشى صامتًا بين هؤلاء الرجال ، وذراعاه متهدلان إلى جواره . كان السَّحر معتمًا ، بلا نجوم ؛ والرياح تهب على مهل ، محملة بموجات من التراب ، معبقة بتلك الرائحة التى تشبه البول المغلف بغبار الطرق . كانت عيناه ، اللتان للمتهما السنين ، تريان الأرض تحت قدميه بالرغم من الظلمة وهناك ، على الأرض ، كانت توجد كل حياته ، سبعون سنة من العيش فوقها ، من صرّها بكفيه ، من تذوقها مثلما يُتذوق طعم اللحم ، ظل لفترة طويلة يحملق فيها ، مستطعمًا كل حفنة منها كما لو كانت المرّة الأخيرة ؛ وقد كان شبه متيقن بأنها فعلا الأخيرة .

نظر بعد ذلك إلى الرجال الذين يسيرون إلى جواره وكأنه يريد أن يتفوه بشيء . كان سيطلب منهم إطلاق سراحه ، تركه لحال سبيله :

« لم أصنع سوءاً بأحد ، أيها الفتيان » ، كان سيقول لهم ، لكنه ظل صامتًا . « سأطلب منهم هذا بعد قليل » ، قال لنفسه . كان يتطلع إليهم وحسب . كان بإمكانه تخيلهم كأصدقاء ؛ لكنه أحجم ، لم يكونوا كذلك ، لم يكن يعرف أحدًا منهم ، كان يراهم إلى جواره ينحنون من وقت لآخر للاستدلال على الطريق وللتأكد من استمرارهم عليه .

كان قد رأهم لأول مرة عندما تلوّن المساء باللون الرمادى ، فى تلك الساعة الحائلة اللون التى يبدو فيها كل شيء وكأنه يشيط .

كانوا يعبرون الأرض المزروعة داعسين بأقدامهم نباتات الذرة الطريّة . اتجه نحوهم لأجل هذا : ليقول لهم إن نباتات الذرة فى طور النمو مازالت ضعيفة لاتتحمل السير فوقها ، لكنهم لم يتوقفوا .

رآهم قبل أن يصلوا إليه بوقت كاف . دائمًا حالفه الحظ فى رؤية الأشياء فى الوقت المناسب . كان بوسعه الاختفاء ، السير لعدة ساعات بالتلّ لحين ذهابهم ثم يعود إلى مقرهٍ . لقد كان الأمل فى نباتات الذرة معدومًا فى جميع الأحوال .

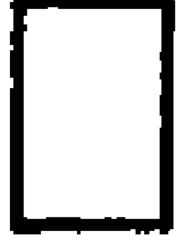
كانت تنتظر سقوط المطر ولما تأخر أخذت نباتات الذرة فى الذبول . ولن يطول بها العهد حتى تجف بالكامل .

وهكذا لم يكن الأمر يستحق لكى يتوجه إليهم ؛ لكي يضع نفسه بين هؤلاء الرجال وكأنه يدخل فى شقّ يتعذر عليه الخروج ثانية منه .

والآن يواصل إلى جوارهم ، كابتًا رغبته فى التوجه إليهم بطلب إطلاق سراحه ، لم يكن يرى وجوههم ؛ بل أجرامًا تلتصق وتنفك عنه . وبهذا الشكل فعندما شرع فى الكلام لم يكن يدرى إذا كانوا يسمعونه . قال :

- لم ألحق الأذى بأحد من قبل - قال هذا . لكن لم يتغير شىء . كأن لم يسمعه أى جرم من الأجرام ، لم تستدر الوجوه للنظر إليه . استمروا على حالتهم السابقة كما لو كانوا منوَّمين .

فهم حـينئذ أنه لاداعى للاستـطراد ، وعليه إرجاء الأمل إلى فـرصة لاحقـة ، ترك ذراعيـه يتهـدلان إلى جواره مـرة أخرى واخـترق البـيوت الموجودة علـى مشارف القـرية بين هؤلاء الرجال الأربعـة المتشـحين بسواد الليل .



- سيدى الكولونيل ، ها هو الرجل .

كانوا قد توقفوا أمام ثلمة الباب ، خـلع قبعته ، احترامًا ، في انتظار خروج أحد ، لكن لم يخرج سوى الصوت :

- أىّ رجل ؟ - سألوا .

- رجل "پالودى بـينادو " ، سـيـدى الكولونيل . الذى أرسـلتنا لإحضاره .

- اسـأله إذا كان قـد قـضى شطرًا من حيـاته فى « أليـما » - عـاد الصوت ليقول من الداخل .

- أنت ، هل عشت فى أليما ؟ - كرر الجاويش ، الواقف قبالته ، السؤال .

- نعم . قل للكولونيل إننى من هناك ، وإننى عشت فيها حتى وقت قريب .

- اسأله إذا كان يعرف "جوادا لوبى تيريروس" .

- يسألك إذا كنت يعرف " جوادا لوبى تيريروس" . .

- "دون لوبى" ؟ نعم . أخبره أننى أعرفه . لقد مات .

- أعرف أنه مات - قال .

واصل الكلام وكأنه يتحدث مع آخر بالداخل ، على الجانب الآخر من حائط البوص :

« جواد لوبى تيريروس » كان أبى ، عندما كبرت وبحثت عنه أخبرونى أنه مات ، من الصعب أن تنمو وأنت تدرك أن الشىء الذى يمكن أن تتشبث به جذورك قد مات. هذا ما حدث معنا .

علمت بعد ذلك أنهم قتلوه طعنًا بمنجل ، وغرزوا مـنخس الثور فى معـدته . أخبرونى أنـه ظل مفقـودًا ما يزيد على اليومـين ، وأنهم عندما عثروا عـليه ملقى فى النهر كان مـازال يحتضر ويوصى برعـاية أسرته من بعده .

يبدو أن هذا بالإمكان نسيانه بمرور الزمن . حاول الواحد نسيانه . ما لايمكن نسيـانه هو معـرفة أن الذى فـعل هذا مازال ينعم بالحـياة ، ويُمنّى روحه الفاسدة بوهم الحياة الأبدية . لايمكن العفو عنه ، حتى ولو لم أكن أعرفه ، ومـجرد علمى بمكانه يدفعنى للانتقـام منه . ليس بمقدورى غض الطرف عن استمـراره على قيـد الحـياة . إنه ما كـان يسـتحق الولادة أصلا » .

فى الخارج هنا ، سُمع بوضوح جميع ما قاله . أمر بعد ذلك :

- خذوه ، اربطوه لبعض الوقت حتى يتعذب ، ثم اعدموه .

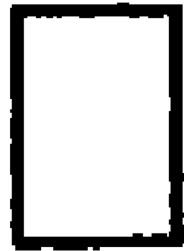
- انظر إلىّ ، أيهـا الكولونيل - طلب الرجـل - . لم أعد أسـاوى شيئا . سأموت عما قريب وحدى ، بداء الشيخوخة . لاتقتلنى . . .

- أحملوه ! - عاد ليقول الصوت القادم من الداخل .

- . . . لقد دفعت الثمن ، أيها الكولونيل . دفـعته مرات عديدة . سلبونى كل شىء ، وعاقبونى بشتى الطرق . أمضـيت أربعين عامًا مختبئًا كالموبوء ، وكل دقة من قلبى تصرخ فىّ على الدوام أننى هالك لامحالة . لا أستحق الموت هكذا ، دعني على الأقل لعذاب الضمير وسخط الرَّب ، لاتقتلنى ، قل لهم يتركونى أعيش .

كان هنـاك ، وكأنـهم أوسـعـوه ضـربًا ، يخبط الأرض بقـبعـته ، صائحًا . وفى التّو أمر الصوت القادم من الداخل :

- اربطوه وأسكروه بشراب حتى لايشعر بألم الرصاص .



والآن ، فى نهاية المطاف ، سكنت جوانحه ، كان هناك منزويًا أسفل الآلة الخشبية التى ربطوه فيها .

من قبل كــان قد أتى ابنه " خــوستينو " ، ذهــب ثم عاد ، وها هو الآن قادم مرة أخرى .

حمله فوق الحمار . شد وثاقه وأحكم ربطه بالحبال حتى لايسقط فى الطريق ، وضع رأســه فى كـيس حتى لايثـيـر فزع من يراه ، وبعـد أن اصطبر الحمار لحين فـراغه من عمله ، انطلقوا بسرعة حتى يصــلوا إلــى « پالو دى بينادو » فى وقت يسمح لهم بتجهيز مراسم الدفن .

- لن تتـعـرف عليك زوجـة ابنك ولا أحـفادك - كـان يقـول له . سـينظرون إلى وجـهك وينكرونك ، سـيخـيل إليـهـم أن ابـن آوى قـد افترسك ، عندما يطلعون على هذا الوجه الملىء بـالثقوب من كثرة الأعيرة التى أطلقوها عليك .

« لوبينا »

من بين تلال الجنوب العالية ، فإن أكـمة « لوبينا » هى الأشد ارتفاعًا والأكثر تحجراً ، إنها مـوبوءة بتلك الحجارة التى يُصنع منها الكلس وإن كـان فى « لوبينـا » لايصنع منهـا كلس ولايُستـفـاد منهـا بشىء . إنهم يسمونها هناك « الحجارة الشرسة » ، كما يطلقون على التل الصاعد نحـو « لوبينا » « الصخـرة الصمّاء » . لقـد تكفلت الرياح والشمس بتـفتيتـها بطريقة جعلت التربة هناك بيضاء لامعة كما لو كانت مخضلة بندى الصباح الباكر ؛ وهذا لمجرد القـول لأن الليل - مثل النهار - فى « لوبينا » شديد البرودة وقطرات الندى تتـخثر فى السـماء قبل أن تفكر فى السـقوط على الأرض .

. . . والأرض شديد الارتـفاع ، تتفـصد من كل الجـوانب فى وهاد سحـيقـة ذات أعماق تـتوارى بعيـد ، يقول أهالى "لوبينـا " إن النعاس يتصاعد من تلك الأغوار ؛ لكننى لم أشاهد سوى الريح ترتفع منها ، فى حفيف وجلبـة ، كما لو كانوا قد حـشوها - هناك تحت - فى أنابيب من الغاب .

ريح لاتترك حتى للنمو عنب الذئب : تلك النبـاتات الضئيلة الحزينة التى يمكنـها الحيـاة فقط لفتـرة قصيرة متمسحة بالأرض ومتـشبثة بجُرف الجبل . أحـيانا يزدهر فـقط نبات « الشـيكالوته » * بشقائقه البيضاء ،

* « الشيكالوته » : نبات ذو ساق شوكية تستخدم عصارته فى التداوى من سم الأفاعى (المترجم)

مختبئًا بين الأحجار حيث يوجد قليل من الظل . لكن « الشيكالوته » سرعان ما تذبل ، وعندئذ يسمع الواحد خدشات الريح بأفرعه الشوكية محدثة حفيفًا يماثل صوت السكين على حجر المِسَنّ .

- سترى عما قريب هذه الريح التى تهب على "لوبينا " . إنها قاتمة ، يقولون لأنها تجرجر رمادًا من البركان ؛ لكن الشَىء المؤكد أنه هواء أسود . عما قريب سترى ، إنه يمسك بتلابيب الأشياء فى "لوبينا " كما لو كان يعضها ، وفى أيام كثيرة يحمل أسقف المنازل كما لو كان يحمل قبعة من سعف ، تاركًا الحوائط جرداء بلا ساتر . وبعد ذلك يخدش كما لو كانت له أظافر :

يسمعه الواحد - صباح مساء ، ساعة بعد أخرى ، دون هوادة - وهو يخدش الحوائط ، ينتزع نتفا من التراب ، يحفر بمجرفته المدببة تحت الأبواب حتى يحس به الواحد يزمجر بداخله كما لو كان يحرك مفاصل عظامنا ذاتها ، عما قريب سترى .

بقى ذلك الرجل الذى كان يتحدث صامتًا برهة ، محملقًا فى الفضاء .

كان يصل إليهما صوت احتكاك مياه النهر الغزيرة بأفرع النباتات المتسلقة ؛ حفيف الهواء وهو يحرك بوداعة أوراق شجر اللّوز ، وصياح الأطفال وهم يلعبون فى رقعة الضوء الصغيرة المتسللة من الحانة .

كانت الأَرَضات * تطير وتصطدم بالمصباح البترولى ثم تسقط على الأرض محترقة الأجنحة .

---

* الأَرَضات : نوع من الذباب يظهر بالليل ويستهويه الضوء . (المترجم) .

وفى الخارج كان الليل يواصل تقدمه .

- اسمع ، يا " كاميلو " ، أرسل إلينا بزجاجتين أخريين من الجعة !

- قال الرجل ، ثم أردف :

- شيء آخر ، ياسيدى ، لن تشاهد سماءً زرقاء فى "لوبينا" . الأفق هناك حائل اللون ؛ مغطى دائمًا ببقعة داكنة لاتنمحى ، الأكمة كلها جرداء ، بلا شجرة ولانبتة خضراء تستريح عليها العين ؛ كل شيء ملفوف بهواء داكن مشئوم . سترى هذا : تلك الهضاب المنطفئة كما لو كانت ميتة و "لوبينا " فى أعلاها تتوجها بيوتها البيضاء مثل إكليل ميت . .

اقتربت صيحات الأطفال حتى دلفت داخل الحانة . وهذا جعل الرجل ينهض ويتجه نحو الباب ليقول لهم : « ابتعدوا ، لاتفسدوا علينا الحديث ، استمروا فى اللعب ، لكن دون إحداث جلبة » .

بعد ذلك ، اتجه ثانية إلى المائدة ثم جلس وأضاف :

- نعم ، كما كنت أقول لك ، تمطر قليلا هناك . فى منتصف العام تصل بعض العواصف التى تمزق الأرض وتلهبها بسياطها وتجعل حجارتها الكثيرة طافية فوق التراب . حينئذ ترى كيف تجرجر السحب بعضها بعضًا ، كيف تنتقل من أكمة إلى أخرى وهى تتأرجح مثل مثانات منتفخة وتنطلق منها الرعود لتتهشم على أسنة الروابى ، لكنها بعد عشرة أيام أو اثنى عشر يومًا تذهب ولاتعود إلا فى العام التالى ، وأحيانًا لاتعود إلا بعد بضعة أعوام .

« . . . نعم ، تمطر قليلا – قليلا جـداً أو لا شيء تقريبًا ؛ ولذا فإن الأرض الجـافة المتـغضنة مـثل جلد قـديم عندما ينزل عـليهـا المطر تمتلىء بالصدوع الحادة المدببة التى تنغرس فى قـدم من يسير عليها ، وهكذا حتى الأرض هناك تُنبت الأشواك » .

أفرغ مـحتوى الزجاجـة فى جوفه ولم يتـرك غير فقـاعات الزّبد فى قاعها ثم أستأنف حديثه :

– مهما تبايـنت وجهـات النـظر فإنـها تُجمع فى النهاية على أن « لوبينا » مكان يثـير الأسى . أنت ذاهب إلى هناك وسـتدرك هذا . وأنا أقول إنه مكان يعـشش فيه الحزن . لاتُعرف فـيه الابتسامـة ، وكأن وجوه سكانه جمـيعًا قد استُبدلت بألواح خشبـية . وإذا أردت يمكنك رؤية هذا الحزن فى أىّ ساعـة تريدها . الهواء الذى يهب هناك يحرك الحـزن ويُقلّبه لكنه لايحـمله أبدًا . إنه قابع وكـأنه مـولود هناك . بإمكانك حتى لمسـه والإحساس به ، لأنه دائمًا فوق الواحد وحـواليه ، ولأنه ضاغط مثل لزّقة كبيرة على لُحْمة القلب .

« . . . يقـول من يعيـشون هناك إن البـدر عندما يكتـمل تُرى الريح متجسدة تطوف بشوارع « لوبيـنا » وهى تجرجر وراءها عباءة سوداء ؛ لكن ما توصلت أنا لرؤيته دائمًا ، عند ظهور القـمر فى سماء « لوبينا » ، كان صورة للكآبة . . . دائمًا .

لكن ، تناول مشـروبك ، أرى أنك لم تتذوق رشـفة منه . تناوله . أو ربما لاتعجـبك الجعـة فاترة ، لايوجد غـيرها هنا ، أعـرف أنها هكذا

غير مستساغة الطعم مثل بول حمار . الواحد يعتاد هنا ، أما هناك فأنا على يقين بأنك لاتستطيع الحصول على مثلها . عندما تذهب إلى « لوبينا » ستستبد بك الغرابة . هناك ليس أمامك إلا شُرب « العرقى » الذى يصنعه الأهالى من عشب يسمونه « أوخاس » وسُتفرغ ما فى جوفك بمجرد تناولك جرعات منه . من الأفضل أن تتناول مشروبك . أنا أدرك ما أقوله لك » .

مازال يُسمع فى الخارج صوت النهر . حفيف الهواء . لعب الأطفال . كان يبدو أن الليل لم يتقدم كثيراً .

أطلّ الرجل مرة أخرى من الباب ثم عاد .

الآن يقول :

- من الصعب الحكم على الأشياء من هنا ، من خلال استحضارها فى الذاكرة التى لاتماثل الواقع بأى حال . يمكننى مواصلة الحديث معك دون عناء ، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بـ « لوبينا » . هناك تركت الحياة . . . ذهبت إلى ذلك المكان مفعمًا بالآمال وعدت عجوزاً ومنتهيًا . والآن ، ذاهب أنت إلى هناك . . . حسنا . يبدو أننى أتذكر البداية ، أضع نفسى مكانك وأفكر . . . انظر ، ياسيدى ، عندما وصلت أول مرة إلى « لوبينا » . . . لكن أتسمح لى قبل مواصلة الحديث بتناول مشروبك ؟ أرى أنك لاتلقى له بالاً ، وهو لى ذو نفع كبير ، يخفف عنى. أحس معه وكأننى أغسل رأسى من الداخل بزيت مخلوط بالكافور . . . حسنًا ، أكمل لك : عندما وصلت أول مرة إلى « لوبينا » فإن الحوذىّ الذى حملنا لم يتوقف هناك ولم يترك جياده لتستريح بمجرد أن هبطنا ، استدار :

« – أنا عائد – قال لنا .

– انتظر ، ألن تترك جيادك تنعم ببعض الراحة ؟ إنهم فى غاية التعب .

– سيزداد تعبهم هنا – رد علينا – . الأفضل أن أعود .

وذهب ، متدحـرجًا بعربته من على منحدر « الصخـرة الصماء » ، هامزًا جياده وكأنه يبتعد عن مكان يعج بالشياطين .

وبقـينا هناك ، أنا وامـرأتى وأولادى الثلاثـة ، واقفين وسط الميـدان وجميع حـاجياتنا بأيدينا . وسط ذلك المكان حيث لايُسـمع سوى صوت الريح . . . ميدان قفر ، دون نبتة واحدة تصدّ الهواء . ظللنا هناك وحينئذ سألت زوجتى :

– « أجريبينيا » ، فى أى بلد نحن ؟

هزت كتفيها .

– حسنًا ، اذهبى للبحث عن مكان نأكـل فيه وننام الليلة . سننتظرك هنا – قلت لها .

أمسكت بأصغر أولادها وذهبت .

لكنها لم تعد .

ومع الغروب ، عندمـا كانت أشعـة الشمس تنسحب من فـوق قمم الروابى ، ذهبنا لـلبحـث عنهـا ، مـشينـا فى حـوارى « لوبينا » إلى أن وجـدناها فى الكنيسـة : جالسـة وحسـب وسط تلك الكنيسـة المقفـرة ، والطفل نائم فى حجرها .

- « أجريبينيا » ، ماذا تفعلين هنا ؟

- دخلت للصلاة - ردت علينا .

- لماذا ؟ - سألتها .

هزت كتفيها .

لم يكن هنـاك من يُصلَّى له ، إنه عنبـر خـاو بـلا أبواب ، ليس به سوى بعض المزاغل المفتـوحة وسقف ملىء بالثقوب مـثل غربال يتسلل منه الهواء .

- والمطعم ؟

- لايوجد مطعم .

- والخان ؟

- لايوجد خان .

- أرأيت أحدًا ؟ هل يعيش أحد هنا ؟ - سألتها .

- نعم ، أمـامك هنالك . . . انظر إليـهن . أرى الكرات اللامـعـة لعـيونهن . . . لكنهـن لايملكن طعامًـا كى يقـدمنه لنا . قلن لى دون أن يُخْرجن رءوسـهن أنه لايوجد فى هذه القرية مـايؤكل . . . عندئذ دخلت هنا لأصلى وأنشد العون من الله .

- لماذا لم تعودى إلينا ؟ كنا ننتظرك .

- دخلت هنا كى أصلى . ولم أنته من صلاتى إلى الآن .

- أى بلدة هذه ، يا « أجريبينيا » ؟

عاودت هز كتفيها .

فى تلـك الليلـة تهيـأنا للنوم فى ركن من الكنيـسـة ، خلف المذبح المفكك . كانت الريح تصل إلينا ، بالرغم من أنهـا كانت أقل حدّة ، كنا نسمعـها وهى تدخل وتخرج من ثقوب الأبواب ، ضاربة بأياديهـا الهوائية الصلبـان المعلقة : صلبـانا كبـيرة مصنوعـة من عصىّ صلـبة معلقـة على الحوائط بطول الكنيـسة ومثبتة بـأسلاك كانت تئز مع كل صفـعة ريح مثل اصطكاك الأسنان .

كـان الأطفـال يبكون لأن الخـوف كـان يحـول بيـنهم وبين النوم . وزوجتى كانت تحاول ضَـمَّهم بين ذراعيها ، معانقة حـزمتها من الأولاد . وأنا هناك ، لا أدرى ماذا أفعل .

قبيل الفجر بقليل هدأت الريح . عادت بعد ذلك . مضت لحظة فى هذا البكور بقى فيهـا كل شىء ساكنا ، كما لو كانت السمـاء قد انطبقت على الأرض ، داعسة الجلـبة بثقلها . . . كان يُسـمع تنفس الأطفال وهم خالدون للراحة . كنت أسمع لُهاث امرأتى إلى جوارى .

- ماذا يكون ؟ - سألتنى .

- ماذا يكون ماذا ؟ - رددت عليها .

- هذا ، الدوىّ هذا .

- إنه الصـمت . نامى . استـريحى ولو قليـلا ، قريبًـا سـتشـرق الشمس .

لكننى على التوّ سمعت أنا أيضًا . كان مثل خفقان أجنحة الخفافيش فى الظلام ، قريبا منّا . لخفافيش ذات أجنحة كبيرة تلامس الأرض . نهضت وسُمع الخفقان أشد حدّة ، كأن كومة الخفافيش قد فُزّعت وطارت نحو ثقوب الأبواب . مشيت عندئذ على أطراف أصابعى حتى هناك ، أحسست أمامى تلك الهمهمة الخرساء .

توقفت لدى الباب ورأيتهن. رأيت نسوة « لوبينا » جميعهن وجرارهن على أكتافهن ، بطرحاتهن المتدلية من على رءوسهن وصورهن السوداء على خلفية الليل القاتمة .

- ماذا تردن ؟ - سألتهن . عن ماذا تبحثن فى هذه الساعة ؟

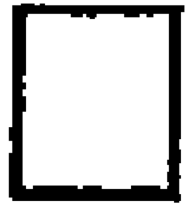
أجابت إحداهن :

- ذاهبات لإحضار الماء .

رأيتهن واقفات قبالتى ، ينظرن إلىّ . بعد ذلك ، وكأنهن أشباح ، واصلن السير بجرارهن السوداء .

لا ، لن أنسى ما حييت أول ليلة أمضيتها فى « لوبينا » .

. . . ألا تعتقد أن هذا يستحق كأسًا أخرى ؟ حتى ولو لم تكن لها فائدة سوى إزالة الطعم الكريه للذكرى » .



- يبدو أنك سألتني عن عدد السنوات التى قضيتها فى « لوبينا » ، حقا . . . ؟

بالفعل لا أدرى ، لقد فقدت الإحساس بالزمن منذ أن داهمتنى الحمى ؛ لكن لابد وأن يكون سرمديًا . . . فالوقت هناك طويل جدًا . لا أحد يحصى الساعات ولا أحد يهتم بتراكم السنين . النهار يبدأ وينتهى . وبعده يجنّ الليل . النهار ثم الليل وفقط إلى أن يأتى الموت ، أملهم جميعًا.

« لابد وأنك تعتقد أننى أعيد على مسامعك الكلام نفسه . بالفعل ، ياسيدى . . . يبقى الواحد جالسًا على عتبة الدار ، معلقًا بصره بشروق الشمس وغروبها ، رافع الرأس ومطأطئها حتى تجف روافده وعندئذ يهدأ كل شىء ، دون زمن ، كما لو كان يعيش فى الخلود دائمًا . هذا ما يفعله العجائز هناك .

لأنه فى « لوبينا » يعيش فقط - كما يُقال . . . - العجائز الخُلَّص ، والذين لم يولدوا بعد . ونساء منهكات ، مرهونات بالضعف والنحافة . الأطفال الذين وُلدوا هناك رحلوا . . . فور أن يُبصروا الفجر يغدون رجالا . وكما يُقال : يرفسون على صوت المعاول الكبيرة حَلَمات صدور أمهاتهم ويختفون من « لوبينا » . هذا هو الحال هناك .

فقط يبقى العجائز والنساء وحيدات ، أو مرتبطات بأزواج ، الله وحده يعلم أين ذهبوا. . . يأتون أحيانا مثل العواصف التى حدثتك عنها ، تُسمع همهمة فى جميع أرجاء القرية حين يرجعون ومثل زمجرة عندما يرحلون . . . . يتركون أجولة المؤن للعجائز ويغرسون أطفالا آخرين

فى بطون زوجاتهم ، ولا أحـد بعد ذلك يدرى عنهم شيئًـا إلا العام التالى ، وربما إلى الأبد . . . إنهـا العادة . يطلقون عليهـا هناك «القانون» لكن هذا لايغير من الأمـر شيئًا . يُمضى الأبناء حـياتهم فى كد من أجل الآباء مثلما عمِل هؤلاء من أجل أسـلافهم ولا أحد يدرى كم من الأجيال أوفت بهذه السنّة . . .

وفى هذه الأثناء ينتظر العجائز من أجلهم ومن أجل الموت ، جالسين على عتـبات دورهم وأذرعتهم مُهَـدَّلة، تحركهم فقط عـودة الابن الغائب . . . وحيدين ، فى تلك الوحدة فى « لوبينا » .

حاولت ذات يوم إقناعهم بالذهاب إلى مكان آخـر ، أرضه جـيدة . « هيا من هنا ! - قلت لهم - . لن نعدم وسيلة للإقامة فى بقعة أخرى . ستساعدنا الحكومة » .

سمعـونى ، دون أن تطرف لهم عين . نظروا إلىّ من قيعـان عيونهم بنقطة الضوء التى تطل منها بعيداً .

- تقـول إن الحكومـة سـتـساعـدنا ، ياحـضـرة المدرس ؟ أتعـرف الحـكـومـة ؟

قلت لهم نعم .

- نحن أيضًا نعرفها . يالها من مصادفة ! مالا نعرف عنه شيئًا هو أمّ الحكومة . قلت لهم إنها الوطن. هزوا رؤوسهم قائلين لا . وضـحكوا ، كانت المرة الوحـيدة التى رأيت فيـها أهل « لوبينا » يضحكون . شـحذوا أسنانهم غير المتناسقة وقالى لى لا ، الحكومة ليس لها أم .

وعندهم حق ، تعرف ؟ هذا الرجل لايعلم عنهم شيئًا إلا عندما قام أحد أبنائه بارتكاب أحد الأخطاء هناك تحت ، وساعتها قامت الحكومة بمطاردته حتى « لوبينا » وقتلته . غير هذا لايحسون لها بوجود .

- تريد منا ترك « لوبينا » لأنه - حسب زعمك - يكفى ما تحملناه من جوع دون ذنب أو جريرة - قالوا لى - . لكن إذا نحن ذهبنا ، من سيحمل أمواتنا ؟ هم يعيشون هنا ولايمكننا تركهم وحدهم .

وهم يواصلون هناك ، ستراهم عندما تذهب ، يمضغون ورق شجر الطّلح الجاف ويبتلعون لعابهم لخداع الجوع ، ستراهم يمرون كالأشباح ، ملزوقين فى حوائط البيوت ، تجرجرهم الريح تقريبًا .

- ألا تسمعون هذه الريح ؟ - سألتهم - . ستقضى عليكم .

- لتستمر ما عليها أن تستمره . إنها إرادة الله - أجابونى - . اختفاء الهواء أسوأ وأضل ، لو حدث هذا لاقتربت الشمس من « لوبينا » أكثر ومصّت دماءنا والمياه القليلة التى تختزنها جلودنا . الريح تبعدها ، وهذا أفضل .

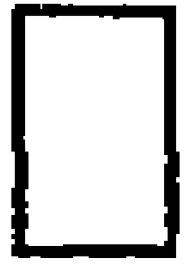
لم أقل لهم شيئًا بعدها ، خرجت من « لوبينا » ولم أعد ، ولا أفكر فى الرجوع .

. . . . لكن تأمل دوران عجلة الزمن . الآن ، أنت ذاهب إلى هناك خلال ساعات معدودة . لقد مضت خمسة عشر عامًا تقريبا على نفس ما قالوه لى :

« أنت ذاهب إلـى « سـان خـوان لوبـينا » . فى ذلك الحـين كنت محتفظًا بقواى ، كنت مـحملا بالأفكار . . . تعرف أنهم يلقنوننا أفكاراً . والواحد مـنا يمضى بهذا الصلصـال على رأسه ليـصوغـه ويشكله فى كل مكـان . لكنه لم يفلح فى « لوبينا » - جربت وفشلت . . . .

« سان خوان لوبينا » . يرنّ فى الأذن كـاسم عذب من الجنة ، لكنه هناك عذاب الجحيم . مكان محتضر ، ماتت فيه حتى الكلاب ، ولايوجد من ينبح على الصمت ؛ لأنه بمجرد التعود على الريح العاصف التى تهب هناك ، لايُسمع حينئـذ سوى الصمت القابع فى جمـيع الأرجاء الخاوية . وهذا يقـضى على الواحد . انظر إلىّ . لقـد تمكن منى . أنت ذاهب إلى هناك وستدرك سريعًا معنى ما أقول . . . .

ما رأيك لو طلبنـا من السّاقى أن يعدّ لنا كـمية من العَـرَقى ؟ شُرب الجعة يتطلب النهوض كثيـراً وهذا يقطع الحديث . « كاميلو » ، أحضر لنا بعض العرقى ! نعم ، كنت أقول لك. . . . » .



لكنه لم يقل شـيئًـا . ظل محـملقًـا فى سطح المائدة حيث تـقلب الأرَضَات المحترقة الأجنحة مثل دودٍ عار .

فى الخارج مازال يُسمع تقدم الليل ، بَرْبَطة النهـر فى سيقان النباتات المتسلقـة ، صياح الأطفـال الذى ابتعد الآن . ومن سـماء الباب الصغـير كانت تطلّ النجوم . الرجل الذى كـان ينظر إلى الأَرَضات مال على المائدة واستغرق فى النوم .

الليلة التى تركوه فيها وحيدًا

– لِمَ كل هذا البطء ؟ – سأل « فيليثيانو رويلاس » من يسيران فى المقدمة – . سننام على هذا الإيقاع . ألا يهمكما الوصول بسرعة ؟

– سنصل فجر الغد – أجاباه .

كان هذا آخر ماسمعه منهما . كلماتهما الأخيرة . لكن وقت تذكره لهذا لم يحن بعد ، موعده اليوم التالى .

كان يمضى ثلاثتهم هناك ، ونظراتهم صوب الأرض ، محاولين الاستفادة مما يشى به ظلام الليل من وضوح .

« الظلمة هكذا أفضل ، حتى لايرونا » . قالا هذا أيضًا ، قبل كلماتهما الأخيرة بقليل ، أو ربما الليلة السابقة . لم يعد يتذكر ، لأن النعاس كان قد طمس تفكيره .

الآن ، عند صعود الجبل ، شاهده قادمًا من جديد ، أحس به عندما اقترب منه ، وطوّقه وكأنه يبحث عن العضو الأشد تعبًا إلى أن اعتلاه ، وجثم فوق ظهره المُحَمَّل بالبنادق .

كان يمشى بسرعة ، بينما كانت الأرض منبسطة ، ولما أخذت فى الارتفاع ، تأخر ، بدأت رأسه تتحرك ببطء ، أكثر بطئًا من مُعَدّل تحوّل خطواته إلى القِصَر . تجاوزه الآخران ، هما الآن يسبقانه بينما يواصل مؤرجحًا رأسه النائم .

أخذ يتأخر . كان الطريق أمامه ، في مستوى عينيه تقريبًا ، وثُقْل البنادق ، والنعاس المتسلّق هناك فوق ظهره المنحنى .

سمع تلاشى خطواتهما : هذا الوَقْع الأجوف للأقدام الذى ظل يسمعه لا أحد يدرى منذ متى ولا خلال كم من الليالى : « من « لامجدلينا » إلى هناك ، الليلة الأولى ؛ بعد ذلك من هناك إلى هنالك ، الليلة الثانية ؛ وهذه هي الثالثة . قد لاتكون كثيرة - قال لنفسه - لو أننا نمنا أثناء النهار .

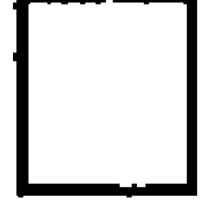
لكنهما رفضا : « يمكنهم إلقاء القبض علينا ونحن نائمون - قالا- . هذا أسوأ » .

- الأسوأ لمن ؟

الآن ، يفك النوم وثاق لسانه ، يجعله يتكلم : « قلت لهما لاداعى لمواصلة السير : نرتاح اليوم . وفى الغد سنسير بهمة ونشاط ، وسنجرى إذا لزم الأمر » .

توقف وعيناه مطبقتان . قال : « ما الذى سنجنيه من وراء الاستعجال ؟ يوم ؟ لايستحق العناء ، بعد الأيام العديدة التى أضعناها » . صاح على الفور : « أين أنتما ؟ » . وفيما يشبه الهمس : « اذهبا ، إذن ، اذهبا » . تكوّر إلى جوار جذع شجرة . كانت الأرض رطبة هناك وتحول العرق إلى ماء بارد ، لابد أن هذا هو الجبل الذى حدثاه عنه ، الجو فاتر هناك تحت ، وفى الأعالى هنا يتسلل البرد إلى ما تحت عباءته : « كأنهم يخلعون قميصى ويدلكون جلدى بأكفهم المتجّمدة » .

جلس فوق الطحالب ، فتح ذراعيه ، وكأنه يريد قياس حجم الليل ، لكن سياج الأشجار احتجزهما . استنشق هواءً معبقًا برائحة زيت التربنتينا . دلف بنعومة فى النوم ، وأحس بالخدر يستولى على جسده .



أيقظه برد السحر . رطوبة الندى .

فتح عينيه . شاهد ، فوق الأغصان المعتمة ، نجوما تتألق فى سماء وضّاحة « الليل فى بدايته وستغرق الدنيا عما قريب فى الظلام » ظن هذا ، ونام من جديد .

نهض عند سماعه صيحات ووقْع مضغوط لحوافر على البحر الجاف للطريق . ضوء أصفر يمسك بتلابيب الأفق .

مرّ الحمّارون ، وهم ينظرون إليه . ألقوا عليه بالتحية : « صباح الخير » ؛ لكنه لم يرد .

تذكر ما كان عليه أن يفعله . لقد بزغ النهار ، وكان عليه أن يعبر الجبل أثناء الليل لتفادى البصّاصين . كانا قد أخبراه أن هذه المسافة من الطريق تتطلب حيطة أكثر وهى الأوْلى من غيرها بالتَسَتُّر .

أمسك بحزمة البنادق ورفعها فوق ظهره . ابتعد عن الطريق وتوغّل فى الجبل ، باتجاه شروق الشمس . صعد وهبط ، متجاوزاً روابى وعرة .

بدا له وكأنه يسمع الحمّارين يُدْلون بأوصافه : « رأيناه هناك في الأعالى ، أوصافه كذا وكذا ، ويحمل أسلحة كثيرة » .

ألقى بالبنادق على الأرض ،لينفك من قيوده ، أحس بالخفّة حينئذ وأطلق ساقيه للريح وكأنه يسابق الحمّارين فى الهبوط .

كان عليه أن « يصعد نحو القمة ، يدور حول الهضبة ثم يهبط » . هذا ما كان يفعله ، كان ينفذ تعليماتهما بالحرف الواحد ، بالرغم من تأخرها عن الوقت المحدد .

وصل إلى حافة الوِهاد ، شاهد السهل الرمادى الكبير هناك بعيداً.

« لابد أنهما هناك ، يستريحان تحت أشعة الشمس ، خاليا البال » ، حسب هذا .

ألقى بنفسه ليهبط الوهدة ، يتدحرج ويجرى ليعود للتدحرج من جديد .

« العون ياإلهى » ، كان يقول ، ومرات تدحرجه كانت تزيد على مرات جريه كلما هبط .

بدا له وكأنه مازال يسمع الحَمَّارين عندما ألقوا عليه بالتحية : « صباح الخير » ، وأحس بما كانت تنطوى عليه أعينهم من خداع . سيبلغون أول بصّاص يقابلهم فى الطريق : « رأيناه فى المكان الفلانى . ولن يتأخر فى الوصول إليه » .

بقى ، فجأة ، بلا حراك .

« ياللمسيح ! » قال . كان على وشك الصياح : « يعيش المسيح رب الأرباب ! » ، لكنه كبح جماح نفسه ، سحب المسدس من الجراب ووضعه جاهزاً تحت قميصه ، وأحس به يداعب لحم جسده . أعطاه هذا شجاعة . اقترب من مخيمات « أجوا زَرْكا » على أطراف أصابعه ليشاهد جلبة الجنود المتحلقين حول شعلات عظيمة من النيران .

وصل إلى سور الحظيرة واستطاع رؤيتهما بوضوح ؛ التعرف على وجهيهما : كانا هما ، عمه « تانيس » وعمه « ليبرادو » . كان عمّاه معلقين من رقبتيهما فى شجرة وسط الحظيرة ويتأرجحان ، بينما يطوف الجند حول ألسنه اللهب .

بدا أنهما لايلقيان بالاً للدخان المتصاعد من الشعلات ، والذى كان يغطى بسحبه أعينهما الزجاجية ويُعَفِّر وجهيهما .

لم يتحمل مواصلة النظر إليهما . زحف بجوار السور وانزوى فى ركن ، مريحا جسده ، مع أنه كان يحس بدودة تتلوى فى معدته .

من فوقه ، سمع شخصاً يقول :

- ماذا تنتظرون لإنزال هذين ؟

- ننتظر وصول الآخر . أخبرونا أنهم ثلاثة ، ولابد أن يكونوا كذلك . يقولون إن الناقص فتى حديث السِّنّ ؛ ومهما كان عمره فلن يشفع له ، لأنه هو الذى نصب الكمين للنقيب « بارّا » ورجاله وقضى عليهم ، لابد وأن يقع بين أيدنا كما وقع هذان الآخران الأكبر سناً والأكثر خبرة .

وحيطة . يقول سيدى القائد إذا لم يظهر الثالث من الآن وحتى الصباح سنعلق بدلا منه أول شخص يمر بالموقع ، وبهذا الشكل نكون قد نفذنا الأوامر .

- ولماذا لانخرج للبحث عنه ؟ ولو من باب كسر حدّة الملل الذى نشعر به .

- الأمر لايحتاج . إنه آت لاريب ، فهناك مجموعة تمشط جبل « كومنخا » وستنضم إليها جماعة الفيلق الرابع عشر المدربة حديثًا على مثل هذه المهام . يستحسن تركهم ليمسحوا المنطقة العالية بكاملها ويثيروا الهلع بين قاطنيها .

- هذا شىء طيب ، لكن بشرط ألا يكلفوننا نحن أيضا بعد انتهاء هذا الأمر بالسير فى نفسه الاتجاة لعمل شىء مشابه .

انتظر « فيليثيانو رويلاس » حتى تهدأ ثائرة المغص الذى يهتصر معدته .

استنشق بعد ذلك كمية كبيرة من الهواء وكأنه سيغطس فى الماء ، وبدأ ينحنى إلى أن انبطح على الأرض وأخذ يزحف ، دافعًا جسده بيديه .

عندما وصل إلى منحدر جدول الماء ، رفع رأسه وأطلق ساقيه للريح ، شاقًا لنفسه طريقًا بين نباتات الحَلْفاء ، لم ينظر خلفه ولم يتوقف عن الجرى حتى أحس بذوبان الجدول فى السهل .

توقف عندئذ . تنفس بعمق وفرائصه ترتعد .

نقطة العبور إلى الشمال

- أنا مسافر إلى مكان بعيد ، ياأبتاه . أتيت لأحيطك علمًا بهذا .

- وإلى أين أنت ذاهب ؟

- إلى الشمال .

- ولماذا تذهب إلى هناك ؟ أليس لك عمل هنا ؟ ألا تـعمل فى تجارة الخنازير ؟

- كنت . أما الآن فلا ، الأسبوع الماضى لم نجد ما نشترى به طعامًا والأسبوع الذى قبله أكلنا سلْقا فقط . الجوع منتشر انتشار النار فى الهشيم ، ياأبتاه ؛ لاتصلك رائحته لأنك تعيش فى بحبوحة .

- ماذا تعنى ؟

- أقصـد أن الجوع فـى كل مكان ، وأنك لاتحس به . تبيع أسلـحة وذخيـرة وباروداً وبأثمانـها تقضى حـوائجك وزيادة . ومـادامت الحروب والنزاعات لاتنتهى سيظل المال ينهمر عليك كالمطر ؛ لكن حالتى مختلفة ، ياأبتاه . لـم يعد أحد يُقبل على تربية الخنازير في وقتنا الراهن . وإذا ربّاها تأكلها أنت وأمـثالك ، وإذا باعها فبـأسعار مرتفـعة ، وفوق هذا وذاك لم يعد المـال اللازم لشرائهـا متوافـراً . تجارة الخنـازير عـفى عليهـا الزمن ، ياأبـتاه .

- وماذا ستفعل في الشمال ، بحق الشياطين ؟

– أجمع المال ، ألم تر كـيف عاد « الكارمـيلو » غنيًا ، لقد أحـضر حتى حاكيا (جرامافون) ويتقـاضى على كل رأس خمسة ملليمات مقابل سماع مـوسيقاه . يذيع فـيه كل ألوان الموسيقى من أول الرقـصات وحتى الأغانى الحزينة لتلك المغنية التى يسمـونها « لا أنديرسون » ؛ كله بتعريفة موحدة ، والناس يتزاحمون فى صفوف مـن أجل السماع وليعمروا جيوبه بوافر الأموال . وكما ترى ؛ فليس علـىّ أكثر من الذهاب والعودة ، لهذا حزمت أمرى وقررت السفر .

– وأين ستترك زوجتك وأولادك ؟

– جئت إليك من أجل هذا ، لكى تتولى رعايتهم .

– أتظننى مرضعتك ؟ إذا ذهبت فـأمرك وأمرهم على الله ، لا أطيق الآن تربيـة الأطفال ، لقـد أدّيت ما علىّ وزيادة بتـربيتك أنت وأخـتك ، عليهـا الرحمة . من اليوم فـصاعدًا لا أريد تحمل أدنى مـسئولية ، وكـما يقول المثل : « إذا كان الجرس لايدق فلأنه يخلو من المدقّة » .

– لا أدرى ماذا أقـول ، ياأبتاه ، لقـد حيرتنى . مـاذا استـفدت من تربيتك لى ؟ أعمالا شاقة متواصلة ، لقد تركتنى وشأنى بمجرد أن تفتحت عيناى على هذا العـالم . لم تعلمنى حتى صناعة السلاح ، كـما لو كنت تخشى منافستى لك . ألبسـتنى قماطا وإزارا وألقيت بى فى عرض الطريق لكى أتعلم العـيش من كدّى ، والآن تَرُدُّنى من بيـتك خاوى الـوفاض . والنتيجة : أننا هالكون لامحالة من الجوع ، أحفادك وابنك هذا وزوجته ، أى كل سلالتك ، على وشك لَفْظ الأنفاس جوعـًا ، أتعتقد أن هذا عدل أو مشروع ؟

- وما عـلاقتى أنا بكل هذا ؟ لماذا تزوجت ؟ لقـد تركت البيت دون أن تفكر فى استئذانى .

- فعـلت هذا لنفورك المستمـر من « لاترانسيـتو » . كنت تسيىء معـاملتها دائمًـا كلما أحضـرتها ، ألا تذكر أنك لم تكلف حـتى خاطرك برؤيتها عندما جاءت أول مرة : « هاهى ، ياأبى ، الفتاة التى أنوى الزواج بها » . عندما أخذت تتـكلم بالشعر وقلت إنك تعرفها بما فـيها الكفاية ، كما لو كانت إحـدى الساقطات . وتفوّهت بكَبَّة من الأشياء لم أفـهمها ، لهذا السبب لم أحضرها ثانية . لا أطلب منك الآن سوى رعايتك لها لأن قرار سفرى لارجـعة فيه ، لايوجد حاليًـا أىّ عمل هنا ، ولا حتـى أمـل فيه .

- هذا محض افـتراء ، بالعمل يجد الإنـسان ما يطعمـه ، وبالطعام يعيش . لقد بلغت من الكبر عتيًا ومع هذا لا أشكو . ومنذ أن كنت شابًا يافعًا لم يرد على لسانى مثل هذا الكلام ؛ كـان معى ليس فقط ما يكفينى بل ما يغطى نفقـات مغامراتى النسائية التى لاتحـصى . عائد العمل يغطى جمـيع المتطلبات بما فـيها جميع الغـرائز الجسدية . كل مـا فى الأمر أنك عبيط . ولاتقل لى إننى علمتك هذا أيضًا .

- لكـــنك والدى . وكـان الأجـدر بـك أن تضـعنى علـى الطريق الصحيح ، لا أن تطلقنى كجواد جامح بين حقول الذرة .

- كنت فـارع الطول يوم أن تركت البـيت ، أكنت تريد منى تحـمل مسئوليتك إلى الأبد ؟

السحالي وحدها هي التي ترتبط بمخابئها حتى ساعة موتها . أعترف أن الأمور سارت معك على ما يرام وأنك تزوجت وأنجبت أولادًا ، كثيرون غيرك لم يعرفوا هذا طول حياتهم ، مروا على الدنيا مرور الكرام مثل مياه الأنهار ، دون أن ينعموا بمشرب أو بمأكل .

- لقد ضننت عليّ حتى بتعلم القريض الذى تبرع فيه ، ولو علمتنى لكنت كسبت على الأقل شيئًا من وراء تسلية الناس به كما تفعل. قلت لى يوم طلبت منك ذلك : « عليك بتجارة البيض ، ودع نظم القصائد لغيرك » . وبدأت بتجارة البيض لأتحول إلى الدجاج ثم إلى تجارة الخنازير التى تمتعت فى كنفها بالسِّتْر ، كما يقولون . لكن المال ينفد ؛ يأتى الأولاد ويرتشفونه كالماء لكى لايبقى منه شىء لمزاولة المهنة . فى هذه الأيام لايوجد من يضع ثقته فى رجل مفلس . أخبرتك الآن أن السَّلْق الذى لم نجد غيره طعامًا قبل أسبوعين تعذر علينا الحصول عليه الأسبوع الماضى . لهذا أنا ذاهب . قد لاتصدق ، ياأبى ، لو أخبرتك أننى ذاهب والحزن يهتصرنى لأننى أحب أولادى ولا أرغب فى فراقهم ، على خلاف ما فعلت أنت بفلذتى كبدك عندما ألقيت بهما فى عرض الطريق بمجرد أن شَبَّا عن الطَّوْق .

- يابنى ، ضع ما أقوله لك الآن حلقة فى أذنك : فى عش الدواجن الجديد ، لابد وأن تحتفظ ببيضة . عندما ترفرف عليك الشيخوخة بجناحيها ستتعلم كيف تعيش ، ستدرك كيف يفارقك الأبناء ، دون أن يشكروا لك صنيعًا ؛ يطمرون حتى ذكراك .

- هذا بيت خالص من الشعر .

- سيكون بالفعل ، لكنها الحقيقة .

- أنا لم أنساك ، كما ترى .

- جئتنى عندما دفعتك الحاجة . لو كانت أمورك مستقرة ما تذكرتنى . أحسست بالوحدة منذ وفاة أمك ، ولما ماتت أختك أصبحت وحدتى أشد وطأة ؛ وعندما تركتنى أيقنت أننى سأظل وحيدًا بقية عمرى . وتأتى الآن قاصداً إثارة عواطفى وتحريكها ثانية ؛ لكن أتعرف أن بعث ميت أصعب بكثير من بث حياة جديدة ؟ تعلم شيئًا . غشيان الطرق يعلم الكثير . ما حَكَّ جلدك مثل ظفرك ، وهذا ما يجب أن تفعله .

- أفهم من هذا أنك تتهرب من رعايتهم ؟

- اتركهم هنالك ، لا أحد يموت جوعًا .

- أخبرنى صراحة أنك قبلت الوصية ، لا أريد الذهاب قبل التأكد .

- كم عددهم ؟

- لايزيدون عن ثلاثة أولاد وبنتين بالإضافة إلى زوجة الابن التى تسترد شبابها من جديد .

- تقصد أنها تسترد سلوكياتها المعيبة .

- كنت زوجها الأول . كانت عذراء . إنها طيبة . لاتستمر فى جفائك لها ، ياأبى .

- ومتي ستعود ؟

- سريعًا ، ياأبـى . سأعود بمجرد تحقـيق الهدف الذى أنا ذاهب من أجله ، سأعطيك ضعف ما ستنفقه عليهم . قدِّم لهم كل ما يحتاجونه من طعام ، هذا كل ما أوصيك به .

من النجوع والعِزَب يتجه الناس إلى القرى ، ويذهب أهل القرى إلى المدن . وفى المدن يضـيعـون ؛ يذوبون بين طوفان البـشر . « ألا تعـرف مكانًا به عـمل ؟ » . « نعم ، عليك بالذهاب إلى مدينـة « خواريث » . بإمكانى تسهـيل سفرك إلى هناك وتفـويتك من نقطة المراقبة نظـيـر مائتـى پيزو . ابحث عن فلان الفلانى وأخـبره أنك من طرفى . إيّاك وإفشاء هذا السر لأحد » .

« حسنا ، ياسيدى ، ستكون النقود عندك غدًا » .

- اسمع ، يقـولون إنهم يحتاجـون عمالاً فى « نونو ألكو » لتـفريغ القطارات .

- ويدفعون ؟

- بالطبع ، الكيلة بقرشين .

- صحـيح ؟ أفرغـت أمـس حوالى طـن مـن المـوز بالقـرب مـن « لاميرثى » وأعطونى عدة أصابع آكلتها . أتضح فى النهاية أنه سُرِق منهم ولم يدفعوا لى شيئًا ؛ حتى أنهم اتهمونى وسلمونى للشرطة .

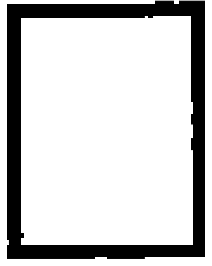
- العمل فى السكة الحديد يتسم بالجدية . إنه شيء آخر . إذا كنت مستعدًا فعليك به .

- ولِمَ لا !

أنزلنا بضائع من القطارات من شروق الشمس إلى غروبها وفاض من البضائع ما يكفى لعمل يوم آخر . أعطونا أجرنا . عددت النقود : أربعا وستون بيزو . آه لو تسير كل الأيام على هذا المنوال !

- سيدى ، أحضرت لك المائتى بيزو .

- حسنًا . سأعطيك ورقة لزميلنا فى مدينة « خواريث » . احتفظ بها ولاتضعها ، سيساعدك فى عبور الحدود ولن يتركك إلا وعقد العمل فى يديك . فى الورقة عنوانه وتليفونه لكى تتصل به فى أقرب فرصة . لا ، لن تذهب الى « تكساس » . أسمعت عن مدينة « أو ريجون » ؟ . حسنا ، قل له إنك تريد الذهاب إلى « أوريجون » . لجمع التفاح ، هذا أنسب لك . ابتعد عن جنى القطن . (باين عليك راجل نبيه) . قَدِّم نفسك لـ « فرناندث » . لاتعرفه ؟ . حسنا ، اسأل عنه . وإذا كنت لاتريد جمع التفاح سيجعلك تعمل فى تثبيت فلنكات قضبان السكك الحديدية . العمل الأخير عائده أكبر ومدته أطول ، ستعود محملا بالدولارات . لاتُضع الكارت .



- أجهزوا علينا ، يا أبى .

– على من ؟

– علينا . أطلـقوا عليـنا الرصاص ، أثناء عبور النهـر ، ومزقونا أربًا .

– أين ؟

– هناك ، عند نقطة العـبور إلى الشمـال ، أضاءوا علينا الكشّـافات بينما كنا نتجاوز النهر .

– لماذا ؟

– لا أدرى ، يا أبتـاه . أتذكر « إسـتانيـسلاو » هو الذى أوعـز إلىّ بالسفـر إلى هناك . حدثنى عن خبـرته الطويلة بمسألة السفـر وعن إدراكه لكل دقائقها ، وذهبنا أولا إلى « مكسـيكو » ومنها إلى نقطة العبور . كنا نعبـر النهر عندمـا حصدونا ببنادق « الموزر » . عـدت أدراجى لأنه توسل إلىّ قائلا : « أخرجنى من هنا ، يابن بـلدى ، لاتتركنى » . عندما طلب منى هذا كان مسـتلقيًا على قفاه وجسـده أشبه بمصفاة من كـثرة الرصاص الذى اخترقه . سحبته ، جـرجرة ، قدر استطاعتى وابتعدت به عن ضوء الكشافات التى كانـت تبحث عنا . قلت له : « أنت حىّ » ، فأجـابنى : « أخـرجنى من هنا ، يابن بلدى » . قـال لـى بعد ذلك : « لقـد تمكنوا منى » . كنت مـصابًا بـطلـق نـارى فى إحدى ذراعـى وعظـمة كـوعى ليست فى مكـانها ، لهذا مددت له يدى السليمة وقلت له : « تشـبث بهـا جـيدًا » .

مات منى على ضفة النهر جهتنا ، قبالة أنوار قرية تقع داخل حدودنا وتسمى « أوخـيناجا » ، بين نبـاتات الأسْل التى لاتزال تمشط النهـر وكأن شيئًا لم يكن .

رفعـتـه على الشـاطـئ وسألتـه : أما زلت حـيًا ؟ . لم يجب . أمضـيت بقية الليـل إلى جـواره أحـاول بشتى الطـرق إعـادة الحياة إلى « الإستانسـيلاو » ؛ دلكت جميع أطرافه ونفـخت فى رئتيه لكى يلهث ، لكنه لم ينبس بِبِنْت شـفة . اقترب منى آخـر النهار أحد موظفى مـصلحة الهجرة والسفر .

- أنت ! ماذا تفعل هنا ؟

- أرعى هذا الميت .

- أنت الذى قتلته ؟

- لا ، ياسيدى الجاويش - رددت عليه .

- لا أُمُتّ بصلة لأىّ جاويش . من قتله إذن ؟

عندما رأيتـه مرتدياً البدلة الرسمـية وعليهـا النسور تلك حسبـته من الجيْـش ، ولـم يتطرق إلىّ الشك فى هذا عندما شـاهدت الطبنجـة كبـيرة الحجم متدلية من وسطه .

كرر سؤاله : « من قتله ، إذن ؟ » .

وظل يكرر ويكرر إلى أن أمسك بشعر رأسى وأخذ يهزنى بعنف وأنا لاحول لى ولاقوة ، لا أستطيع الدفاع عن نفسى لذراعى المصاب .

قلت له : - لاتضربني ، كوعي مهشم .

توقف حينئذ عن توجيه الضربات لي .

- ماذا حدث ؟ ، تكلم .

أضاءوا علينا الكشافات بالليل . كنا ذاهبين ونشوة العبور إلى جانب الآخر من الحدود تسكرنا وعندما وصلنا إلى عرض النهر انهمر الرصاص علينا كالمطر . لم نستطع تفاديه ، أنا وهو الوحيدان اللذان استطاعا الخروج ، وإن كان الإنصاف يقتضي القول بأن واحدا فقط هو الذي أفلت لأن الثاني ، كما ترى ، قضى نحبه .

- ومن هم الذين أطلقوا عليكم الرصاص .

- إننا حتى لم نرهم . غمرتنا أضواء كشافاتهم وانهالو علينا ، لم نسمع سوى دويّ طلقات بنادقهم ، إلى أن أحسست بكوعي ينفجر وسمعت هذا يستغيث بي : « أخرجني من الماء ، يابن بلدي » . مع أن رؤيتهم لم تكن ستنفعنا بشيء .

- لابدو أنهم كانوا من « الأباتشي » .

- أيّ « أباتشي » ؟

- جنس من الهنود ، يعيشون على الجانب الآخر .

- أليس أهالي « تكساس » هم الذين يعيشون على الجانب الآخر ؟

– نعم ، لكنها تعجّ بالأباتشى ، يبدو أنك لاتعـرف شيئًا . سأتركك وأذهب إلى « أو خـيناجـا » لأبلغهم حـتى يرسلوا من يحـمل صـديقك وعليك بالاسـتـعداد للعـودة إلى بلدك . من أين أنت ؟ مـا كـان عليك مغادرتها . معك نقود ؟

– أخذت ما كان فى جيب الميت مـن نقود قليلة ، لعلها تعيننى على العودة .

– لدىّ هنا مخصـصات لرعاية المغتربين . سـأعطيك ثمن التذكرة ؛ ولو لمحتك ثانيـة هنا سأجعلك تعض أنـامل الندم ، لايروق لى رؤية وجه إنسان مرتين . هيا ، اذهب .

– وأتيت ، ياأبتاه ، لأقص عليك ما جرى .

– حدث لك هذا بسبب بلاهتك وغبائك ، وعندما تذهب إلى بيتك ستُصدم بعاقبة إصرارك على السفر .

– هل حدث ما يعكر الصَّفْو ؟ مات أحد الأولاد ؟

– « لاترانسـيتـو » هربت مع بغّال . كنت تتـغنى بطيبـتهـا ، أليس كـذلك ؟ أولادك نائمون بالـداخل . أما أنت فـعليك بالبـحث عن مكان تُمضى فيه الليل ، لأننى بعت دارك لكى أسـدد نفقات أسرتك ، ومازلت مدينًا لى بثلاثين « پيزو » قيمة العقود .

– حـسنًا ، لن أنكر عليك مـا فعلت ، يـاأبى . ربما أجد فى الغـد عـمـلاً هـنـا لكـى أسـدد مـا عـلىّ مـن ديـن لـك ، فى أى اتجاه ذهبـت « لاترانسيتو » مع البغّال ؟

- من هذا الاتجاه . لم أدقق النظر .

- لن أغيب طويلا ، أنا ذاهب للبحث عنها .

- أية وجهة تأخذ ؟

- التى أخبرتنى أنها هربت منها .

ألا تذكر !

(فـــاكـــــــر) « أوربـــانـــو جـــومـــــث » ، ابن « دون أوربانو » ، حفيد « دياس » ، ذلك الذى كان يقود الفرقـة الغنائية للكنيسة ومات عام الطاعون أثناء إنشاده « دمدم أيهـا الشيطان الملعون » . مضى زمن طويل ، خمسة عشر عامًـا تقريبًا ، لكن لابد وأنـك مازلت تتـذكره . كنـا نسـميـه « الجد » لأن ابنه الثانى ، « فيدنثيـو جومث » ، كانت له ابنتان لعوبتان : واحدة سمـراء وضامرة مثل شـجرة السنديان كانوا يلقــبونــها « الخنساء » نكاية فيها ، والأخرى متـينة البنيان وطويلة ولون عينيها أزرق فاتح ، ولذا كان يُشاع أنها ليست ابنته ومن علاماتها المميزة مرضها بالفُواق (الزُّغُطّة) . تتذكـر الجـلبة التى كـانت تثيرها أثـناء القُدّاس عندما كـانت تعتـريها نَوْبة الفُواق ، وكان يبدو أنها تبكى وتضـحك فى آن واحد ، وكانوا يخرجونها من الكنيسـة ويعطونها ماءً مُحَلًّى بالسكر لكى تهـدأ . تزوجت فى نهاية المطاف من « لوثيو تشـيكو » ، صاحب معـمل الخمور الذى ابتـاعه من « ليبرادو » الذى كان يسكن عند أعالى النهر حيث توجد معصرة بذور الكتّان التى يمتلكها آل « تيودولوس » .

تتذكر أن أمـه كانوا يلقبونها بـ « الـباذنجانة » بسبب تورّطها المسـتمر وأنها كـانت تخرج من كل وَرْطة بصبى . يُقـال إنها كانت غنيـة ، لكنها بددت أموالها فى الإنفاق على مراسم الجنازات العـديدة ، فقد مات جميع أولادها وهم صغار وكانت تحرص دائمًا على تشييعهم إلى مثواهم الأخير

وسط الموسيقى وجوقات القساوسة التى تتلو جميع الأوراد الدينية من أول « المجد فى الأعـالى » إلى تلك الأنشودة التـى يقول مطلعـها : « ها أنذا أرسل إليك ، أيها الرب ، بملاك آخر » . لقد تحولت من الغنى إلى الفقر بسـبب ارتفاع تكاليـف الدَّفن ، ولأنها كـانت تُقَـدِّم القرفـة وغيـرها من المشروبات للمعزيـن والنـادبات . لم يعش لها سوى اثنين : « الأوربـانو » و « لاناتاليا » ، اللذين وُلدا فقـيرين ولم تنعم أمهما برؤيتهمـا يترعرعان لأنها مـاتت أثناء آخر ولادة لهـا . قد يكون كبـر سنها هو السـبب لأنها كانت على مشارف الخمسين وقتها .

لابد وأنك تعـرفهـا ، فقـد كانت عـدوانية ولاتملّ من الدخـول فى مشاحنات مع الباعة فى السوق مُدَّعِـية أنهم يريدون بيع الطماطم لها بسعر مرتفـع ، كانت تصرخ بـأعلى صوتهـا وتقول إنهم يسـرقونهـا . بعد أن افتقرت ، كانت تُشاهد وهى تحوم حول مقالب القمامة لجمع أعناق البصل وقرون الفاصولـيا وهشَم القصب « لتُسْكر بها فاه ولديهـا » ، لم يتبقَ لها سوى اثنين ، كـما سبق وأخـبرتك ، الوحيـدان اللذان خرجت بهـما من الدنيا . انقطعت أخبارها بعد ذلك .

« أوربانو جومث » هذا كان فى عـمرنا تقريبًا ، يكبرنا فقط بـبضعة أشهر ، ويجيد لعبة الحجلة والرمى بالسهم . تتذكر أنه كان يبيع لنا الزهور البريّة قريبة الشبه بالقرنـفل وكنا نشتريها منه بالرغم من أن قَطْفها من التلّ كان الأسـهل لنا . كان يبيع لنـا ثمرات المانجو التى يسـرقها من الأشـجار الموجودة فى فناء المدرسـة ، ويبيع لنا بخمـسة ملليمات البـرتقال والفلفل الحـار الذى اشتـراهما من على البـوّابة بمللـيمين فقط . كـانت مِخْـلاته

كالمستودع ، تعج بأشياء كثيرة تافهة : كرات زجاجية ، أبواق ، صُفّارات ، وجعــارين خضراء من تلك التى تُربط إحــدى قدميــها بخيط حــتى لاتطير بعيدًا .

كان يبيع لنا كل شىء ، ألا تذكر ! .

كان صــهر « ناتشيــتو ريبيــرو » ، ذلك الذى أصيب بالعتــه بعد أيام قليلة من زواجه واضطرت امــرأته ، « إيناس » ، لنَصْب كشك فى الطريق العام تبــيع فيه مشـــروب العَـــرَقى لكى تُنــــفق على نفسها ، بينما كان « ناتشيــتو » يتــعيش من عزف الأغــانى العاطفــية فى دكان حــلاقة « دون ريفوخيو » على آله المندولين التى استعارها .

كنا نذهب مع « أوربانو » لرؤية أخته ولتناول مــشروب العرقى الذى لم نسدد ثمنه أبــدًا لأن أيدينا لم تعرف شكل النقود . بــقى بعد ذلك بلا أصدقاء ؛ لأننا جميعا كنا نعطيه ظهورنا بمجرد أن نراه حتى لا يطالبنا بمـــا علينا لأختــه ، ربما انحدرت أخلاقه إلى الســوء من جرّاء تلك الظروف ، ويحتمل أيضًا أنه كان مولودًا بها .

طردوه من المدرســة قــبل أن يكمل الصف الخــامس الابتــدائى لأنهم ضبطوه وهو يمارس مع ابنة عــمه ، « الخنساء » ، لعبة العــريس والعروسة فى بئر جاف خلف دورة المياه ، وبقصد تبكيته والســخــرية منه ، أمسكوه من أذنه وعرضــوه على البنين والبنات المصطفين فى الفناء ثم أخــرجوه من الباب الرئيسى للمــدرسة وسط ضحكات الجميع . اخترق الصــفوف رافعًا هامته ومتوعدًا الحـــشد بقبضة يده وكأنه يقول لهم : « ستدفعون ثمن هذا غاليًا » .

فعلوا الشيء نفسه مع « الخنساء » التي خرجت وصدرها يغلي كالمرجل ونظرتها تخدش قوالب الآجُرّ ، وعندما وصلت إلى الباب أخذت تصرخ صريخًا ظل يُسمع طيلة المساء وكأنه عواء ذئب .

كل ما في الأمر أن ذاكرتك تخونك أكثر مما ينبغي وتجعلك تنسى .

يقولون إن أباها « فيدنثيو » ، صاحب المعصرة ، ضربها علقة ساخنة كادت تصيبها بالشلل ، وإنه ترك القرية حسرة وكمدًا .

الشيء المؤكد أنه اختفى بعدها ولم نعد لرؤيته إلا عندما أصبح رجل شرطة وظهر من جديد هنا لأداء مهام وظيفته . لم يكن يفارق مقعده في ميدان السلاح وبندقيته بين ساقيه يتطلع إلى الناس بمقت ونفور شديدين ، لم يكن يتحدث أو يوجه التحية لأحد وإذا نظر إليه شخص يتجاهله وكأنه لايعرف الناس .

كان حينذاك عندما قتل صهره ، عازف المندولين . سولت لـ « ناتشيتو » نفسه بالذهاب إليه ليلا ، قبل الثامنة بقليل ، أثناء دقّ الأجراس لنوبة « صعود الأرواح » ، لكي يعزف له إحدى أغاني المساء . سُمعت الصرخات حينئذ ، وعلى إثرها ترك المُصلّون الكنيسة وهرولوا إلى هناك حيث شاهدوهما « ناتشيتو » مستلقيًا على الأرض يدافع عن نفسه بآله المندولين و « الأوربانو » يسدد له بكعب البندقية الموزر ضربات متتالية دون أن يتنبه ، من شدة الغضب ، لصرخات الناس وكأنه كلب مسعور .

إلى أن انثل من بين الجـمـوع رجل غريـب ، ليس من هنا ، وهجم عليه وانتـزع منه البندقية وضـربه بها على ظهره فـسقط ممدداً على مقـعد الحديقة .

تركوه فى مكانه طيلة الليـل ، لكنه غادر البلدة فى الصباح البـاكر . يقولون إنه ذهب إلى الكنيـسة قبل رحيله وطلب المغفـرة من القسيس لكنه رفض أن يباركه .

قبـضوا عليه فى الطريق . كـان يعرج ، ولما جلس ليسـتريح وصلوا إليـه . لم يقـاوم . يقولون إنه هو الذى قام بتطويق عـنقه بالحبل واخـتار الشجرة التى حازت إعجابه لكى يعلـقوه عليها . لابد وأنك تتذكره ، كنا زميليه فى المدرسة وعرفته مثلى .

أتسمع نُباح الكلاب ؟

- أنت ، يامن تجثم هناك فوق ، « إجناثيو » ، أخبرني إذا كنت تسمع شيئًا أو تلمح ضوءًا من أية جهة .

- لايُرى شيء .

- لابد أن نكون قريبين .

- نعم ، لكن لايُسمع شيء .

- انظر جيدًا .

- لايُرى شيء .

- مسكين ، يا « إجناثيو » .

استمر الخيال الطويل والأسود للرجلين يتحرك صعودًا وهبوطًا ، يتسلق الحجارة ، يصغر ويكبر تبعًا لتقدمه على شاطئ النهر الصغير . كان خيالا واحدًا ، يتأرجح . كان القمر يتصاعد من الأرض مثل كتلة مستديرة من اللهب .

- المفروض أن نكون قد وصلنا الآن إلى تلك القرية ، يا « إجناثيو » . أنت يا من لايعوق أذنيك عائق هناك فوق ، أرهف السمع ، وانظر إذا كان يصل إليك نباح الكلاب . تذكر أنهم أخبرونا بأن « تونايا » تقع خلف الجبل بقليل ، وها نحن أولاء قد تركنا الجبل منذ ساعات .

لاتنسَ ، يا « أجناثيو » .

- لم أنسَ ، لكننى لا أرى أثرًا لشىء .

- التعب يقصم ظهرى .

- أنزلنى .

نكص العجوز على عقبيه حتى أسند عجزه على الحائط الكبير للوَهْدة ، وهناك عدّل حمولته دون أن يلقيها على الأرض ، لم يفكر فى الجلوس رغم ساقية الخائرتين ، لأنه لو فعل لما استطاع من جديد رفع جسد ابنه الذى عاونه آخرون ، قبل ساعات ، فى تحميله على ظهره . ومن وقتها وهو يسير به هكذا .

- كيف حالك ؟

- فى غاية السوء .

كان يتحدث قليلا . كل مرة أقل من سابقتها . تمر عليه أوقات يبدو فيها نائمًا ، وأوقات أخرى يتملكه البرد . كان يرتجف . كان يستدل على الوقت الذى تتملك فيه ابنه القشعريرة من هزّاته له ومن رجليه الملتصقتين بجنبيه كالمهمازين ، وأيضًا من يديه الملفوفتين حول عنقه عندما تحركان رأسه حركات توقيعية كما لو كانت صنوج دف .

كان يجزّ على أسنانه حتى لايعض لسانه وعندما يذهب هذا عن ابنه يسأله :

- تؤلمك جراحك كثيراً ؟

- شيء من هذا القبيل - كان يجيب .

قال له في البداية : « أنزلني هنا .... اتركني هنا .... اذهب وحدك . سألحق بك غداً أو عندما أسترد بعض عافيتي » . طلب منه هذا ما يقرب من الخمسين مرة ، أما الآن فلم يعد يقوى حتى على مجرد طلب هذا .

كان القمر هنالك . في مواجهتهما ، قمر كبير ملوّن يغمر عيونهما بالضوء ويبالغ في مطّ وتسويد خيالهما على الأرض .

- لا أرى موضع قدميّ ولا أدرى إلى أين ياخذاني - قال العجوز .

لم يجبه أحد .

الآخر كان معتليا هناك فوق ، ملفوفا كله بنور القمر ، بوجه ممتقع ، يخلو من قطرة دم ، عاكسًا ضوءاً معتمًا . وهو هنا تحت .

- ألم تسمعني ، يا « إجناثيو » ؟ أقول لك إنني لا أرى أمامي .

ظل الآخر صامتًا .

واصل سيره متعثراً ، كان ينكمش ثم يفرد قامته ليعود للتعثر من جديد .

- ليس هذا هو الطريق . أخبرونا أن « تونايا » على مرمى حجر بعد الجبل ، وها نحن أولاء قد تركناه وراء ظهرينا ولم تظهر « تونايا » ولايُسمع صوت يُستدل به على قربها . لماذا تستنكف عن إخباري بما ترى ، أنت يا من تجثم هناك فوق ، « إجناثيو » ؟

- أنزلنى ، ياأبى .

- أتشعر بألم ؟

- نعم .

- سأوصلك إلى « تونايا » مهما بَعُدت الشُّقة . سأجد هناك من يعتنى بك . يقولون إن بها طبيبًا ، وسأحملك إليه ، احتملتك ساعات لآتى بك ولن أتركك طريحًا هنا لينال منك أعداؤك .

ترنح قليلا . خطا خطوتين أو ثلاثة يُمنة ويسًارا ثم نصب قامته من جديد .

- سأحملك إلى « تونايا » .

- أنزلنى .

خرج صوته ضعيفًا ، قريبًا من الهمهمة .

- أريد الاضطجاع ولو قليلا .

- نم حيث أنت ، فأنا أمسك بك جيدًا .

كان القمر يواصل صعوده ، بلون يقترب من الزرقة ، فوق سماء صافية . غمر الضوء وجه العجوز المبلل بالعرق . أغمض عينيه لكى لاينظر أمامه ، إذ لم يكن باستطاعته طأطأة الرأس الذى تتشبت به يدا ابنه .

- لا أفعل هذا من أجلك ، بل من أجل المرحومة والدتك . أفعله فقط لأنك كنت ابنها ، كانت ستؤنبنى لو تركتك ممددًا هناك ، حيث وجدتك ، ولم ألملم شعثك وأحملك لمن يداويك ، كما أفعل الآن ، هى التى تبث فى روح العزيمة ، وليس أنت . لا أدين لك إلا بالمتاعب الجمة والتلظى بنيران العذاب وحمرة الخجل .

كان يتفصـد عرقًا أثناء كلامه ، لكن هواء الليل كان يتكـفل بتجفيف عرقه ، ويعود ليعرق من جديد فوق عرقه الجاف .

- سينكسر حُقِّى ، لكنى سأصل بك إلى « تونايا » لكي يعالجوا هذه الجروح التى أحدثوها بك . وأنا على يقين بأنك ستعـود سيرتك الإجرامية الأولى بمجرد أن تُشفى . لن يهـمنى هذا ، مادمت ستبـتعد عني وتنقطع أخبارك .

ما دمت . . . لأننى لم أعـد أشعر ببنوتـك . لقد دَنَّست الدم الذى يسرى فى عـروقك منى ؛ لهذا لعنت الجزء الذى يخصنى فـيك . دعوت الرَّب أن : « يفسد مـا تحتوى عليه كليتـاك من دمى » . قلت هذا بعد أن عرفت أنك تقطع الطرق ، وتعيش على السرقة وإزهاق أرواح الناس . . . المسالمين الطيـبين ، وإلا ، فماذا تقول فى أبى من العِـمَاد « ترانكيلينو » . الذى عَمَّـدَك أنت الآخر وأعطاك اسمـه ، ومع هذا لم تتورع عن قتله . من يومها قلت لنفسى : « هذا لايمكن أن يكون ابنى » .

- انظر حواليك لـعلك ترى أو تسمع شيـئًا . تستطـيع فعل هذا من علُ حيث تجلس ، لأننى بدأت أشعر بالصمم .

- لا أرى شيئًا .

- عاقبة هذا وخيمة بالنسبة لك ، يا « إجناثيو » .

- أنا عطشان .

– تحمل . لابد أننا قـريبان الآن ، نحن فى الهزيع الأخـير من الليل ولابد أنهم أطفأوا أنوار القـرية ، لكن ، على الأقل ، لابد وأن يكون قد تناهى إلى أذنك نباح الكلاب . أرهف السمع .

– أعطنى ماءً .

– المكان يخلو من الماء . لاتوجدْ سوى الحجارة . تحمل ، وحتى لو كان الماء مـوجودًا فلن أنزلك لتـشرب ؛ لأنه لايوجـد أحد يسـاعدنى فى حملك ثانية وأنا وحدى لا أقدر .

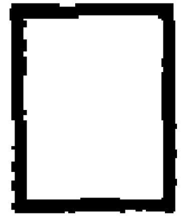
– العطش يقتلنى والنعاس يُثقل رأسى .

– أتذكـر أنك منذ ولادتك كنـت هكذا ، كنت تصـحـو من نومك جائعًا وتأكل ثم تعود للنوم . كانـت أمك تعطيك ماءً بعد أن تُفرغ ما فى صدرها من لبن ، لم تكن تمـتلىء ولاتشبع قط . وكنت غضـوبًا وحَنِقًا ، ولم أتخيل مطلقًا أن يصعد الحنق إلى رأسك بمرور الأيام . . . لكن هذا ما حدث ، وأمك ، عليها الرحمة ، كـانت تريد تنشئتك قوى البنية . كانت تعتقد أنك ستكون سندها عندما تـكبر . لم يكن لها غيرك . الابن الثانى الذى كانت ستلده قتلها ، وكنت ستقتلها ثانية لو عاشت وشاهدت ما أنت فيه .

أحس بتـراخى ركبـتى ذلك الرجل المُعْتلى ظهـره وبعدم تحكمـه فى قدميه وبشـروعه فى التمايل جهة اليمين وجـهة اليسار ، وبدا له أن الرأس الموجودة هناك فوق تنتفض وكأنها تنتحب .

أحس بتساقط قطرات سميكة فوق شعره ، مثل الدموع .

- أتبكى ، يا «إجنائيو » ؟ أهاجت مشاعرك ذكرى والدتك ، حقًا ؟ لكنك لم تُسدَ لها أىّ معروف ، لم نلقَ منك إلاجزاء سنمّار . يبدو أننا ، بدلا من الحنان ، ملأنا بالشر جسدك . ألاترى ؟ لقد أثخنوك بالجراح . وماذا جرى لأصدقائك ؟ قتلوهم عن بكرة أبيهم . لكنهم مقطوعين من شجرة ، دون أهل . وكأن لسان حالهم يقول : « لايوجد من يهمه أمرنا أو يحزنه مصيرنا » . أما أنت ، يا « إجنائيو » ، أنت ؟



هاهي القرية . شاهد أسقف المنازل وهى تلمع تحت ضوء القمر . تولد لديه الانطباع بأن ثقل ابنه يسحقه عندما أحس بانثناء مفاصله تحت وطأة آخر مجهود عليه أن يبذله . عندما وصل لأول بيت مال على حافة الرصيف وألقى بالجسد المُنْهك المُفكّك الأوصال .

تخلص بصعوبة من أصابع ابنه التى كانت متشبثة بعنقه ، وعندما تحرر من حمولته خال أن نباح الكلاب يأتى من جميع الاتجاهات .

- ألم تكن تسمعها ، يا « إجنائيو » ؟ - قال - . إنك لم تساعدنى حتى بهذا الأمل .

يوم الزلزال

- وقع هذا فى شهر سبتمبر من العام الماضى ، أم أنه كان فى العام ما قبل الماضى ، يا « ميليتون » ؟

- بل الماضى .

- نعم . مازلت أتذكر جيدًا . حدث فى سبتمبر من العام الماضى ، فى اليوم الحادى والعشرين . اسمع ، يا « ميليتون » ، ألم تحدث الرَّجْفة اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر ؟

- حدثت قبله بقليل . ما أعرفه أنها وقعت فى اليوم الثامن عشر .

- عندك حق . أنا كنت ، بالفعل ، خلال تلك الأيام فى « توثكاكويكسكو » ورأيت بعينى رأسى كيف تهاوت البيوت وكأنها مصنوعة من الحلوى ، بمجرد أن انثنت وعَوَّجت قسماتها جاء عاليها سافلها . كان الناس يخرجون مذعورين من تحت الأنقاض ويجرون وهم يصيحون نحو الكنيسة مباشرة . لكن ، انتظر . يبدو لى أنه لاتوجد كنيسة من أى نوع فى« توثكاكويكسكو ». أليس كذلك ، يا « ميليتون » ؟

- لاتوجد بالفعل . ليست هناك سوى أطلال يقولون إنها كانت لكنيسة قبل مائتى سنة تقريبًا ؛ لكن لا أحد يتذكرها ، ولا يتذكر كيف كانت ، الأطلال الباقية هناك تشبه حظيرة منسية موبوءة بنباتات الخروع .

- لأفُضّ فـوك . الزلـزال لـم يـقـع ، بالتـالى ، وأنـا فـى « وثكاكـويكسكو » بـل فى « ألبـوتشيـتى » دون شـك . لكـن ، أليست « ألبوتشيتى » قرية معظم سكانها من مربى الماشية والقطعان ؟

- نعم ، إنها تبـعد قليلا عن « ألكاتراثيس » ، وبـها مُصَلّى صغـير يطلقون عليه كنيسة .

- هى ، إذن ، التى لحقنى فيهـا الزلزال الذى أحدثكم عنه ، عندما ارتجفت الأرض بكامـلها وكأنهم يهـزون باطنها . بعـد أيام قليلة ؛ لأننى أذكر أننا كنا لانزال مشغولين برفع الحوائط من جـديد ، جاء الحاكم ليتفقد الموقع وليـري مـا يمكن أن يسـديه حـضـوره من صنيع . تعـرفـون ، حضراتكم . أن مـجرد حضور الحاكم ورؤية النـاس له كاف لأن يبقى كل شىء على ما يُرام . لُبّ القضية يكمن - على الأقل - فى قدومه لرؤية ما يحدث ، لا أن يظل حبيس قصره مكتفـيًا بإصدار التعليمات . وبمجرد أن يأتى يبـقى كل شىء تمام ، والناس ، الذين خرّت أسـقف بيوتهم فـوقهم يتـملكهم الحـبور للتشرف بطلـعـته البهيّـة . أليس هذا بصحـيح ، يا « ميليتون » ؟

- كل الصحة .

- حسنًا ، كما كنت أقول لكم ، فى سبتمبر من العام الماضى ، بعد وقوع الهزة الأرضية بقليل ، هبط علينا الحـاكم ليتفقد آثارها . لاتظنوا أنه جاء بمفرده ، بـل كان بصحبتـه علماء جيولـوجيا وآخرون عُرفـاء ببواطن الأمور . اسـمع ، يا « ميليـتون » ، كم كلفنا إطعام حـاشيـة الحاكم من أموال ؟

- أربعة آلاف « پيزو » تقريبًا .

- هذه نفقات نهار واحد لأنهم انقشعوا عندما حلّ المساء ، ولو بقوا أكثر من هذا لما استطاع أحد تقدير الخسائر التى كانت ستحيق بنا ، ومع هذا كانت الفرحة الغامرة تعلو كل الوجوه : أنهك الناس رقابهم من كثرة مدّها للتمكن من رؤية الحاكم ومن انهمار سيل تعليقاتهم عن كيفية ازدراده للديوك الرّومى ومصمصة عظامها وعن سرعة التهامه لأقراص الذرة ، قرصًا بعد آخر ، بعد غمرها بصلصة « الجواكامولى » * ؛ لقد أمعنوا النظر فى كل شاردة وواردة . كان فى غاية الهدوء والجدية أثناء تنظيفه ليديه فى الجوارب حتى لايوسخ المنشفة التى استخدمها فقط ، ومن حين لآخر ، لإزالة الغبار من على شاربه . وبعد ذلك ، عندما صعد تأثير نبيذ غرناطة إلى رءوسهم شرعوا فى الغناء بصوت واحد . اسمع ، يا « ميليتون » أتذكر الأغنية التى ظلوا يكررونها كالأسطوانه المشروخة ؟

- تلك التى يقول مطلعها ! « لاتشغل البال بنوائب الأيام » .

- (عفارم) عليك ، يا « ميليتون» . لايفوتك شىء . نعم ، كانت هى ، ولم يكن للحاكم من عمل سوى الابتسام ؛ سأل عن دورة المياه ، ولما انتهى عاد لإحتلال موقعه ثم مد أنفه للاستمتاع برائحة « بوكيه » الفلّ الموجود أمامه فوق المائدة . كان ينظر مبتسمًا

* الجواكامولى (guacamole) : صلصة تتكون من : كمثرى التمساح ، الملح ، البصل ، الفلفل الحار والجبن المبشور (المترجم) .

إلى المغنيين ويحرك رأسه متتبعًا نغمات اللحن . لامراء فى أنه كان منتشيًا وسعيدًا لسعادة شعبه ؛ ولِمَ لا ، وقد كان بالإمكان قراءة ما يعتمل فى صدره من مجرد النظر إليه . ولما حانت ساعة الخُطب وقف واحد من مرافقيه ، ذو وجه شامخ على صفحته اليسرى أثر اعوجاج ، وتكلم . لاشك فى أنه كان يحفظ عن ظهر قلب كل كلمة يقولها . تحدث عن « خواريث » الموجود عندنا فوق قاعدة بالميدان ولم نكن حتى تلك اللحظة نعلم أنه تمثال « خواريث » ، ومن أين لنا بالمعرفة ولم يسبق أن استطاع أحد الإدلاء بأية معلومة عن ذلك الشخص المتسلق لتلك القاعدة الحجرية . اعتقدنا دائمًا أن صاحب التمثال يمكن أن يكون « هيدالجو » أو « موريلوس » أو « بيتو ستيانو كارانثا » ، لأننا ظللنا نحتفل سنويًا بذكرى كل واحد من هؤلاء الثلاثة عند القاعدة نفسها ، إلى أن جاء ذلك الرجل الأنيق وأخبرنا أن التمثال يخص « دون بينيتو خواريث » . ياه ! على الكلام الذى قاله . أليس هذا بصحيح ، يا «ميليتون » ؟ لابد وأن ذاكرتك القوية مازالت تحتفظ بما تشدق به ذلك الرجل .

- أتذكره بجلاء ؛ لكننى سئمت من كثرة تكراره .

- حسنا ، وإن كنت بهذا قد فوت على هؤلاء السادة سماع شيء منقطع النظير ، لكننى فى المقابل أطالبك بأن تعيد على مسامعهم ما قاله الحاكم .

« ما يدعو للدهشة أن ذلك قد تحول من زيارة لمواساة الموجوعين والذين فقدوا ديارهم فى الزلزال إلى حفلة سُكْر وعربدة . تذكر أن فرقة تيبيك الموسيقية جاءت متأخرة عن موعدها لشَغْل حاشية الحاكم لجميع السيارات مما اضطر أفرادها لقطع المسافة سيرًا على الأقدام .

دخـــل الموسـيقيــون القــرية وهــم يقــرعــون أدواتهم بكــل ما أوتوا من قــوة . كانت الطبول الضخمة والأبواق تصـدر أصواتًا مزعجة ، بينما لم تكف الصنوج النحاسية الكبيرة عن الزعيق : « تاتا تشومْ ، تشومْ ، تشوم » *.

أما عن الوليمـة فحدث ولاحرج ، عندما بدأت خلع الحـاكم سترته وأرخى رباط عنقـه ، وبعد ذلك لم يعـد فى وسع أحد إيقـافهـا . كانوا محـاطين بدِنان لا حصـر لها من النبـيذ وأقـبلوا على التهـام لحم الأيائل بشراهة ، قد لا تصدّقـون أنه لم يدر بخلد أحدهم أنه كان يأكل لحم أيائل مما تغص بها المنطـقة . كنا نضحك عليـهم عند سماعـهم وهم يقولون إن لحم « البارباكوا » ** لذيذ للغاية ؛ لأننـا لانعرف هنا حتى مـا تعنيه هذه الكلمـة . ما عرفنـاه بالفعل وتأكـدنا منه هو أننا كنا بمجرد أن نقـدم لهم صينيـة مملوءة باللحم يطلبون غيرها وغـيرها لدرجة أن طاقم الخـدمة تفرغ لإحضـار المزيد من الصوانى ؛ وكـما قـال « ليبوريو » ، مـوظف الطوابع الأميــرية ، وأنا أضـع كــلامه بين قـوسين لأننى أتذكره بالحرف الواحد : « لتتكـلف هذه الحـفلة ما عليــهـا أن تتكلفه ، فـالمال لابد وأن تكون له فائـدة » ؛ وبعد ذلك جـاء دورك يا « ميليـتون » ، وكنت وقـتهـا رئيس المجلس المحلى ، لتقول ماأزعجنى وأثار استغرابى :

* « تاتاتشومْ ، تشومْ ، تشومْ » : الأصوات التي تصدرها تلك الآلة الموسيقية .

** البارباكوا (Barbacoa) ، نوع جيـد من اللحـــم المشوى لاتعرفه إلا الطبقـات الغنية الراقية . (المترجم) .

« ليجرى النبيذ كالأنهار ، فزيارة كهذه تستحقه » . وبالفعل سال النبيذ ، وهذه هى الحقيقة التى لاتشوبها شائبة ، لدرجة أن المفارش قد أحمرّ لونها . بدأ هؤلاء الناس وكأن بطونهم لاتعرف الامتلاء . لاحظت أن الحاكم لم يكن يتحرك من مكانه ؛ لم يكن يمد ولاحتى يديه ، بل اقتصر فقط على ازدراد الطعام وتجرع كل ما يقربونه منه ؛ ولم يدخر المنافقون والأفّاقون وسعًا فى تعبئة طاولته بكل ألوان الطعام حتى لم يعد بها متسع للملاّحة التى حملها الحاكم فى يده وعندما لم يجد لها مكانًا اضطر لوضعها فى جيب قميصه . عرفت هذا مصادفة عندما تقدمت إليه وسألته : « ألا تريد ملحا ، سيدى الجنرال ؟ » ، فما كان منه إلا أن أشار ، مبتسمًا ، إلى الملاّحة القابعة فى جيب قميصه .

أما العظمة فقد تجلّت عندما شرع فى الكلام . وقفت شعور رءوسنا من شدة التأثر والانفعال . أخذ ينهض رويداً رويدًا ، ببطء شديد ، حتي شاهدناه وهو يدفع الكرسى برجله إلى الوراء ؛ يحنى رأسه وكأنه يستعد للإقلاع ثم نحنحته التى أسدلت ستر الصمت على المكان . ماذا قال ، يا « ميليتون » ؟

- « الأخوة المواطنون - قال - اجتماعى بكم اليوم يعتبر تتويجا لمشوارى الحافل ، ويحيى الآمال فى تنفيذ الوعود التى قطعتها على نفسى . لقد شرفت من قبل بزيارة هذه الأرض وقت أن كنت زميلا مجهولا لمرشح الرئاسة ومستشارًا عامًا لذلك الرجل الذى لم تنسلخ أبدًا نزاهته عن مضمون تصريحاته السياسية التى تنطلق من قاعدة صلبة قوامها المبادئ الديمقراطية ذات الصلة الوثيقة بنبض الجماهير ، والتى تمزج فى بوتقة واحدة التقشف وخلاصة المثالية الثورية المترعة ، حتى الآن وبشكل لم يسبق له مثيل ، بالإنجازات والقرارات الصائبة » .

- تعالت الأكف بالتصفيق هنا ، أليس كذلك ، يا « ميليتون » ؟

- نعم ، كان تصفيقًا حادًا . تابع بعد ذلك :

« وكما ترون ، ياإخوانى ، فإن سياستى مضت قدمًا الى الأمام دون تحريف أو زيغ . عندما كنت مرشحًا لم أسرف فى الوعود ؛ لأننى قطعت على نفسى عهدا بألا أعد إلا بما يمكن تنفيذه وأن يكون هدف الإنجازات الصالح العام لا المصلحة الفردية أو مصلحة فئة بعينها . وهانحن نجتمع اليوم لمجابهة كارثة طبيعية لم يتوقعها برنامج الحكومة .

« تمامًا ، سيدى الجنرال - صاح واحد من هناك - . تماما ، قلت هذا وقولك الحق » .

« . . . وفى هذا المقام لا أخفى عليكم أننا بمجرد أن علمنا بعقاب الطبيعة هذا سارعنا بالحضور ، واللوعة تعتصرنا ، إلى بؤرة الحدث الذى خرّب ديارا كان يمكن أن تكون ديارنا ، بل إنها كذلك بالفعل ؛ ونحن نجتمع هنا ، لابدافع النزوة « النيرونية » * للتشفى والاستمتاع بمآسى الغير بل لمد يد العون وللإعلان عن استعدادنا الوشيك بتوحيد الجهود للبدء فى العمل من أجل إزالة آثار الزلزال ، ولتقديم واجب العزاء الأخوى للبيوت التى فتّ الموت فى عضدها . هذا المكان الذى كان يرفل فى حلل السعادة عندما زرته منذ سنوات ، عندما لم يكن لى فى السلطة مطمع ، يحزننى ويزلزل كياني رؤيته الآن في ملابس الحداد . نعم ، ياإخوانى المواطنين ، تلهبنى سياط جراح الأحياء الذين ضاعت ممتلكاتهم وأنّات أولئك الذين فقدوا ذويهم تحت هذه الأنقاض الماثلة أمام أعيننا » .

* نسبة إلى « نيرون » ، الامبراطور الذى حرق روما وجلس فوق إحدى القمم القريبة ليستمتع بمشاهدة النيران (المترجم) .

- هنا حدث أيضا تصفيق ، أليس كذلك يا« ميليتون » ؟

- لا ، بل سُمعت من جديد الصيحة السابقة : « تمام ، سيدى الحاكم ! قلت هذا وقولك الحق » . وبعدها قال واحد من هناك : « أسكتوا هذا المخمور » .

- آه ، فعلا . كما بدت بوادر شغب فى الصفوف المواجهة للمنصة الرئيسية ، لكن الهدوء سرعان ما خيم على الجميع عندما استأنف الحاكم حديثه .

« أهالى توثكاكويكسكو » الكرام ، يلح على الإفصاح عن ألمى لنكبتكم ، فبالرغم من مقولة « بيرنار » الشهيرة ، « بيرنار ديّاث دل كاستيو » العظيم : « الرجال الذين لقوا حتفهم كانوا على موعد مع الموت » ، إلا أن الوازع الإنسانى والتبحر فى علم الأحياء يحملانى على تجاوز هذه العبارة لأهتف من صميم قلبى : يؤلمنى بشدة ما حدث ألمًا يضارع الألم الناجم عن رؤية شجرة اجتثت من جذورها وهى في ريعان الصبا . سنساعدكم بما لنا من سلطة ، ولا أذيع سراً إن أشرت إلى أن جميع أجهزة الدولة وعلى رأسها المسئول الأول تعبىء كل قواها من أجل نجدة المضارين فى هذه المذبحة التى لايتمناها أحد ولم يسبق لها مثيل ، وأنا من هذا المكان أجدد الوعد بالوفاء بما قطعته على نفسى قبل انتهاء مدة رئاستي . ومن جهة أخرى ، لا أعتقد أن إرادة الله لها دخل فى هذه البلوى التى حلّت بكم وخربت دياركم . . . » .

- كان هذا آخر كلام سمعته منه . ما قاله بعد ذلك لم أفهمه لأن الجلبة التى انطلقت من الصفوف الخلفية علت وارتفعت وأصبح من العسير متابعة باقى الخطبة .

- فى غاية الصحة ، يا « ميليتون » ، فأنت لم تكن قريبًا من تلك الصفوف لترى ما حدث ، ولذا سأحاول أن أسرد عليك كل وقائعه . حدث أن الشخص نفسه ، وهو من الحاشية ، أخذ يزعق من جديد : « تماما ! تماما ! » بصوت كالرعد كان يصل إلى الشارع . وعندما تكاثروا عليه وأسكتوه سحب مسدسه وأخذ يقذفه فى الهواء ، من فوق رأسه ويتلقفه ليطلق الرصاص تجاه السقف ثم يعود ليقذفه ويتلقفه ، وهكذا دواليك حتى أفرغ خزانه المسدس . كل من كان قريبًا منه ورأى هذا المشهد البهلوانى أطلق ساقيه للريح فرارا بجلده . انكفأت الطاولات من جرّاء الركض العشوائى وارتفع صوت تكسير الأطباق والزجاج وتَهَشُّم الزجاجات التى كانوا يلقونها على صاحب المسدس وكانت تتعداه لترتطم بالحائط . والآخر ، الذى كان مازال لديه وقت لاستبدال الخزانة بأخرى مملوءة شرع فى إفراغها بالطريقة نفسها بينما كان يتطوح يُمْنة ويسارًا متفاديًا الزجاجات الطائرة المُسَدَّدة إليه من كل حدب وصوب .

« لو شاهدتم الحاكم لرأيتموه واقفا هناك وقد علاه التجهم ، ينظر إلى مصدر الشغب وكأنه يريد أن يخمده بنظرته .

« لا أحد يدرى من الذى استنجد بالموسقيين وطلب منهم عزف أية مقطوعة ، المهم أنهم انبروا فى عزف « النشيد الوطنى » بكل ما لديهم

من قوة لدرجة أن الطبول كانت على وشك الانفجار من شدة الخبط ، لكن جهودهم ضاعت سدى واستمر الوضع على ما كان عليه . ولم يقتصر الأمر على الشغب المشتعل بالداخل ، بل نشبت فى الشارع أيضًا معركة طاحنة . جاءوا ليخبروا الحاكم بوقوع اشتباك بالسَّنَج بين لفيف من المواطنين ؛ كان الخبر صادقًا تمامًا لأننا كنا نسمع من مكاننا هنا أصوات النساء وهى تولول قائلة : افصلوا بينهم ، لأنهم سيقتلون بعضهم ! ولم تكد تمر دقائق معدودات حتى سمعنا صرخة أخرى تقول : لقد قتلوا زوجي ! اقبضوا عليهم ! . ظل الحاكم واقفا فى مكانه ، دون أن يتململ . أسمع ، يا « ميليتون » ، أتعرف الكلمة التى تقول . . .

– رباطة الجأش .

– نعم هى ، رباطة الجأش . المهم أن الشغب الذى جرى فى الخارج كان سببًا ، على ما يبدو ، فى عودة الهدوء إلى الداخل . كان مخمور الـ « تمامًا . . . » نائمًا ، أصابته إحدى الزجاجات الطائرة وبقى مستلقيًا على الأرض بكامله . اقترب منه الحاكم حينئذ وأخذ المسدس الذى كان لايزال قابضًا عليه بكلتا يديه تحت تأثير الإغماء . أعطاه لآخر ثم قال له : « عليك به وأشرف بنفسك على إلغاء ترخيص حمله للسلاح » ، وأجاب الآخر : « أمرك ، سيدى الچنرال » .

« لا أدرى لماذا استمرت الفرقة الموسيقية فى عزف « النشيد الوطنى » إلى أن قام الرجل الأنيق ، الذى تحدث فى بدايه الحفل ، برفع يديه مطالباً بالتزام الصمت حدادًا على أرواح الضحايا . اسمع ، ياميليتون ، أى ضحايا كان يقصد عندما طلب منّا الصمت ؟

- ضحايا الهزة الأرضية .

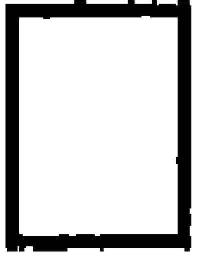
- حسنًا ، كان لضحايا الزلزال إذن . جلس الجميع بعد ذلك وعدّلوا الموائد ثانية وواصلوا احتساء النبيذ وغناء تلك الأغنية : « لاتشغل البال بنوائب الأيام » .

أتذكر للآن أن حادثة الشغب تلك ، جرت فى الحادى والعشرين من سبتمبر ؛ هذا لأن زوجتى وضعت ابننا « ميريتشيو » فِى ذلك اليوم نفسه ، وأنا وصلت الى البيت فى الهزيع الأخير من الليل فى حالة أقرب للسُّكْر منها الى الفَوَقان . خاصمتنى ولم تكلمنى لأسابيع طويلة متهمة إيّاى بتركها وحيدة ساعة الجد . ولما ذهب عنها الغضب قالت لى إننى كنت عديم المروءة ؛ لأننى لم أساعدها حتى ولو بطلب الدّاية وأنها عندما لم تجد مخرجًا توكلت على الله ، الذى لم يخذلها ، واعتمدت على نفسها .

تَرِكَة " ماتيلدى أركانخل "

فى « كوراثون دى مــاريا » كان يعيش ، منذ زمن ليس ببــعيد ، أب وابن يطلق الناس عليــهما لقب « لوس إيريميــتس » ؛ ربما لأن الاثنين كانا يسميان « إوريميوس » : الأول ، « إوريميــو ثيديّو » ؛ والثانى ، « إوريميو ثيديّو » أيضًا ، ومع هذا فــقد كــان التميــيز بينهما فى غاية اليُسْر ، ذلك لأن الأول كان يتقدم الثانى بخمس وعشرين سنة مستوفاة بكاملها .

يكمن الاستيفاء في مَا مَنَّ به الخالق على « أوريميو » الكبير من طول قامة ومتانة بنيان . وعلى خلاف هذا شاءت حكمة الرّب أن تصوغ الصبى على صورة مناقضة تمامًا ، حتى أنهــا تنسحب كذلك على العقل والفهم . وعلاوة على النحافة التى تكبل الفتى فقد كان يعيش ، إذا كان لايزال ينعم بالحــياة ، مطحــونًا طحن حجــر بالكراهية ؛ والحق الــذى لامراء فــيه أن نكبــته تتمثل فى قدره الذى ألقى به فى خضم الحياة ذاتها .



كان أشــد الناس له بغضًا والده ، أو على الأصح أبى من العــماد ؛ لأننى من عَمَّد له الصبى ، ويبدو أن ما فعــلته كان مجازفة بكل المقاييس نظرا لقامته ، . كان رجلا ضخم الجثة ، بلغ من الضخامة مبلغًا يجعل من

الشجاعة أمرا لاغنى عنه للوقوف إلى جواره ولاختبار قوته ولو بمجرد النظر . وإذا حدث ووجه إليه أحد نظرة ، فإنه كان يعتبرها صادرة عن سوء طويّه أو للزراية به . لم يكن للناس من حديث فى « كوراثون دى ماريا » والمناطق المجاورة إلا عن الحالة الفريدة لرجل لايتوقف عن النمو إلى أعلى ، فى حين أنهم يتميزون هناك بالقِصَر والنماء بالعرض ؛ لقد كان معروفًا أن تلك النواحى هى منبت قصار القامة ، وإن القِصَر هو سَمْت أناسها حتى فى الطبائع .

أرجو ألا يشعر بالإهانة أحد الحضور لو تصادف وكان من هناك ، وإن كنت لا أحيد قيد أنملة عن رأيى .

والآن أعود إلى حيث توقفنا ، إلى بداية حديثى لكم عن بضعة أشخاص كانوا يعيشون حتى وقت قريب فى « كوراثون دى ماريا » . كان « إوريميو » الكبير يمتلك ضيعة يطلقون عليها « لاس أنيماس » ، أخذت أطرافها تتآكل بمرور الأيام نتيجة للعديد من أوجه الخلل ، وعلى رأسها اللامبالاة وعدم الحرص ، إذ لم يرد بخاطره بتاتًا تَرْك شىء لابنه ، وهو ابنى من العماد كما سبق وأخبرتكم . احتساها بكاملها فى أقداح العرقى الذى كان يحصل عليه ببيع أرضه قطعة قطعة وبقصد ألا يجد الفتى عندما يكبر ما يعينه على التشبث بالحياة . وقد تحقق له ، تقريبًا ، ما كان يصبو إليه . فإذا كان الابن قد استطاع ، فى غير قليل من العَنَت ، الارتفاع قليلا عن الأرض فإن الفضل فى دلك يرجع لبعض المحسنين الذين ساعدوه على أن يقيم أوَدَه ؛ فلم يكن أمره يعنى والده الذى كان يبدو وكأن الموت أهون عليه من مجرد رؤيته .

لكى نستوعب كل هذا لامناص من العودة الى إلوراء ، إلى ما قبل ولادة الفتى بكثير ، وربما إلى ما قبل تَعَرُّف « إوريميو » نفسه على من ستكون والدته .

الأم هى « ماتيلدى أركانخل » . وبين قوسين أضع أنها لم تكن من « كوراثون دى ماريا » ، بل من مكان قصىّ يدعى « تشوپا ديروس » ، لم يذهب إليه أبداً « ثيديّو » هذا وربما اقتصرت معرفته له على ماكانت تتناقله الألسن . فى ذلك الوقت كانت خطيبتى ؛ لكن الواحد لايدرى ما تخبئه له الأقدار ، وهكذا فعندما قدّمته للفتاة ، قاصداً – من جهة – الزهو عليها ولأستحثه – من جهة أخرى – على التطوّع بوكالة حفل الزفاف ، لم يدر بخلدى أن نبع مشاعرها تجاهى سينضب سريعًا ولا أن تنهيداتها الحارة سيعتورها البرود أو أن آخر سيفوز بقلبها .

– عرفته بعد ذلك .

ومع هذا ، أرى من الواجب قطع الاستطراد لأحدثكم عن « ماتيلدى أركانخل » وأعرفكم من تكون ، وهذا ما سأفعله فى التَّوّ . سأحكى لكم دون عجلة . برويّة . فليس لدينا ما نخسره وأمامنا حياة بأكملها تنتظر .

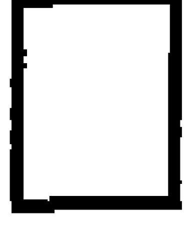
هى ابنة السيدة « سينيسيا » ، صاحبة خان « تشوپاديروس » ؛ مكان انشقت عنه الأرض – كما يقولون – ، وعنده كان ينتهى عملنا اليومي . وهكذا فكل بغّال يطوف بتلك النواحى تناهى إليه خبرها واستطاع أن يمتع عينيه بالنظر إليها. فى ذلك الوقت كانت « ماتيلدى» ، قبل أن تحتجب ، صبية تتسلل كالماء من بيننا جميعًا .

وفي يوم لم نحسب له حسابًا ، ودون أن ندرى كيف ، تحولت إلى امرأة يانعة ، نبتت لها نظرة حالمة كانت تخدش بها وترشقها داخل الواحد كمسمار يصعب اقتلاعه . اكتظت شفتاها بعد ذلك وكأنهم أزالوا نضارتهما من كثرة القُبَل . أصبحت الفتاة ، بإجماع جميع الأذواق ، آية في الجمال . لاغضاضة في أن يحس الواحد بأنها كثيرة عليه . تعرفون حضراتكم ، لأن هذا الواحد بغّال ، لايوجد ما يحول بينه وبين الهيام بها ، أو لكى يحدث بها نفسه أثناء طوافه بالطرق .

لكن الطرق المؤدية إليها كانت أكثر طولا من جميع الطرق التى قطعتها طوال حياتى لدرجة أننى اعتقدت أننى لن أبرأ أبدًا من حبها . والمُحَصِّلة ، فوز « إوريمو » بها .

عندما عدت من إحدى جولاتى علمت أن صاحب ضيعة « لاس أنيماس » ابتنى بها . اعتقدت أن الطمع هو الذي جرجرها وربما ما كان عليه الرجل من ضخامة . لم أعدم أبدًا تبريرات لذلك . ما آلمنى هنا فى المعدة ، المكان الأكثر تأثرًا بالمواجع والاخزان ، هو نسيانها لهذه اللُّمة من الشياطين الفقراء التى كانت تذهب لرؤيتها والهجعان تحت لفح نظراتها ، وعلى وجه الخصوص أنا ، « تراتكيلينو إيريِّرا » ، خادمكم الأمين ، والذى عاهدته بالقبل والأحضان وزيادة . وبالرغم من هذا فلو تدبرت الأمر مليًا لأدركت أن الإحساس بالجوع كفيل باستعداء أى حيوان على المروق من سياج حظيرته ؛ ومما لاشك فيه أن بطنها لم تعرف الشِّبع كما ينبغى ، والسبب فى هذا كثرتنا التى جعلت المؤونة لاتكفى ، ولأنها – من جهة أخرى – كان دائمًا مستعدة لانتزاع اللقمة من بين شفتيها وإيثارنا بها .

سمنت بعد ذلك ، وضعت مولوداً ثم ماتت ، قتلها جفول حصان .



قدمنا لتعميد المولود . أحضرته بين ذراعيها . لا أستطيع إخباركم بالتفاصيل حول أسباب وكيفية جفول الحصان ، لأن غايتى هى الانطلاق صوب الأمام . أتذكر فقط أن لون الجواد كان أحمر فاتحًا . مّر إلى جوارنا كغمامة رمادية ، ما رأيناه كان أقرب إلى الريح منه إلى الجواد ؛ وحيداً، ملوثًا بطين يشبه طين الأرض تقريبًا . تخلفت « ماتيلدى أركانخل » ، كانت مزروعة على مقربة من هناك بوجه غائص فى مستنقع . ذلك الوجه الذى أحببناه حبًا جمًّا ، متواريًا الآن فى الطين ، وكأنه شرق بالدم الذى كان يتدفق كالينبوع من جسدها الذى لا يزال ينتفض .

فى تلك اللحظة لم تكن منّا . كانت متاعا خالصًا لـ « إوريميو ثيديّو » ، الوحيد الذى روّضها لتكون له . والأكثر من ترويضها أنه توغل فيها إلى ما هو أبعد من ضفاف اللحم ليهبها غلامًا . وهكذا فلم يكن قد تبقى لى منها ، آنذاك ، سوى الطّيف أو ربما مزّقة شجية من الذكرى .

ومع هذا لم أستسلم لقدرى بعدم رؤياها . سعيت لتعميد ابنهما لكى استمر بالقرب منها ، بصفة الأب من العماد ليس أكثر .

لهذا مازلت إلى الآن أحس بذلك الهواء يمر إلى جوارى ؛ الهواء الذى أطفأ جذوة حياتها وكأنه يواصل هبوبه على الواحد .

خَصَّنى القدر بمهمة غلق عينيها المترعتين بالماء ؛ وتعديل فمها الذى عوجته سكرة الموت : ذلك الجزء الذى انتابها وأخذ ، بالتأكيد ، يتنامى بداخلها أثناء مشوار جموح الجواد إلى أن أحَسَّت بسقوطها فى النهاية . أخبرتكم أننا وجدناها مقوسة فوق الغلام . كان لحمها قد بدأ يجف ، متحولا إلى قشرة بفعل العصارة التى أفرزتها طوال الوقت الذى استغرقته محنتها . كانت عيناها مفتوحتين ومُسَدَّدتين إلى الطفل . قلت لكم إنهما كانتا مخضلتين بالماء ، لاتحسبوه دموعًا ، بل ماء قذرًا من المستنقع الطينى حيث انغمس وجهها . من الفرحة التى كانت تطل من عينيها بدا أنها ماتت مسرورة لأنها لم تسحق ابنها فى السَّقْطة . سبق وأخبرتكم أننى تكفلت بإغلاق تلك النظرة التى ظلت تحتفظ بدعابتها التى عهدناها فيها وهى على قيد الحياة .

دفنّاها . ذلك الفم ، الذى كان الوصول إليه ضرب من الخيال ، لم يمانع فى الامتلاء بالتراب . شاهدنا كيف تختفى بكاملها ، خانعة ، فى أعماق الحفرة ، وتتوارى عنا هيئتها إلى غير رجعة . وهناك ، كان « إوريميو ثيديّو » واقفًا مثل مشنقة هائلة . قلت لنفسى : « لو تركها وشأنها فى « تشوپاديروس » ، فلربما ظلت تنعم إلى الآن بالحياة » .

« الذنب ذنب الغلام – أخذ يقول – . لو لم يكن معها ما حدث لها مكروه » . كان يقول أن الغلام أخذ يصيح مقلدًا صوت البومة ، والجواد الذى كانا يمتطيانه يفزع لأتفه الأسباب ، وأنه حذّر الأم التحذير الكافى إلى حد إقناعها بمغبة السماح للصبى بإصدار هذا الصوت . كان يقول أيضا إنه كان بوسعها حماية نفسها عند السقوط ؛ لكنها أقدمت على شىء مخالف تمامًا : « قوّست جسدها لتصنع فراغًا للصبى حتى لا تضغط عليه بثقلها . وهكذا ، فجميع الملابسات تشير بإصبع الاتهام

للغلام ، الذى يطلق صفيرًا يثير فـزع أشجع الشجعان ، فلأجل ماذا أحبـه ، ولا فائدة ترجى من ورائه . كان بـإمكان الأخرى أن تهبنى أكـثر وجميع الأولاد الذين أحـلم بهم ؛ لكن هذا لم يترك لى حتى الاستـمتاع بها » . وهكذا كـانت تنفلت منه أشيـاء وأشياء لدرجـة أن الواحد أُشْكل عليه ولم يعد يدرى إذا كان ما يفـعله نابعًا من شدة الألم أو من الإحساس بعقدة الذنب تجاهها .

ما تبـين لى على وجه اليـقين هو المقت الشديد الذى عـشش بداخله تجاه الغلام .

وبسبب مـا سردته على مسامـعكم من بدايته ، استـسلم « إوريميو » للكأس وأفـرط فى الشـراب ، بدأ بتغـيـيـر قطع من أرضـه بزجاجـات العرقى ، وانتـهى به الحال إلى شرائهـا بالبراميل . أنا نفـسى ، جاء علىّ الدور مرة لأشحن متن بغلة عن آخره ببراميل خالصة من العرقى مخصصة لـ « أوريميو » . لقد أودع كل طاقته هنا : فى الشرب وفى ضرب ابنى من العماد حتى تكلّ يداه .

وعلى هذا المنوال دارت رحى سنوات عديدة . وبرغم هذا كبر الغلام متوكئًا على شفـقة بعض المحسنين ؛ لايكاد يشد من أزره سوى فطرة حب الحـياة التى اندفع بهـا من رحم أمه . كان يصبح كل يوم ممـزقًا شرّ ممزق من الأب الذى كان يعـتبره نذلا وقاتلا ؛ وهـو وإن كـان قـد أحجـم عن قتلـه إلا أنه سعـى ، علـى الأقـل ، للقـضـاء عليـه جوعًا حـتى ينسـيه وجـوده - لكنه عـاش . وعلى النقـيض ، تدهورت صـحـة الأب بمرور الأيام ، وحـضـراتكم وأنا والجـمـيع نعـلم أن الزمن أشـد وطأة من أى

حمل باهظ يمكن أن يطيقه كـاهل الإنسان . وهكذا ، فبالرغم من استمرار تعهده لأحقاده فـقد أخذت الكراهية تتقلص شيئًا فـشيئًا ، إلى أن انقلبت حياته إلى وحدة تمشى على رجلين .

لم أكن أحفل بهما كثيرًا . عرفت ، لأنهم قَصُّوه علىّ ، أن ابنى من العمـاد كان يعـزف على القيثـارة أثناء نوم أبيه من شـدة السُّكْر . لم يكن أحدهما يكلم الآخر ولاينظر إليه ؛ ومع هذا كان صوت القيثارة يُسمع فى جمـيع أرجـاء « كوراثون دى مـاريا » بعد أن يُرخى الليل سـدوله ؛ وفى بعض الأحيان يستمر سماعها إلى ما بعد انتصاف الليل بشوط طويل .

حـسنًا ، حـتى لا أطيل عليكم، ذات يـوم هادئ ، من تلك الأيام التى تفيض بها هذه القـرى ، اجـتازت مجـمـوعة من مثـيري الشغـب « كوراثون دى ماريا » . لم يحـدثوا ضوضاء تقريبًـا ، لأن الشوارع كانت مَكْسُـوَّةً بالحشـائش ؛ وهكذا جاء مـرورهم صامـتًا ، بالرغم من امـتطاء الجميع للجياد . يقولون إن المكان كـان غارقا فى الهدوء وأنهم عبروا دون إحداث أى ضـجيج ، حـتى أنه كان يُسـمع صـياح « السمور موخو » * وصراخ الجداجد ** ؛ ما كـان يُسمع أكثـر منهم هو صوت قيـثارة انضم إليهم حـينما مروا بدار « لوس إيريميتس » وأخـذ يذهـب ، مبتعدًا ، حتى تـلاشى .

* « السمور موخو » : طائر ذو منقار مستقيم وحاد . يطير طيرانًا قصيرًا وبإمكانه البقاء فترة طويلة تحت الماء . (المترجم) .

** الجداجد : نوع من الذباب ، طوله ٣ سنتيمترات ، مستدير الرأس ، لونه أسود مُشَرَّب بحمرة ، يحدث عند طيرانه أزيزا حادًا ورتيبًا (المترجم) .

لاأحد يعلم هوية مثيرى الشغب هؤلاء ولا ماذا كانوا يصنعون . الشيء المؤكد ، وهذا ما قصُّوه علىّ أيضًا ، أن فرقًا من القوات الحكومية اجتازت هى الأخرى القرية بعد أيام قليلة دون أن تتوقف . وأن « إوريميو » العجوز ، الذى كان السقم قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا ، انتهز الفرصة وطلب الانضمام إليهم بحجة الأخذ بثأر له من أحد المتمردين المطاردين من تلك القوات . وافقوا . خرج من داره ممتطيا جوادا والبندقية فى يده ، راكضًا للحاق بالقوة ، كان فارع الطول ، كما سبق وأخبرتكم ، وبدا ، وهو مكشوف الرأس ، أشبه بيبيرق منه إلى رجل ، ذلك لأنه لم يهتم بالبحث عن القبعة .

انقطعت أخبارهم لعدة أيام . استمر الهدوء مخيما . وَصَلْتُ فى تلك الأثناء ، كنت قادمًا من « تحت » ولم أسمع هناك أيضا خبراً أو إشاعة ، إلى أن بدأت تَتْرى جموع من البشر . « فواعلية » ، تعرفون حضراتكم : أُجَراء من هؤلاء الذين يمضون شطرًا من حياتهم فى العمل بسفوح الجبال ولاينزلون إلى القرى إلا لحاجة أو لأمر جلل ، الآن أنزلهم الفزع . وصلوا قائلين إن معركة طاحنة تدور رحاها هناك فى الرُّبى منذ عدة أيام ، ومن هنا جاء رُسُوُّهم الاضطرارى .

فات المساء دون رؤية أحد يمر . وصل الليل . ظن البعض أنهم سلكوا طريقًا آخر . كنا ننتظر خلف الأبواب المغلقة ، أعلنت ساعة الكنيسة التاسعة ثم العاشرة ، ومع دقّات الساعة كان يُسمع ما يشبه صوت النفير . وبعده خَبَب الجياد ، مددت عنقى حينئذ لرؤية من يكونون ، ورأيت لُمَّةً من مرتدى الأسمال على خيول عجفاء ؛

البعض يُقَطِّر دمًا ، والبعض الآخر نائمًا ، بالتاكيد ، لأنهم كانوا يطوحون رءوسهم فى الهواء .

عندما انتهى طابور عرض الأشباح المعتمة التى تتميز بالكاد عن سواد الليل ، أخذنا نسمع ، منخفضًا فى البداية وأكثر وضوحًا بعد ذلك ، صوت قيثارة . وبعد فترة وجيزة شاهدت ابنى من العماد ، « إوريميو » ، قادمًا على صهوة جواد « إوريميو ثيديّو » . كان راكبًا على كَفَل الحصان ، وباليد اليسرى يعزف على قيثارته لحنًا موجعًا ، بينما تمسك اليمنى بجسد أبيه المستلقى بالعرض على السَّرْج .

« أنكليتو مورونيس »

آه منكن ، أيتها العجائز ، ياحَفَدة الأبالسة ! رأيتهن قادمات ، فى موكب ، متشحات بالسواد ، يتصببن عرقًا كالبغال تحت وهج الشمس . رأيتهن من بعيد يُثرن الغبار مثل قطيع من البهائم ، جميعهن سوداوات . كنّ آتيات من طريق « أمولا » رافعات ، فى الحرّ ، أصواتهن بالغناء والصلوات ، بتمائمهن الكبيرة الداكنة التى يتساقط عليها العرق بغزارة .

رأيتهن يصلن واختبأت ، كنت أعرف وِجْهتهن وعمن يفتش . لهذا أسرعت بالاختباء فى مؤخرة الحظيرة ، راكضًا والسروال لايزال بيدى ، لكنهن دخلن وعثرن علىّ . صحن قائلات : « المجد لمريم البتول ! » . واقتربن أكثر .

كنت مقعيا فوق حجر ، ساكنًا ، جالسا هناك وحسب دون إتمام لبس السروال ، لكى يرونى هكذا ولا يقتربن ، لكنهن لم يقلن سوى : « المجد لمريم البتول ! » ، وواصلن الاقتراب .

يالكن من عجائز وقحات ! ألا تعرفن حمرة الخجل ! أشرن على أنفسهن بعلامة الصليب واقتربن إلى أن وقفن إلى جوارى ، كلهن ، متجاورات مثل أعواد فى حزمة ، يتصببن عرقًا وشعورهن ملتصقات بوجوههن وكأن رزاز المطر قد تساقط عليهن .

- أتينا لرؤياك ، يا « لوكـاس لوكاتيرو » . من « أمـولا » أتينا لهذا الغرض دون سواه . أخـبرونا قريبًا من هنا أنك مـوجود بدارك ؛ لكننا لم نتخيل أنك فى مؤخرتهـا وعلى هذا الوضع . اعتقدنا أنك دخلت لإطعام الدجاج ، ولهذا اقتحمنا عليك خلوتك . جئنا لمقابلتك .

أيتها العجـائز الشمطاوات ! مُسنّات وقبيحـات وكأنهن مصابات بداء كُزَاز الحمير .

- ماذا تردن ؟ - سـألتهن بيـنما كنت أُغلق فـتحة السـروال وأُحكم وثاقه حول وسطى ، عندئذ حجبن عيونهن حتى لا يرونى .

- نحـمل لـك رسـالـة . بحـثنا عنك فى « سانتـو سنتيـاجو » وفى « سانتا إينيس » ، لكنهم أخـبرونا أنك تركت هناك وانتقلت إلى هذه القرية ، وها نحن قد أتينا . نحن من « أمولا » .

كنت أعرف المكان الذى ينتسبن إليـه ومن يكنّ ؛ بل كان باستطاعتى تعداد أسمائهن ، اسمًا اسمًا ، لكننى تغابيت .

- الحمد لله . عثرنا عليك أخيراً ، يا « لوكاس لوكاتيرو » .

دعوتهن إلى فناء الدار وأحضرت مقاعـد ليجلسن عليها . سألت إذا كن يردن طعامًا أو على الأقل جَرّة ماء ليرطبن ألسنتهن .

جلسن وهنّ يجففن العرق بتمائمهن .

- لا ، شكراً - قلن - . لانـريد أن نُثـقل عليك . نحـمل لـك رسالة . لاشك أنك تعرفنى ؟ - سألت إحداهن .

– بعض الشيء . يخيل إلىّ أنني رأيتك في مكان ما . ألست « بانتشا فريجوسو » ، التي خطفها « أوموبونو راموس » بمحض إرادتها ؟

– بالفعل أنا ، لكن لم يخطفني أحد ، هذه محض افتراءات . كل ما في الأمر أننا تُهنا في الصحراء ونحن نبحث سويًا عن الصبَّاريات . أنا أنتمي إلى الرهبانية ولم أكن لأسمح بأي شكل من الأشكال . . .

– بماذا ، يا« بانتشا » ؟

– آه ! يالسوء ظنك ، يا « لوكاس » ! إلى الآن لم تُقلع عن عادتك السيئة في اتهام الناس بالباطل ! وبما أنك تعرفني ، دعني أفصح لك عن سبب مجيئنا .

– ألا تردن ولو جرة ماء ؟ – عدت لسؤالهن .

– لاتتعب نفسك ، لكن ما دمت تُصر ، فلن نكسر بخاطرك .

أحضرت لهن دَوْرقًا بماء الريحان فشربنه ، وأحضرت آخر فلم يتنظر كسابقه . عندئذ قَرَّبت منهن جرّة مترعة بماء النهر ، تركتها هناك ، على أهبة الاستعداد ، لكي يدفعن بها ، في القريب العاجل ، الظمأ الشديد الذي يعتورهن – حسبما يدعين– مع بداية هضم الطعام.

عشر نساء ، جالسات في صفّ ، بملابسهن السوداء المُتْربة . بنات « يونثيانو » ، « إيميليانو » ، « كريسثينثيانو » ، « توريبيو » – صاحب الحانة – و « أنا ستاسيو » الحلاق .

عجـائز شمطاوات ! لاتُستـساغ منهن واحدة ، كلهن على مـشارف الخمسين ، ذابلات ، مكتئبات وضامرات . لامجال بينهن للاختيار .

- وعن ماذا تبحثن هنا ؟

- أتينا لمقابلتك .

- وها أنذا أمامكم ، بخير كما ترون .

- تركت مـا وراءك وانتـقـلت إلى مكان قـصـيّ . إلى هذا المكان المتواري . المـنزوى على الخريطة حـيث لايهتدى إلـيك أحد . أتعبـتنا فى العثور عليك بعد كثير من التقصى والسؤال .

- أنا لا أختبئ . أعيش هنا قـرير العين ، دون مضايقة الناس . وأية رسالة تحملن ، إن حق لى السؤال ؟

- المسألة تتعلق . . . لكن لاتزعج نفسك بالتفكير فى إطعامنا ، لقد أكلنا جمـيعا فى بيت « لاتوركـاثيتا » . ومن ثمّ عليك بالانتـباه والتركـيز معنا ، اجلس أمامنا هنا لكى نراك وتسمعنا جيداً .

لم يكن بمقـدورى الركون إلى الدّعـة ، كنت أود الذهاب ثانيـة إلى الحظيرة ، كنت أسمع صوت الدجاجات وسيطرت علىّ الرغبة فى الذهاب لجمع البيض قبل أن يأكله الأرنبان .

- أنا ذاهب لجمع البيض .

- لقد أكلنا بالفعل ، فلا تشغل بالك .

- لدى هناك أرنبـان طليقـان وأخاف أن يأكـلا البيض . ، سـأعود حـالا . وذهبت إلى الحظيرة .

لم تكن فى نيتى العودة ، بل التسلل من الباب المؤدى إلى الرّبوة وترك تلك السلسلة من العجائز السقيمات للسأم من طول الانتظار .

ألقيت نظرة على كوْمة الحجارة المنتحية إلى زاوية وطالعتنى صورة لَحْد . شرعت حينئذ فى بعثرتها ، ملقيًا بها فى كل اتجاه ، جاعلا خيطا هنا وآخر هناك . كانت حجارة مخروطية من النهر يسهل علىّ تطويحها بعيداً . أيتها العجائز ، ياحفدة يهوذا ! لولاكّن ما تجشمت عناء هذا العمل . لا أدرى لماذا سيطرت عليكن نزوة المجىء .

تركت العمل ورجعت . أهديتهن البيض .

- قتلت الأرنبين ! شاهدناك وأنت ترشقهما بالحجارة . سنحتفظ بالبيض إلى وقت لاحق ، ما كان عليك أن تتعب نفسك .

- البيض فى الصدور هكذا يمكن أن يفقس ، الأفضل تركه خارجها .

- آه ، لم تتغير يا « لوكاس لوكاتيرو » ! مازلت تحب (الهذار) . نحن لسن حاميات إلى هذا الحد .

- لا أعلم شيئًا عن هذا ، قلت ما قلته بسبب شدة الحرارة التى عليها الجو .

ما كنت أبتغيه هو (توزيعهن) . توجيه دفّتهن إلى اتجاه آخر ريثما أبحث عن وسيلة لطردهن من دارى طِرّدة تقضى على أية رغبة لديهن فى العودة ، لكننى لم أوفق فى الاهتداء لشىء .

كنت أعـــرف أنهن يبـــحـــثن عنـــى من ينـــايــر ، بعـــد قلـــيل من اختـــفـــاء « أنكليتو موررونيس » . لم أعدم من يـحذرني من اقتفاء عجائز رهبـانية « أمولا » لأثرى . كـن الوحـيـدات اللاتى يمـكن أن يهمهن أمر « أنكليتو موررونيس » .

وها هن ما ثلات أمامى .

كان بوسعى الاستمرار فى مطّ الحديث معـهن أو إلهائهن بأية طريقة حتى يُمسى عليهن النهـار ويضطررن للانصراف ، فلم يكن من المعقول أن يخاطرن بتمضية الليل فى دارى .

بعد قلـيل سنـــحت الـفرصة لأجـــسّ نبضـــهن : عـــنــدما قالت ابنة « يونتشـــيانو » أنهـــن يردن الانتـــهاء بســرعة حتي يتمكن من العودة إلى « أمولا » فى وضح النهار ، كنت جـاهزاً وقلت إنه لاداعى للانزعـاج لأن حصيرة الصيف واسعـة وتوجد أغطية تكفى الجميع وزيادة . رددن فى صوت واحد قائلات أما هذا فلا ، فـماذا يقول الناس عنهن عندما يعرفون أنهن أمضين الليل فى بيتى وأنا بداخله . أما هذا فلا .

كان شـغلى الشـاغل ، إذن ، هو إطالة الحديث مـعهن حـتى يمسك الليل بتـلابيبهـن ، وساعتـها أكـون قد تخلصت من الفكرة التى تـئز فى أدمغتهن .

سألتُ إحداهن :

- وما هى أخبار زوجك ؟

- لست متـزوجة ، يا « لوكـاس » . أنسيت أننى كنت خطيـبتك ؟ انتظرتك وانتظرتك وبقيت منـتظرة ، إلى أن علمت بعدها أنك تزوجت ، فى وقت لايرغب فىّ راغب .

- وأنا ؟ مـا حدث أن شـواغل أخرى ألهـتنى ؛ لكن الوقت لايزال يسمح .

- لكنـك متـزوج ، يا « لوكاس » ، وليـس أىّ زواج ، بـل من ابنـة « الطفل القـــديس » ذاتها . لماذا تقـلّب علىّ المواجع مرة أخـرى ؟ لقد نسيتك .

- أما أنا فلا . ما اسمك ؟

- « نيبيس » . . . مـازلت أسمى « نيبيس » . « نييـبس جارثيا » . وأرجوك لاتثر أشـجانى وتدفعنى إلى البكاء ؛ لأن مجـرد تذكرى لوعودك المعسولة يجعلنى أزفر الحسرات .

- « نييـبس » . . . « نيبيس » . كـيف لا أتذكرك وأنت ممن لايُنْسَى . . . كنت كالنسمة الرقيقة . لم أنسَ ، مازلت أحسك بين ذراعى ، رقيقة غـضّة . الفسـتـان الـذى كـنت ترتـدينه لرؤيتى كـانت تفوح منه رائحـة الكافور ، كـنت تَسُدِّين كل حـواسى وتهتصـرينى بشدة حـتى أننى كنت أحس بك داخل عظامى . نعم ، مازلت أذكر .

- لاتستـمر ، يا « لوكـاس » . اعترفت بالأمس وتأتـى أنت لتوقظ المشاعر الآثمة وتغرقنى فى بحر من الذنوب .

– أتذكر أنني كنت أُقبّل بروزات جسدك وأنت كنت تقولين هنا لا ، لأنك سريعة التأثر . أما زالت النّونات موجودة بباطن ساقيك ؟

– كُفّ عن هذا ، يالوكاس لوكاتيرو » . لن يغفر لك الله ما فعلته معى ، سيكون حسابك عسيراً .

– أفعلت بك سوءًا ؟ هل آذيتك بمعاملتى ؟

– تَفِلت هذا وألقيته وراء ظهرى . ولا تضطرنى لقوله أمام الناس . لكن لكى تضعه حلقه فى أذنك : لقد تفلته وألقيته وراء ظهرى ، كان شيئًا هكذا مثل مضغة . ولماذا كنت سأقع فى غرامك والمجون والاستهتار ديدنك ؟

– هذا ما حدث إذن ؟ لم أكن أعرف ، ألا تردن قليلا من ماء الريحان ؟ لن أتأخر فى إعداده . انتظرن .

وذهبت مرة أخرى إلى الحظيرة لقطف الريحان ، وهناك تلكأت قدر ما استطعت ، ريثما يخف هياج تلك المرأة .

عندما رجعت كانت قد رحلت .

– ذهبت ؟

– نعم ، ذهبت . لقد أبكيتها .

– ما قصدت بالحديث معها إلا تسلية الوقت ، ألا يلفت انتباهكن جفاف المناخ هنا ؟ هناك ، فى « أمولا » لابد وأنها أمطرت ، أليس كذلك ؟

– نعم ، انهمر أول أمس وابل من المطر .

– لاشك أن « أمولا » مكان جميل . تمطر دائمًا ويعيش من بها عيشة رغدة . أما هنا فلا تظهر حتى السحب . مازال « روجاثيانو » رئيس البلدية ؟

– نعم .

– رجل طيب « روجاثيانو » هذا .

– لا . إنه ملعون .

– قد تكونن على صواب . وما أخبار « إيلد ليرو » ، ما زالت صيدليته مغلقة ؟

– « إيلد ليرو » مات . فعل خيرًا بموته ، وإن كان من القبح التصريح بهذا ؛ لكنه كان ملعونًا آخر . كان واحدًا من الذين شنّعوا على « الطفل أنكليتو » ، اتهمه بالاحتيال والشعوذة وخداع البُسَطاء . ولم يكف عن ترديد هذا فى كل مكان ، لكن الناس لم تحفل به وجازاه الله شر الجزاء . مات بداء الكَلَب .

– ندعو الله أن يكون من نزلاء سَقَر .

– وألا تكِلّ الشياطين من تزويد نيرانها بالحطب .

–الشئ نفسه نرجوه للقاضى « ليريو لوپث » الذى أيَّد دعواه وأمر بإدخال « الطفل القديس » السجن .

الآن هن اللاتى يتكلمن . تركتهن يتفوهن بكل ما يشتهين . مادمن لايتعرضن لى فكل شىء على ما يرام . وفجأة ورد بخاطرهن سؤالى :

- ألا تريد المجيء معنا ؟

- إلى أين ؟

- إلى « أمولا » ، لهذا أتينا ، لاصطحابك .

حدثتني نفسي بالرجوع إلى الحظيرة والخروج من الباب المؤدى إلى الرّبوة والاختفاء . أيتها العجائز التعيسات !

- وما لي أنا و«أمولا » بحق الشياطين ؟

- نريد منك المساندة فيما نسعى إليه . لقد خصص كل المنتمين إلى رهبانية « الطفل أنكليتو » تسعة أيام للصلوات والتوسلات من أجل المطالبة بتقنين هذه الأخوية الدينية وجعلها رسمية . أنت صهره ونحتاجك كشاهد عيان . أوصانا القسيس بإحضار أحد يكون قد خَبَره عن قرب وعرفه قبل أن يصبح شهيراً بمعجزاته ، ومن لنا أفضل منكَ وقد عشت إلى جواره وبإمكانك ، أكثر من غيرك ، سَرْد الكرامات التي جرت على يديه ، لهذا نحتاجك ، لكي تدعمنا في هذه الحملة .

أيتها العجائز الشائهات ! خامرني هذا الإحساس من قبل .

- لا أستطيع الذهاب - قلت لهن - . لايوجد من يعتني بداري في غيابي .

- عملنا حساب هذا واتفقنا على بقاء فتاتين لحراسة الدار ولمرافقة زوجتك الموجودة هنا .

- الآن لايوجد لدي زوجة .

– وأين هى ؟ أين ابنة « الطفل أنكليتو » ؟

– رحلت . تخلصت منها .

– هذا شيء لايُصدّق . لابد وأن المسكينة تعانى . مع ما كانت عليه من طيبة قلب وشباب وجمال . وإلى أين أرسلتها ، يا « لوكاس » ؟ لن نقنع بأقل من إدخالها دير « التائبات » .

– لم أدخلها أى مكان . تخلصت منها وحسب ، وأنا على يقين بأنها ليست مع « التائبات » ، فقد كانت مولعة بالصخب والزحام ولابد أنها تهيم على وجهها فى هذه النواحى منهمكة فى فكّ أحزمة السراويل .

– لانصدق ولاحتى كلمة مما قلت يا « لوكاس » . قد تكون هنا معتكفة بإحدى غرف البيت ، مشغولة بصلواتها . عهدناك كذّابا أشر ومروحًا للشائعات ، ألا تذكر بنات « إيرميلينسدو » المسكينات اللاتى اضطررن للرحيل إلى « الجريّو » لأن الناس كانت تصرخ فيهن بأغنية « الساقطات » بمجرد أن يخرجن إلى الشارع ، وكان هذا بسبب اختراعك للأقاويل . لايمكن تصديق شيء يصدر عنك يا « لوكاس » .

– لافائدة تُرجى ، إذن ، من ذهابى إلى « أمولا » .

– تعترف أولا وينصلح الحال . منذ متى وأنت لاتعترف ؟

– أوه ! منذ ما يقرب من الخمسة عشر عامًا . من الساعة التى كان سيعدمنى فيها « لوس كيرستيروس » . صوبوا البندقية إلى ظهرى

وجعلونى أجثو أمام القسيس واعترفت ، حتى بما لم أفعله . اعترفت وقتها لسنوات عمرى الباقية .

- لولا حاجتنا إليك ، بصفتك صهر « الطفل القديس » ، ما فكرنا أبدًا فى الاستعانة بك ، كنت دائما فى منتهى الشيطنة يا « لوكاس » .

- لهذا كنت مساعداً لإبليس ذاته : « انكليتو مورونيس » .

- لاتكفر .

- لاتعرفنه إذن .

- عرفناه كقديس .

- ولم تعرفنه كبائع للإيقونات ؟

- ما هذا الترهات ، يا « لوكاس » ؟

- بالفعل لاتعرفن هذا ؛ لكنه بدأ ببيع تماثيل القديسين فى الموالد وعلى أبواب الكنائس ، وأنا الذى كنت أحمل عدّته وأدواته فى جوال . كنا نمضى نحن الاثنين ، واحدًا إثر الآخر ، من قرية إلى قرية ، هو فى المقدمة وأنا خلفه حاملا الجوال وبه إيقونات « سان بانتاليون » و « سان أمبروسيو » و « سان پاسكوال » ، التى كانت تزن مالايقل عن ستة وثلاثين كيلو جرامًا .

ذات يوم تقابلنا مع فوج من الحجاج . كان « أنكليتو » منكفئًا على مساكن للنمل يشرح لى كيف لايلسع النمل إذا ضغط الواحد بأسنانه على طرف لسانه . تصادف هذا مع مرور الحجاج . رأوه . توقفوا ليشاهدوا تلك النادرة - سألوا : « كيف يمكن ملامسة مساكن النمل دون أن تعضه النملات ؟ » .

فما كـان منه إلا أن عقف ذراعيه على شكل صليـب وأخذ يقول إنه واصـل لتـوهٍ من رومـا ومـعـه رسـالة وأنه يحـمل فِلْقَـة من « الصليب المقدس » الذى صُلب عليه المسيح .

حملوه من هناك على أكُفِّهم ، وأبقـوه مرفوعًا هكذا حتى وصلوا به إلى "أمولا " . وانتـهى به المطاف هناك ؛ كان الناس يجـثون أمامـه طلبًا للمعجزات .

– ما أنت إلا قَوّال وكـافر . ماذا كنت قبل أن تتـعرف عليه ؟ راعى خنازير نكرة ، وجعلك غـنيًا ، تدين له بكل ما تملك . كـان من واجبك ذكره بالخـير والثناء عليـه ولو من أجل هذا فقـط . أيها التعس ، الـناكر للجميل .

– أعتـرف له بانتشالى من وَهْدة الجـوع وأشكره على هذا الصنيع ، لكننى لا أحـيد قـيد أنملة عن رأيـى فيـه وهـو أنه شـيطان يمشى على رجلين ، ولايزال كذلك إلى الآن أينما وُجد .

– إنه فى السـمـاء بين الملائكة ، فى نعـيـم الجنة ، وإن كـان هذا يوجعك ويوغر صدرك .

– ما أعرفه أنه فى السجن .

– كان هذا من فترة ، هرب ، وبعدها اختفى دون أن يترك أثرًا . إنه الآن فى السماء جسدًا وروحًا . ويـباركنا من هناك . عليكن بالركوع أيتها الفتيات ! لنصلِ : « التوبة والمغـفـرة ، يـاربـنا » لكـى يشـفع لـنـا « الطفل القديس » .

وركعت العجائز وهن يقبلن ، عقب كل « يا أبونا الذى فى السماء»، التمائم المطرزة بصورة " أنكليتو مورونيس" .

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر .

انتهـزت الفرصـة لأدخل المطبخ وأزدرد بعـض لقـيـمات من عـجة اللوبيا .

عندما رجعت لم أجد منهن سوى خمس نساء .

- أين الأخريات ؟ - سألت .

رَدّت عليّ " لايانتـشا " مـحركـة الأربعة شـعيرات المتـدليـة من شاربها :

- ذهبن . لايردن التعامل معك .

- أحسن ، تكثـر الذرة عندما تتناقص أعداد الحمـير ، ألا تردن ماءً آخر بالريحان ؟

تطوحت إحداهن ، "لا فيلومينا " ، التى ظلت صامتة طوال الوقت يلقبونها « بالقتيلة » نكاية فـيها ، وانكفأت على إصيص للزرع وأدخـلت إصبعها فى فـمها وأخذت تفرغ كل مياه الريحان التى تجـرعتها ، مخلوطة بقطع صغيرة من لحم الخنزير وببعض الحبوب .

- لا أريد منك ماء ريحان ولاغيره ، أيها الكافر . - وضعت البيضة التى أهديتـــهـا لهـا على الكرسى - . ولا أريد بـيـضك ! الأفـضل لى الانصراف .

لم يتبق الآن منهن سوى أربع .

- أنا الأخرى لى رغبة فى التقيؤ - قالت "لاپانتشا" - . لكننى أقاوم . لابد وأن نحملك إلى " أمولا " بأى شكل من الأشكال ، أنت الوحيد الذى بإمكانه تقديم البراهين على قداسة « الطفل القديس » . بالتأكيد سيجعل قلبك يلين ، لقد علقنا صورته بالكنيسة وليس من الإنصاف انتزاعها من هناك وإلقائها فى عرض الطريق بسببك .

- ابحثن عن آخر . لا أريد المشاركة فى الحملة .

- كنت ابنه تقريبًا . ورثت ثمرة قداسته . وضع فيك نظرته لتدوم وتخلد . أعطاك ابنته .

- بالفعل ، لكنه أعطاها لى جاهزة .

- سترك يارب ! كلامك فظيع يا " لوكاس لوكاتيرو" .

- أعطاها لى حاملا فى الشهر الرابع على أقل تقدير .

- لكنها كانت تتضوع قداسة .

- بل تفوح منها النتانة . صعد إلى رأسها كشف بطنها أمام الرائح والغادى لكى يتأكدوا أنها من اللحم . كانت تظهر لهم (كرشها) المنتفخ ، الضارب إلى الزرقة بفعل كبر حجم الجنين . كانوا يضحكون . كانت خالعة العذار . تلك هى ابنة " أنكليتو مورونيس" .

- ياكافر . كيف يصدر عنك هذا الكلام ! سنهديك تميمة لتطرد الشيطان الذى يلبسك .

- . . . . . هربت مع واحد منهم ، زاعمة أنه يحبها . قلت لها فقط : « سأخاطر بإعطاء المولود اسمى » وهربت معه .

- كانت ثمـرة « الطفل القديس » . في ريعان الشبـاب . وحصلت عليها دون مقابل . كنت مالكًا لتلك الثروة سليلة القداسة .

- ترهات !

- ماذا تقول ؟

- في بطن ابنة " أنكلـيتـو مـورونيس" كـان يرقد ابن " أنكـليتـو مورونيس" .

- هذا من اختراعك لتفترى عليه بالباطل ، الافتراء شيمتك .

- نعم ؟ وما بال الأخـريات ؟ لقد ترك هذه البـقعـة من العالم دون عذراوات ، إذ كان يصر على أن ترافقه آنسة تسهر عليه طوال الليل لتتعهد منامه .

- كان يفعل هذا لأنه ينشد النـقاء والطهارة . لكى لا تدنسه الآثام . كان يريد أن يحيط نفسه بالبراءة حتى لا تتدنس روحه .

- تعتقدن هذا لأنه لم يطلب إحداكن لمرافقته .

- لقد دعاني - قالت واحدة منهن تدعى "ملكيادس" - . وسهرت أرعي منامه .

- وماذا حدث ؟

- لاشيء سوء اهتصار يديه الخـارقتين لى فى تلك الساعة التى يحس فيهـا بوصول البرد . وحمدت له الدفء المنبـعـث من جسـده . لاشيء أكثر .

- هذا لأنك كنتِ عجوزاً . إنه يحبهن لَدنات ؛ من تطقطق عظامهن الصغيرة بين أحضانه مثل قشر الفول السودانى .

- أنت زنديق ملعــون ، يا " لوكاس لــوكاتيــرو" ، بل أبشع زنديق على وجه الأرض .

الآن تتــحدث " لا إويرفَنا " * ، المشهوره ببكائها الدائم . أعجزهن . كانت عيناها مغرورقتين بالدموع ، ويداها ترتجفان :

- أنا يتــيمــة وهو الذى أنسانــى اليُتْم ؛ وجــدت فيــه أبى وأمى من جــديــد . أمضى الليل يداعبنى ليزيل عنى الكآبة والحَزَن .

كانت دموعها تتساقط .

- إذا كان الحزن قد ولَّى فلا داعى ، إذن ، للبكاء - قلت لها .

- هذا لأن والدىّ ماتا وتركـانى وحيدة ؛ يتيــمة فى تلك السنّ التى يصعب فيها العثور على مؤازرة . الليلة السعيدة الوحيدة أمضيتها فى كنف " الطفل أنكليتو " ، بين ذراعيه المفــعمتين بالعزاء والسلوى ، وتأتى الآن لتتطاول عليه وتذكره بالسوء .

- كان قديسًا .

- منبعًا للصلاح .

- كان أملنا أن تسير على دربه ، لقد ورثته بكامله .

* (La Huérfana) (لا إويرفنا) ، هذه الكلمة مستخدمة كلقب ومعناه : اليتيمة . (المترجم) .

- أورثني كَمًّا هائلا من الرذائل ، علاوة على عـجوز بلهاء . ليست طاعنة في السنّ مثلكن ؛ لكن خَبَلَها لا مِراء فيـه . فعلت خيرًا برحيلها . أنا الذي فتحت لها الباب .

- هرطقة ! تخترع هرطقات واضحة للعيان .

لم يبق عندئذ سوى اثنتين منهن .

تسللت الباقيات ، ناكصات على أعقابهن ، واحدة إثرِ أخرى ، وهن يلوحن في وجـهي بالصليب ويعدنني بالرجـوع معهـن المُعَوِّزون الطاردون للأرواح الشريرة .

- لاتســـتطيع إنكار المعــجـزات الـتي جـرت على يـديّ « الطفل أنكلـيتـو » - قالت ابنة " أنا ستاسيو " - . لن تعارض في هذا بالتأكيد .

- تصنيع الأطفال لايندرج تحت أي بند من بنود المعــجزة . كان هذا مجال تخصصه .

- لقد شفي زوجي من الزُّهَري .

- لم أكــن أعــرف أن لـك زوجًا . ألست ابنه " أنا سـتـاسيـو " الحلاق ؟ . ابنة "تاتشو" غير متزوجة ، حسب علمي .

- أنا عزباء ، لكن لدي زوج . العزباء شيء ، والآنسة شيء آخر . تعرف هذا . أنا لست آنسة ، لكن عزباء .

- في سِنِيِّك تلك تفعلين هذا ، يا " ميكائيلا " .

- كان عليّ أن أفعله ، ما الذي كنت سأجنيه من حياة العزوبية ؟ أنا امرأة ، والواحدة تُولد لتهب ما أودع فيها .

- تتحدثين بلسان « أنكليتو موررونيس » .

- نعم ، هو الذى نصحنى بفعل هذا للشفاء من داء الكبد ، اقترنت بشخص ما ، لأن الوصول لسنّ الخميسين مع البقاء جديدة خطيئة .

- أفتاك بهذا « أنكليتو موررونيس » !

- نعم ، هذه فتـواه . لكننا آتينا لشيء آخر ؛ لتـذهب معنا وتشـهد بأنه كان قديسًا .

- ولماذا لا أكون أنا ؟

- لم تصدر عنكَ أية معجـزة . هو شفى زوجى . وأنا شاهدة على ذلك . ، هلْ شفيت أحدًا مرة من الزهرى ؟

- لا ، ولا حتى أعرفه .

- إنه شيء هكذا مثل الغرغرينة . أصبح لونه بنفسـجيًا وامتلأ جسده بالنُّدب . لـم يكن يعـرف طعم الـنوم . كـان يقـول إنـه يرى كل شيء مصطـبغا بالحُـمرة وكـأنه يطّل من بوابة الجحـيم ، كان يحس بـعد ذلك بحرقان يجعله يثب من الألم . ذهبنا حينئـذ إلى « الطفل أنكليتو » وشفاه ، كواه بعود مـشتعل من البوص ومَسّ الجروح بلعابه ، وجـفّت واختفت أوجاعه . أَخْبِرنى إذا لم تكن هذه معجزة .

- لابد وأنه كان يعانى من الحصبة . أنا أيضًا عالجونى باللعاب عندما كنت صغيرًا .

- أكرر ما سمعته من قبل : أنت زنديق ملعون .

- عزائى الوحيد أن " أنكليتوموررونيس " كان أسوأ منى .

- عاملك مـعاملة الأب لابنه . ومازلت تجـرؤ . . . لاأريد مواصلة سماعك . إنى راحلة . أتبقين يا " پانتشا " ؟

- لبعض الوقت ، لأحاول معه المحاولة الأخيرة .

- اسمعى ، يا " فرانثيكا " ، بعد أن رحلت الأخريات ولم يبقِ إلا أنت ؛ ستنامين عندى الليلة ، أليس كذلك ؟

- ولو رأيت حَلَمة أذنك ، وكلام الناس ؟ ما بقيت إلا بغرض إقناعك .

- على كل واحد منّا ، إذن ، إقناع الآخر . لن تخسرى شيئًا فى النهاية . بلغت أرذل العمر ولن يهتم بك أحد أو يُسدى إليك معروفًا .

- وأقاويل الناس ، وظنونهم السيئة ؟

- دعيهم يظنون كما يحلو لهم . فالأمر سواء . وعلى أيه حال فهم يلقبونك " يانتشا " * .

- حسنا ، سأبقى معك ؛ لكن إلى مطلع الفجر فقط . وهذا على شرط أن تعدنى بالمجىء معى إلى "أمولا " ، لكى أخبرهن بأننى أمضيت الليلة بطولها فى الإلحاح والتوسل إليك . وإلا ، فماذا سيكون موقفى ؟

* « پانتشا » (Pancha) : بمعنى بطن أو كرْش . وقد أُطلق عليها هذا اللقب لأنها كانت دائمة التورط والحمل السفّاح . (المترجم) .

- مــوافق . لكن عليك قــبل هذا بقـــص الشعــيرات المتدليــة من شاربك ، سأحضر لك المقصّ .

- أنت تسـخـر مني . لايشغلــك سوى النظر إلى عـيـوبى . اترك الشارب على حاله ، على الأقل حتى لايتسرب إليهن الشك .

- حسنا ، كما تبغين .

عندما أدبـر النهار ، ساعـدتنى فى إصلاح عـريشة الدجـاج وجمع الحجارة التى كنت قد بعثرتها فى الحظيرة ، وإعادة تكويمها فى الركن الذى كانت فيه من قبل .

لم أفسد عليهــن حملتهن وأخبرهن أن " أنكليتـوموروونيس " مدفون فى ذلك الركن ، ولا أنه مات فى اليـوم نفسه الذى هرب فيـه من السجن وجاء إلى هنا ليطالبنى بإعادة ممتلكاته .

وصل قائلا : - بع كل شيء وأعطنى المال ، لأننى فى حاجة للسفر إلى الشمال .

سأكتب لك من هناك وسنعود للعمل سويًا .

- لماذا لاتأخذ ابنتك مـعك ؟ - سألته - . هى الـتى تفيض عن كل مالدى وتدعى أنه يخصك . لقد أوقعتنى فى حبائل أفعالك الشائنة .

- ستـلحقــان بى فيــما بعـد ، عندما أرسل لكمــا بعنوانى ، وهناك سنصفى حساباتنا .

- الأفضــل تســـويتها الآن وإلى الأبد ، ليـعرف كلٌّ منا مــا له وما عليه .

- الوقت لايحتمل (الهِزار) - قال لى - . أعطنى ما يخصنى . كم معك الآن من النقود ؟

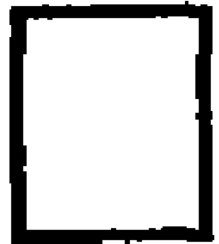
- بعض المال ، لكنى لن أعطيه لك . لقد أمضيت أيامًا حالكة مع المستهترة ابنتك ، وقد وصلك حقك وزيادة بإنفاقى عليها .

أرغى وأزبد . كان يضرب الأرض بقدميه ويتعجل الذهاب . . .

« عليك رحمة الله » ، يا " أنكليتومورنيس " ، قلت له عندما دفنته ، وكلما ذهبت إلى النهر أعود منه محملا بالحجارة لألقيها فوق قبره : « لن تخرج من هنا حتى ولو استخدمت كل ما فى جرابك من حِيَل » .

والآن تساعدنى " لايانتشا " فى وضع ثقل الحجارة فوقه من جديد ، دون أن يدور بخلدها أن " أنكليتو " يرقد تحتها وأننى أفعل هذا خوفًا من خروجه من لحده ، وعودته لمناصبتى العداء ثانية . لم أكن أشك ، نظرًا لما كان يتمتع به من مهارة ، فى أنه لن يعدم وسيلة للخروج بها من هناك والعودة إلى الحياة .

- ألقى ما تقدرين عليه ، يا " يانتشا " . كوِّميها فى هذا الركن ، لايعجبنى منظر أرضية حظيرتى وهى مكتظة بالحجارة .

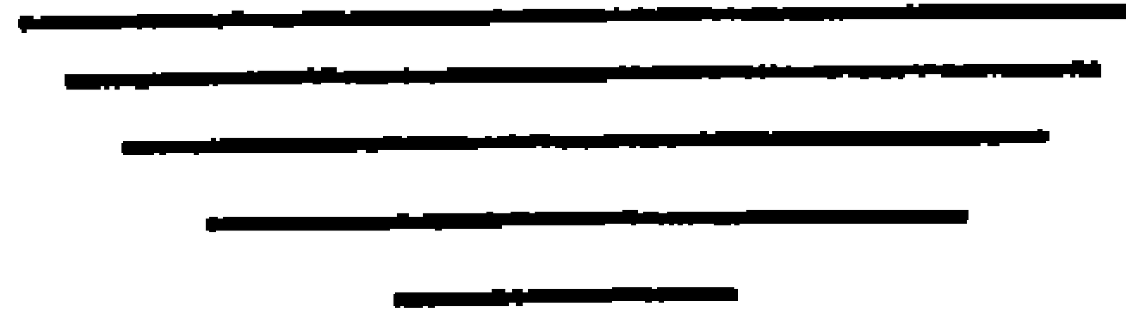


قالت لى بعد ذلك ، عند السَّحر :

- أنت بلوى وعديم الخبرة ، يا "لوكاس لوكاتيرو " . لاتحمل مثقال ذرة من الحنان أو الدفء . أتدرى من كان ضليعًا فى هذا المضمار ؟

- من ؟

- « الطفل أنكليتو » . كان داهية فى ممارسة الحب .



انتهت ترجمة هذه المجموعة القصصية .

الفهرس

رقم الصفحة

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ - مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسي سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغني
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ - السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ - نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت . حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ - صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ - العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ - شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ - الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ - مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ - مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ - طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ - نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ - الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ - الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ - وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ - محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ - الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ - مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ - الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ - تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ - مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام توميسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ - النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ - السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ - قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ - أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ - الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ - صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رءوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : علي عبد الرؤوف اليمبي
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوي
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكي أندرسون إمبرت	ت : علي إبراهيم علي منوفي
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعي
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابي
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسي
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جي أتيال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مي التلمساني
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامي الكنوجي	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعي
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحي
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومي
١٦١ – من المسرح الإسباني	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوي	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
١٦٤ – شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – في عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكري محمد عياد
١٦٨ – دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكري محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكري محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابي
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنري ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدي إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبي الأمريكي	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إينوورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	الفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماربيا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتزر	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٦٢٢ / ٢٠٠١



El llano en llamas



Juan Rulfo

إن الحديث عن هذه المجموعة القصصية التى تضم سبع عشرة قصة قد يطول إلى ما لا نهاية ؛ لأنها نبع ثرّ لا يغيض ماؤه ويكتنفها الغموض والإبهام ، ومن ثم فإنها تحتمل العديد من التأويلات ، إن الكلام عنها – مهما كثر – لا يغنى عن الانفراد بها وقراءتها مرات ومرات ؛ لأنها كالماء الأجاج كلما عَبَّ منه الإنسان ازداد عطشه وأحس بالحاجة للرجوع إليه .

الجمل فى هذه المجموعة أشبه بدفقات سلاح نارىّ ، لكنه سلاح من أرض «رولفو» ، تخرج طلقة من فوهته إلى الأمام ، وترتد الثانية من مؤخرته فى الاتجاه المعاكس ؛ فهى تتقدم خطوة وتتقهقر أخرى ، وكأن كل جملة تعض ذيل سابقتها وتعوقها عن الحركة ، وليس هذا وحسب ، بل إننا نجدها أحياناً خالية من الروابط ، وأحياناً أخرى نجد بها كلمة محورية تدور حولها بقية الكلمات

